الأبطال

تأليف الفيلسوف توماس كارليل

ترجمة : محمد السباعي

دار الكاتب العربي



تأليف الفيلسوف توماس كارليل

ترجمة : محمد السباعي

دار الكاتب العربي

توماس كارليل

ولد توماس كارليل في قرية أكلفكان بأقليم أناندال بجنوبي اسكوتلانده ، لاربع خلون من شهر تشرين الاول سنة ١٧٩٥ ، وذلك قبل نهضة نابليون لغزو العـــالم بأربعة أشهر ، وقبل وفاة روبرت بارنز شاعر القرن الثالث عشر بسبعة أشهر ، ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلاً انكليزياً.

وكان أبوه بناء وبيديه بنى البيت الذي ولد فيه ابنه ، وهو دليل على متانة أخلاق الرجل واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوة نفسه ، وكان قليل الكلام كثير العمل ، جلد الحصاة صليب العود ، ولكنه ليس بفظ ولا غليظ ، فكأن قلبه بئر السلسل الزلال حولها من الحجر الاصم سور وحجاب ، وأبت أخلاقــه ان تجاور « خلائق اصفار من المجد خيب » ، فهجر القوم الذين كان يعيش بينهم أولاً ، وانضم الى فئة من أهل الخلاف والسخط ، ولو أنه أصاب من العلم حظاً أوفر لجاز ان يكون مدير بلده ، ولكنه كان وحاله تلك يخيف المدير ويقلقه ، وهو الذي أراده مدير بلده حين يقول : « اعط الرجل أجرته ودعه يذهب عنا فانه وعر المقادة صعب المراس » وكان حسن البيان ، مشرق ديباجة الكلام ، كثير الاستعارة والتشبيه ، على جهله معنى التشبيه والاستعارة ، وهذا برهان على ان ابنه انما عنه لا عن والدته ورث الفحولة والعبقرية .

اما والدة كارليل واسمها مارغريت ايتكين ، فكانت ورعة تقية شفيقة ، حدبة رحيمة ، كثيرة الشغف والحنان ، واللهف والحنين ، دمثة الجناب مأنوسة الجانب ، مأمونة الناحية ، طلقة الجو رطيبة الظل ، وقد قال عنها كارليل :

« ما أنست بإنسان قط أنسي بوالدتي ، ولا وجدت ممرحاً الا في ساحة كرمها ، ولا مرتعاً الا في كنف حلمها ، ولا مرعى في غير روضة شيمها ، ولا مشرباً في خلاف غدير طبعها وخيمها » وحق له أن يقول ذاك عن أم كانت عليه أبـــداً خفاقة الاحشاء قلقة الضلوع ، وعلى مصلحته ساهرة المقلة جمة الرجاء تلعاء الجيد .

وتلقى مبادىء العلم في مدرسة القرية ، ثم في مدرسة قرية اسمها « اثان » ، ثم دخل بجامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره ، وفي التاسعة عشرة اي في عام ١٨١٤ صار مدرّساً للرياضة بمدرسة « اثان » ، وبعد ثلاثة أعوام من ذلك صار رئيس مدرسة ببلدة « كركالدي » .

وهنا علِق فتاةً مليحة ُتدعى مرغريت جوردون ، وهي التي وصفها في كتابه « سارتور رزارتوس » أو فلسفة الملابس باسم « بلومـــين » والتي كادت تكون زوجه لولا تعرض اصدقائها وفيها يقول :

« وكان الفتى المنفرد [1] ، صاحب الخيال المشتعل ، ُيكبر ملكات العالم [2] ويقدسهن، ويرى لهن جلالاً إلهياً ، ولم يك حظه منهن الا حظ اللمس من الخيال والغليل [3] من الآل [4] .

تراه عيني وكفي لا تباشره حتى كأنيَ في المرآة أبصره

فكنّ له كأنهن من الهواء مخلوقات ، ومن الضياء مصوغات ، أرواح في أشباح ، وأذهان في الوان .

خَلـْقٌ من الماء والالوان نيران

وكأنهن ملائكة تحمل كل منهن معراجاً يرتقي فيه العاشق الى مقامـــات الابرار في الجنان ، فليت شعري هل قضى الله للفتى المنفرد ان يظفر يوماً مـــا

---

١) يعني نفسه .
٢) يعني النساء .
٣) العطش .
٤) السراب .

باحدى هذه الملكات ؟ بل أين منه ذلك هيهات هيهات !

وأما والذي خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه ، لئن قضى الله للفتى أن تهبط عليه واحدة من تلك الخيـــالات المليحات ، فتتحول له جسماً حياً ملموساً وحقيقة محسة ، ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد ، وتقول له بعينيها : « لك الآن أن تُحِب وتُحَب » إذن فأي بركان هاجع يثور ، وأي جاحم كامن يجيش ويفور !

وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوماً ما في فؤاد الفتى المنفرد اشتعالاً بركانياً ، وكيف يكون الأمر غير ذلك وللفتى مزاج رقيق وطبع سريع الهياج فيه « كاربون » الحدة و « فوسفور » الشهوة و « كبريت » الانفعال ، تنتظر ادنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر قتالة الالحاظ ، فتتأجج وتشتعل ، ومـا شرار اللحظ في هذا العالم بالشيء المفقود ، فليت شعري إذا هبطت عليه من آفـــاق العزة مليحة حسناء فرمت « كبريته » بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل ؟ أتكون زخارف نارية [1] تتوالى بارقاتها في نظام ، وتتابع نيّراتهـــا في نسق ، مؤلفاً من جميعها عصر غرام بهج وزمن متاع هني ، ام تكون ثورات بركانيـة ذات معمعة وزفير تنشق لها كبد الفتى وينفطر فؤاده (وهـذا هو الموت) — — أو تهتك حجاب الخيال وتعيث فيه فيختل مـــيزانه ويجمح عنانه (وهو الجنون) حتى يخرب ذلك العالم الذهني الذي شاده الله في نفس الفتى ، ويصبح ولم يبق منه الا فوهة بركان خامد .

بين جنات الزهر والريحان الجة الفنون والألوان ، العبقة الأرجـــاء بشذا المسك ونفح الطيب تشعل ورودها مجامر الند والعنبر .

تشب خزاماها إذا الشمس طفّلت   مصابيح لم يقبس لها النارَ قابسُ

أتاح الرحمن الرحيم للفتى المهجور ان يشهد مجلس الفتاة « بلومين » في رهط من اقاربها ، بين منظر معجب وسماع لذ أينما طرح البصر فما شئت من روض

---

[1]) ما يسمونه « الصواريخ »

نضير ، وماء نمير ، او نصب الاذن فما احببت من جرجرة وخرير ، وهديـل وهدير ، وتغريد وصفير ، وأينما جلس فما اشتهيت من مهاد وثير ، وأريكة وسرير ، وسندس وحرير .

وما هي الا هنيهة حتى قرب الى الغادة وقدم لها : « يا رعاك الله ايتها الآنسة إنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات وتبهرين صواحبك من الغانيات ، كأنك الكوكب الدري هبط من السماء ، فتوسط طائفـة من المصابيح والشموع ، يا اشرف الفتيات ، وسيدة النساء ، يا من سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدناً وروحاً ، وهو مع ذلك منكس الجيد في حضرتك العلية من فرط هيبتك، خاشع الطرف تعروه لذة أليمة وتعلوه حيرة لذيذة ! احقاً اصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويجتلي نور طلعتك وبهاء غرتك، وحقاً تشرق عليه أشعة لحاظك، وحقاً يتكلم فتنصتين ويقول فتسمعين ، ويمزح فتضحكين ، ويعظ فترقـين ، ويشكو فتتوجعين ! وحقاً كان الحب متبادلاً ، والغرام متـداولاً ، والعطف متقارضاً ، والود متقايضاً ، والقطبان يخفقان للالتصاق ، ويرجفان للاعتناق ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعب في حفرة القمر ! بلى حقاً كان كل ذلك ! »

وبحق يقول فيها ذلك وما بالك بمن استشفت بنافذ نظراتهـا قرارة نفس الرجل (كارليل) ولما ينمّ على فضله شعـاع ، ولا نبض في افق الادب له لمحة بارق ، واستطاعت ان تبصر من وراء حجاب نفسه مياه العرفـان وغدران الحكمة ، كالهدهد يبصر مواضع الماء جوف الأرض ودونها اطباق الثرى . ذلك الى ادب بارع وجمال خلاب ، وحسن مرأى وطيب مختبر .

ولولا نفاذ بصرها وصدق فراستها ، لما كتبت الى كارليل الرسالة الآتية ، وهو بعد خامل مغمور لم يسل من لعاب يراعه قطرة ، ولا طلع في افق قرطاسه نجم بلاغة ، ولا سار له مَثَل ،ولا ذاعت له حكمة، وكان لا يزال معلم مدرسة ، واليك الرسالة وهي رسالة الوداع :

« قوّ في نفسك صفات العطف والرقة ، واشعر قلبك حب الناس ورحمتهم،

وأطفيء بارقات الخيال الكاذب ، وامح صور الوهم الباطل ، واعلم ان العبقرية والفضل والنبوغ من حظك ، وانها ستبلغ بك مراتب الفحول يوماً ما وتجعلك عظيماً ، فلعل مكارم الأخلاق تبلغ بك مقام القديسين وتجعلك محبوباً ، وعسى انك ترفع ما بينك وبين سائر الناس من حجاب العظمة ، وتقرب ما هنالك من مسافة الوحشة والخلاف ، وخاطب الناس على قدر عقولهم ، وقابل بالصفح واللين سيئاتهم ، وبالتجاوز والعذر هفواتهم ، فان ذلك احرى ان يجلّوك ، وأجدر ان يحبوك ، ومالك تستر ما وهبك الله من رحمة وتخفي ما منحك من رقة وعطف ؟ »

وفي ١٨١٨ ترك حرفة التعليم ساخطاً عليها وعلى اهلها ، صائحاً : « لا طاقة لي بعدُ بهذه الحرفة المقوتة » وذهب الى ادنبرغ وليس ينوي عملا مخصوصاً ، ولا يدري ماذا يكون من امره ، فدرس ابغض العلوم واثقلها : علم المعادن ، ولكنه كان من انفع الاشياء له إذ اضطره الى تعلم الالمانية التي كانت من اسباب ظهوره ورفعته ، وكان إذ ذاك يعيش من دروس خاصة وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية ، خلاف مؤن من الخبز والزبد كانت تأتيه من دار ابيه ، وقد كان في تركه حرفة التعليم ، وشذوذه عن الطرق المألوفة والأساليب المعروفة ، ما أسخط والديه واسرته ، ولكنه لم يبال بسخط القوم ولا بذم الناس ، وأبى الا مضياً على عزمه وتدفقاً في مجراه ، قائلاً انه مستبد برأيه واثق من نفسه ، وأنه اقوى من الدهر وأعلى يداً من القضاء والحظ ، وانه لا بد له من الانتصار على الأقدار يوماً ما ، متمثلاً :

ليت هندا انجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحـدة   إنما العاجز من لا يستبد

وعاش كارليل ستة وثمانين عاماً قضاها في وضع التآليف الجليلة بين فلسفة وتاريخ وترجمة وعظة وحكمة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « الأبطال » هذا الذي تحمله في يدك وكتاب « الثورة الفرنسية » وكتاب « الماضي والحاضر » وكتاب « سارتور رزارتوس » أو فلسفة الملابس ، و « سيرة كرومويل » و « تاريخ

فريدريك ملك بروسيا » .

وكتاب « الأبطال » هـذا يمتاز بشرحه عبادة البطولة ، وتقديس عظماء الرجال ، شرحاً وافياً دقيقاً لم يدع لقائل مجالا ، وان من قرأ هـذا الكتاب وكان كافراً ملحداً مستهزئاً بعظمة ابن آدم ، منكراً عبقرية الانسان ، ساخراً من عظماء الرجـال وعشاقهم ، فلم يشف من داء الكفر والجحود والاستهزاء والسخر ، فليس في طاقة القلم ولا سلطان البلاغة ولا في قوى الانس والجن مـا يشفي علته او يغيّر ما به ، وأحسن ما جاء في ذلك الكتاب فصل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وكان الرسول قبل ذلك هدفاً لأقلام الكثيرين من الغربيين (ولاسيما أهل القرن الثامن عشر) قرن فولتير أعني قرن الالحـاد والكفر ، يرمونه جهلاً وكنودا بقواذع الهجاء وقواذف الذم ، قال ريتشارد جازييت : « فلما كتب كارليل مقالته عن الاسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل دونه ، لم يبق هجّاء أطلق يده في محمد (عليه السلام) إلا قبضها بجذومـة شلاء ، ولا فحّـاش يرمي ذلك الأديم الأملس وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السباب الا ورُدّت سهامه في نحره ، حتى راح شرف النبي في تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الاديم موفور الجانب ، فحق على عصبة الاسلام جميعاً ان تشكر لذاك البطل الجليل هذه اليد البيضاء والمنة الغراء ، ولعمري لو أنهم نصبوا له على كل مأذنة تمثالا وزينوا باسمه جدران المساجد وخطب المنابر لمـا كانوا في أداء واجبه الا مقصرين ، وعن القيام ببعض حقه عاجزين .

فأما من حيث الكتابة فقد كان كارليل من اكتب الناس ومن اشد البلغاء تمكنا من اللسان واقتداراً على اللغة .

وأنت الذي تدعو الكلام بقدرة فيأتيه وحشي الكلام وآنسه

وانه ليرجَح لدى الموازنة بمعظم من سبقه من الفحول أمثال جونسون وريتشار بارنز ، وكأني به كان يبصر أجزاء من نفسه في صور اولئك الابطال ، وانه أعلى قيمة وأشرف قدراً ، وما اظنه خليقاً ان يقارن الا بالأنبياء .

وقد كان في مرارة الجد ومضاضة الحزن شبيهاً بدانتي ورروسو ، ولكنه

كان بقوة دانتي اشبه منه بضعف روسو ، وكان دانتي قليـــل المزاح ولا مزاح لروسو ، وفي مؤلفات دانتي وروسو صحف جدية كأنها لقلة الفكاهة والهزل قفار ملس ولكن ما يقابلها في تآليف كارليل مزخرف بأفانين المزاح وألوان المجون بينهـــا ينابيع الهزل تفيض وتنفجر ، وسيول الفكاهة تسيل وتنهمر ، وكأني به يقول مع صديقه جونسون : « لقد حـــاولت ان اكون فيلسوفاً فأبى المزاح إلا ان يعترضني في طريقي » ، وليس في جميع كتاب القرن التاسع عشر من يقارب في المزاح والهزل ذلك الرجل الجـــاد الحاد الذي يلبس اقسى ظاهر من العبوس والنفرة والتهكم ، ولم ير الناس منذ عهد « ارستوفانيز » رجلاً غير كارليل خلط المزاح بالشعر ، ولز الخيال والمجون في قرن ، ولكن كارليل بلغ في ذلك النحو أقصاه ، وأدرك في هذا الغرض منتهاه .

البطل في صورة إله

اودين

انما يضمني وإياكم هذا المقام وتواليه ، للكلام شيئـــاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة ، والأشكال التي تشكلوها في تاريخ البشر ، وآراء الناس فيهم ، وماذا احدثوا من الاعمال – للكلام عن الابطـال وعما استقبلهم به أهالي زمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الامور – ولعل هذا مبحث عويص لا أراني موفيه حقه ، مبحث لعمر الله قصي الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ، ويقع وراء جهد الاوهام منتهـــاه ، وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بحذافيره إذ في اعتقادي أن التاريخ العام – تاريخ مــا أحدث الانسان في هذا العالم – إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة ، وهم المكيّفون للأمور ، وهم الاسوة والقدوة ، وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيـا ، وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقنـــاً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله ، وأرسلهم إلى النـــاس ليؤدي كل ما ناطته به القدرة الالهية من الخير . فروح تاريخ العـــالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظني أنه مبحث لن يسعه هذا المقام .

بيد أن من أسباب العزاء أن في ذكرى العظماء كيفما كانت نفعاً وفائدة ، والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتـــدفق ، فليس أحسن من مجاورته شيء ، نور يضيء وكأنه يضيء ظلمات الحياة ، وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجمٌ شبته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ، ومعاني الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذي في شعاعه أنس الأرواح ، وروح النفوس ، ومتعة الخواطر ، وليس في ظني أن أحداً منـكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد . ويقيني أن

نظرة في تواريخ الأبطال الشتى الصنوف ، الذين أنا آخذ الآن في سرد سيرهم ، جديرة أن تكون بمثابة نظرة في مخ تاريخ البشر وصميم لبابه . ومـا أسعدني لو أستطيع في مثل هذا العصر الذي ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معاني عظمة الابطال وجلالهم ، أي من معـاني البطولة ، والبطولة في مذهبي هي العروة المقدسة التي تعقد ما بين الرجل العظـيم وسائر الناس ، ما أسعدني لو أتيح لي ذلك ، ولكني محاول ٌ وباذل ٌ مجهودي .

لقد قيل – وصدقاً قيل – ان أهم ما في الرجل دينه ، والأمة مثل الفرد في ذلك ، ولست اذهب بلفظة الدين الى النحلة التي يتخذها الفرد ، والمذهب الذي ينتسب اليه ، والقواعد الملية التي يعددها ويشهد بهـا ، فقد ترى الرجل الذي ذلك شأنه يسفـل الى أدنى حضيض اللؤم والخسة ، على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين ، فهذا ما لا أسميه الدين ، هـذه الاقرارات والاعترافات أبعد ما تكون في الحقيقة من الدين ، إذ هو اعتراف وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه – اعني من ناحية اللسان والقوى البرهـانية – وذلك أقصى ما عنده ، ولكن جوهر المسائل للرجـل ، والامر الذي عليه تترتب سائر الأمور ، هو ذلك الشيء الذي يعتقده حق الاعتقـاد ، ويوقن به كل اليقين ، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التي تربطه بهذا الكون الجم الأسرار ، وفيما يتعلق بواجبه في هذه الدار ووظيفته – ذلك هو دينه وربما كان الحاده وكفره – هو اعتقاده أنه متصل بعالم الالهيات او بلا عالم مطلقـاً ، فاذا علمت عن الرجل ذلك علمت أي رجل هو ، وأي شيء يجدر به أن يصنعه في هذه الحياة ، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة مـا ديانته أو ديانتهم ؟ هل هي الوثنية وتعدد الآلهة ، أعني تمثيل سر الوجود تمثيلاً حسياً وعبـادة القوى الطبيعية ، أم هي النصرانية والاعتقاد بعالم سري حقيقي وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية ، أعني بذلك استبدال دولة الاسرار المقدسة الـتي هي أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة ، أم هي الشك والريبة هل هناك عالم خفي وسر مجهول ام لا ، بل ربما كان الحاداً محضاً وكفراً مبيناً ،

فعندي ان الاجابة عن هذا السؤال هو اعطاؤنا روح تاريخ الفرد او الأمة ، إذ ان اعمال الامة أو الفرد إنما هي بنات افكارهم ، وما نتجت ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر ، ومن ثم اقول إن دين الامة هو أهم ما لديها ، فجدير بنا في هذه المحاضرات ان نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه ، فانه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شيء . وقد جعلنا أول ابطالنا « اودين » الرجل الذي كان يعبده قدماء السويد والنرويج ، وكان قطب دائرة الوثنية في تلك الأقطار ، فلننظر برهة الى البطل في صورة معبود وهو أقدم اشكال البطولة .

حقاً لقد كانت الوثنية شيئاً من اعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم ، وهل كانت إلا متكاثفات اضاليل وسخافات واباطيل ، قد نبتت في اديم الحياة الغابرة ، فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها ، وخيمت على أكناف الحياة غواشي قبابها ودواجي ظلالها ! مما لا يكاد يصدق به العقل او يتصوره الوهم ، إذ لا يمكن احدنا أن يتوهم أن ناساً عقلاء ، ايقاظا ، صاحين ، يعيشون عيشة كتلك ، ويعتقدون عقائد كهاتيك ، اعني يعبدون رجلاً منهم ، لا بل يعبدون الخشب المسندة والاحجار ، وما اليها من أصناف الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطاً مشوشاً من كل اضلولة وابطولة فيحسبونه فلسفة الكون ، أما والله ما أحسب كل هذا الا حديث خرافة !

بيد أنه لا شك في أنهم كانوا يأتون ذلك ، كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ، ويطمئنون اليها ويعيشون بها ، عجباً أي عجب ! وخليق بنا معشر الاخوان ان نطرق ملياً ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ، ما يوجد في نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل ، فان ما اشرت اليه من مستنكر المدهشات قد كان في الانسان ولا يزال ، بل هو في جميع الناس وفينا ايضاً .

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول في الوثنية إلا كلمة واحدة ، إذ يقولون هي باطل وغش ، وأنه لم يؤمن بها عاقل قط ، وانما هي اكذوبة

لفقت لخداع أناس لا يصح ان يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا ان ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هـذا الحكم الجائر ، واني لأدفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول ان يسير بها الانسان دهراً مـا في هذه الحياة . فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق ، ولولا ذلك لما اتخذت امة من الامم ديناً مـا ، ولا ننكر ان الأخاديع والاكاذيب تكثر في الاديان ، ولاسيما في عهودها المتأخرة ، اذ يعتورها الوهن والاضمحلال ، ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للاديان ، انه ما كان قط للأديان حيـاة وقوة ، بل كان داءها ونذير آجالها ، فاعلموا ذلك اصلحـكم الله ولا تنسوه . فاني لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل ، ان يقال ان ديناً من اديان المتوحشين كان منشأه الكذب ، فان الكذب لا ينشأ عنه شيء قط ، وليس من شأنه ان يُحدث ويلد ، وانما من دأبه ان يُفني ما اصاب ، ويقتل كل شيء ، حتى اننا لو حاولنا ان نحيط علماً بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديراً ان يخفي عنا حقيقته . وهي مـا لا ينكشف لنا حتى ننفي تلك الاكاذيب بتة ، كأنها امراض ومفاسد واجب على كل امرىء استئصال شأفتهـا ، سواء من الأذهان او الاعمال ، إذ ان الانسان حيثما كان عدو الأكاذيب ، بل لأرى الحق حتى في وثنية اهل التيبت (من اقاليم الصين) . اقرأ ما دوّنه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » في حديث سفارته الى تلك البلاد ، تجد أن لهؤلاء المساكين عقيدة ان الله يرسل كل حـين الى الأرض بشراً يمثله ويحمل صورته ، وهو بمثابة اعتقادهم في بطريق او بابا ، او بمثابة اعتقادهم ان هنالك رجلاً هو افضل الرجال قاطبة ، وان هذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم : فاما أن الله مرسل في كل جيل رجـلاً يمثله ، فهذا هو الحق الكائن في عقيدة هؤلاء القوم ، واما كون هذا الرجل ممكناً معرفته من بين سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور . ولقساوسة هذه الأمـة طرق الى اكتشاف الرجل الافضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم ، طرق وايم الله عقيمة ، ولكنها ليست اعقم من طريقتنا نحن اذ لا نفتأ نولي علينا الابن الأكبر من اسرة

بعينها (الاسرة الملوكية) وا أسفـــاه ! ما أصعب ان يعرف الطريق الى !..
ولكن ارجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يُرجى لنـا ان نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا انها كانت في حين من الاحيان ديناً صحيحـاً في اعتقاد اهلها ، فلنوقنن كل اليقين ان الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ، ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك اصحـــاء العقول والحواس ، ايقاظاً ، قد صورهم الله على صورتنا وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بينهم وبيننا بحال من الاحوال ، ولنوقنن كذلك انا لو كنا وُجـدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ، ولكننا وهم سواسية في سائر الاشياء. واذ قد علمتم مني ذلك فعليكم ان تسألوني ماذا كانت تلكم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوي الجـدل – وهو قولٌ اوجَه – ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء ، اعـني ان الشعراء كانوا يرون آراءهم في الكون ، ثم يُخرجون تلك الآراء والاحساسات في رموز من الاقاصيص وضروب من المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد، جرياً على قانون اساسي من قوانين النفس البشرية ، وهو ان كل مـــا جرى في وجدان المرء من احساس شديد لا يرى بداً من إخراجه بواسطة النطق ، ومن رؤيته ممثلاً لعينيه في شكل منظور ، حتى كأنما هو شيء حي ذو حقيقة تاريخية ، ولا شك في ان هنالك قانونـاً كذلك ، وانه من أرسخ قوانين النفس البشرية وارساها واشدها تأصلاً واستمكانا ، ولا شك ايضاً في انه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوي في أمر الوثنية ، واني وان شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التي ترجـع بأمر الوثنية كله او جله الى الرموز الشعرية ، ولكنني لا اعدهـــا النظرية الصحيحة ، واني انشدكم الله معشر الاخوان هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين في ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم ان الأمر لأخطر من ذلك وأجل ، واحوج الى الجد منه الى اللعب . ان امر الحياة من اكبر الجد ، وما امر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل انه الجد أمرّ من كل جد والحق أوعر من كل حق !

فقد رأيت ان اولئك القائلين في الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد اخذوا في منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية ، فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس واذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات، ولكني ارى رأي هذه الفئة رأياً معكوساً بقولهم عن النتيجة انها السبب ، وعن الغاية انها الاصل . فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الاقاصيص الشعرية اول حاجهم واكبر همهم ، وانما اكبر همهم هو ان يعرفوا اي عقيدة يتخذون في هذه الكائنات ، واي سبيل يسلكون في تلك الحياة . وماذا يرجون ، وماذا يخشون ، وماذا يأتون ، وماذا يتركون ! أإذا اخرج الشاعر قصة مونقة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله ، أنحسب انها اقدم عهداً من تلك المعتقدات ، كلا بل كانت العقائد اولاً ثم انشئت القصيدة رمزاً اليها وتمثيلاً لها . فالعقيدة اصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ، ثم هو مهما بلغ في مراتب الجد فانما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة في النفوس التي يحاول به تمثيلها . فقصارى القول ان الرموز الشعرية هي نتيجة الحقيقة لا مسببتها ، فعلينا اذن في شأن الوثنية ان نبحث من اين جاءت هذه الحقيقة ، ام هاتيك الرموز الشعرية والاغلاط والخرافات . كيف جاءت تلك الحقيقة وماذا كانت ؟

تذكرون ما توهمه افلاطون من انه لو ولد انسان في حجرة في جوف الارض ، فترك ثمة حتى بلغ اشده وكمل عقله ، ثم اخرج بغتة الى ظاهر الارض ، فاذا الشمس بارزة في موكب لألائها، ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فينا ساكناً . ولكن ذلك الرجل يراه بعيني طفل قد برأهما الله من شوائب اكدار الحياة ، فرؤيتهما في منتهى الصفاء ، ثم يراه كذلك بعقل ناضج فليس عجيباً ان يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ، ثم ينفذ ببصره الثاقب الى ما اودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً . فاعلموا معشر الاخوان ان اول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين ،

وإن انسان بدأ يفكر انما هو كذلك الانسان الذي تخيله افلاطون جامعاً في طبيعته بين الطفولة والرجولة . كذلك كان اول المفكرين من قبائل المتوحشين، ساذجاً صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ، ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهـــاية وما به من شتى المناظر والاصوات والأشكال والحركات العديـــــة العدد ، في اسم مركب من ثلاثة احرف كما فعلنا نحن حينما سميتـــــاه « كوناً » و « طبيعة » وما شاكل ذلك . فطوينا جلاله العظيم في اثناء لفظ حقير .

ولكن الرجل المتوحش كان كل شيء جديـداً في نظره ، لم يخفه عنه حجب الاسماء والالقاب ، عارياً امامه ، ساطعاً لعينيه ، مشرق الرونق، سافر الحسن، وضاء الجمـــال ، يحار في كنهه الوهم ، ويعجز عن وصفه اللسان . فتأثير جلال الكون في نفس ذلك الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره في نفس الشاعر او الفيلسوف او النبي في العصور الاخرى. بلى ايها الاخوان ، ان للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقعاً في النفس اي موقع ، وروعة في القلب اي روعة ، تلكم الارض الخضراء مبسوطها وحالقها وما يهتز عليها من ملتف النبات ، ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات ، والانهار الجاريات ، والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف في اجوائها كل عصافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنة وطفاء ، آناً تسح بالديمة المدرار ، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار ، ما هذه ايها الاخوان ؟ بلى ما هذه ؟ اما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئاً ، واما الباطن فلا وربكم ما عُرف ولن يُعرف ، هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوي، انما أولى بالمرء في هذا المقام الاذعان والخشوع ، وللجهل هنا افيد من العلم ، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره اكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظـــاره وكيمائه . ماذا صنع العلماء في اسرار الكون إلا انهم زادوها خفاء واكتناها بالباسها براقع من الاسماء والاصطلاحات ! هم يسمون البرق كهرباء ، ويلقون الدروس والمحــاضرات في ذلك ، ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجــــاج والحرير ، ولكن ما هو ذلك

البرق ؟ وما الذي احدثه ؟ ومن اين جاء ؟ وأيان يذهب؟ لا اكذب الله قد اظهر العلم اشياء كثيرة ، ولكن بئس ذلك العلم الذي يريد ان يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذي يتضاءل العلم في حضرته ، ويذل لعزته وعظمته ، ويطفو على جوه الهائل كريشة في مهب الريح . والحق يقـــال يا اخواني ، ان هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات!

بل كفى بالزمن معجزة ، بذلك الشيء الفائت العد والحصر ، الدائم الكر والمر ، والمستمر الصمت والسكون ، دائباً يجري ويتدفق ، عجلاً ساكتاً كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيـــالات تظهر ثم تغيب ، وانفاس لا تكاد تصــــدر حتى تبيد ، أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديراً ان يلجم ألسنتنا فلا ننطق وبماذا ننطق ؟ يا لله من هذا الكون الهـائل ، ماذا كان يستطيع المتوحش القديم ان يفهم منه ، ومـاذا عسانا نحن نفهم منه ، اليس أقصى ما نستطيـــع ان نعلم عنه انه قوة مركبة من الف الف قوة ، وانه شيء ونحن شيء غيره : قوة في قوة ! فحيثما القيت البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية ، وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول الا وفيها قوة ، وإلا فكيف كان يتأتى لها ان تعفن ؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الالحاد والتفكير يجتمعان) في هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لا تكل ولا تني ولا تفتر ، ولا اول لهـا ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية ، ماذا يقول فيها إلا انها معجزة رائعة ، وقد يتساءل عنهـا المؤمنون فيقول احدهم لأخيه هي صنع الخالق ، ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتبـاع في الحوانيت ، ولكن العقل الانساني السليم الفطرة ما زال يرى في هـذا الكون شيئاً حياً ، شيئاً يحار فيه الذهن ، آلهي المرجع ، أولى الاشياء بنا ازاءه — مهما بلغ علمنا — ان نحني الرأس له اجلالاً ، وننكس البصر خشية ومهابة ، ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت !

وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر ، فقد

كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية ، جلية الانسان ، لم تغشها حجب الكفريات ، ولم تتراكم امامها سحب الاصطلاحـــات والعمليات ، فكان الكون في نظره آلهي النسبة ، بل هو الاله ذاته . أما تنظر الى ذاك المتوحش الغابر اذ يعسف البيد والفلوات قد اضل السبيل ، فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلألاء ابهر مما يرى اهـــل هذه العصور ، فيضيء فؤاد ذلك الضال كما يضيء له السبيل ، ويشرق في نواحي نفسه كما يشرق في نواحي الافق ، وكأنه مقلة في وجه السماء تنظر اليه من اعماق الابدية ، وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين. ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عباد الكواكب ؟

هذا هو ما اراه سر الوثنية ، أعني افراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقــديساً وعبادة ، وكذلك كان كل شيء في نظر اولئك الأقدمين رمزاً الى شيء الهي او الى إله !

وهل ينكر احــد ان في فعل الاقدمين هذا عنصراً من الحق ، أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصر في كل نجم بل في كل زهرة آلها ظاهراً ؟ نحن لا نعبد الله على هذا النحو ، ولكن الا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته ، انه يرى في كل مخلوق جمالاً الهياً ، وان كل شيء صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على اعماق الابد ! نحن نسمي من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال في كائنات الله شاعراً ومصوراً ونابغة وعبقرياً ، افهل كان القدماء المتوحشون إلا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء في تعرف بدائع الخليقة ؟ وان لم ينطقوا بالقصيد. أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد، ومن عمل الحصان والجمل وما ادراك ما عملهم ؟ — هو لا شيء !

واذا كان كل ما نراه هو رمزاً من رموز الخالق ، اذن فاكبر رموز الخالق واعظمها هو الانسان . ان جــوهر النفس الانسانية ، وذلك السر الكائن فينا الذي يسمي نفسه «أنا» — واخجلاه ما اجرأنا على صياغة الالفاظ لمعان تضمحل في سعتها الآفاق — هذه النفس هي نفسٌ من الله ، وكذلك الانسان هو مظهر

الخالق في الارض . اليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية هي لباس لذلك السر المجهول الذي نسميه الله ؟

قال الصالح « نوفيلا » : « ليس في طول الكون وعرضه الا معبد واحد ، وهذا هو جسم الانسان ، وحقاً لا شيء أقدس من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين ايدي الرجال الا خشوع للذات الالهية بادية في صورة الانسان ، فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! » وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب ، كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذي لا ينال ، ولا طاقة لنا بفهمه ، ولا ندري كيف نتكلم فيه ، بيد انه قد يمكننا ان نعلم ذلك ان شئنا ، وحسبنا بذلك وكفى .

هذه حقائق كان الاقدمون اسرع الى ادراكها منا نحن . نعم ان الاقدمين ، اولئك الذين كانوا يجمعون الى صفاء انفس الاطفال عمق ارواح الرجال ، الذين لم يحسبوا انهم قتلوا الارض والسماء دراية ، وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الاسماء والاصطلاحات ، ولكنهم كانوا بدلاً من اللغو واللغط في شأن الكائنات ينظرون اليها وجهاً لوجه ، والروع والاجلال حشو قلوبهم ، اولئك كانوا افهم لآيات الله في كونه ، وادرك لسر الله في عبيده . هم كانوا يعرفون ولا بأس في عقولهم ، كيف يعبدون الطبيعة ، واحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الانسان . واعني بالعبادة كما قدمت الافراط في العجب والاجلال الى ما لا نهاية له ، وذلك ما كان في طاقتهم اتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وارجح . وظني ان عبادة الابطال قد كانت اشرف اركان الوثنية واكرم عناصرها ، وان مذهب الوثنية الذي شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور ، فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه احد جذور تلك الغابة ، ولكن اجلال الابطال هو اذهب تلك الجذور في الثرى ، واغزرها مادة واعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب .

واذا كانت عبادة النجم لم تخلُ من حكمة ، فما بالك بعبادة البطل ؟ وعبادة البطل هي كما قلت الافراط في إجلاله إفراطاً لا حد له ، ولا احسب الا ان

الابطال ما برحوا موضع إجلال النـــاس حتى في هذه العصور ، وانه لم يحل في صدر الانسان معنى اشرف من اجلاله لمن هو اعظم قدراً منه ، ولست بمخطىء ان قلت ان هذا المعنى هو الاثر الفعال في حياة الانسان ، او قلت انه الاساس الذي يقوم عليه الدين ، لا اقصد الوثنية وحدها بل كل دين اشرف واصدق ، كل دين كان الى وقتنا هذا . وهل ترون معشر الاخوان في ديننا النصرانية إلا انها عبادة واعجاب من صميم اللب ، وضراعة وخشوع لذات انسانية علية الهية هي ذات اشرف الابطال قاطبة ، ذات من لا اسميه هنا ! بل ادع الصمت المقدس يتدبر ذلك الامر المقدس !

واذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل احط وادنى ، وجدنا في جميعها من احترام الوضيع للشريف ، وولاء الحقير للجليل ، ما يماثل الايمـــان في الدين ، اذ الايمان إنما هو الولاء لنبي او بطل مقدس ، ومـــاذا ترى ولاء الصغير للكبير الذي هو روح المجتمع ، الا فرعاً من عبادة الابطال ؟ فعبادة الابطـال اذن هي اساس المجتمع ، والرتب والدرج الذي يقوم عليه التعـــاشر والتواصل ، هي ما يجوز ان نسميه « هيروراركي » اي « حكومة الابطـال »... فأهل الدرج والرتب في الامة هم لها بمثابة الأوراق المالية ، كلها يمثل الذهب وإن كان الكثير منها لسوء الحظ مزوراً ، فقد نحتمل الاوراق المالية ونعيش بها ، وان وجد بينها المزور ، فاما ان تكون كلها مزورة فذلك ما لا يقـام عليه ولا يحتمل ، اذن تثور الفتن ، وتقوم الثائرات ، ويُصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها ، اذ متى وجد الناس الاوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثير ولا قليل اخذهم اليـأس فأقبلوا يصيحون لاذهب ، ولم يكن قط ذهب ، والحقيقة أن الذهب — واعني عبادة البطل — موجـود برغم كل شيء في كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الانسان .

فشا في هذا العصر رأي باطل هو إنكار وجود الابطال ، بل كراهة وجود الابطال . اذكر لمعشر النقاد بطلاً : الامام « لوثار » ، مثلاً ، فاذا هم قد انبروا ينتقدونه ، لا يأخذون في اجلاله بل في اخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلاً

عادياً ضعيفاً ضئيلاً ! ثم يقولون إن ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من احوال عصره وظروف وقته ، فالوقت هو الذي احـدثه وشهره ، هو ابن الوقت ، وكل مـا جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله . هذا والله افن وسخف ، أيقول النقاد الوقت هو الذي احدث ذاكم الرجل ؟ وا اسفـاه ! لقد طالما صاحت الاوقات تنادي اين البطل ولا بطل ، اين العظيم ولا عظيم ، تصرخ الاوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صيحة في واد ونفخة في رمـاد ، وما ذاك الا ان البطل والفتى لم يكن وقت النـداء موجوداً ، ولم يكن الله قد ارسله رحمة للعالم ، وبعد ان يبح صوت الوقت ولا مجيب ، تنهار اركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف ، لان البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده .

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى ، بين عقل يعرف به حاجة العصر ، وعزم يمضي به في ابلاغ العصر حاجته ، وفي هذين صلاح العصر وفلاحه ، ولكني أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانهـا الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة ، يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف ، اشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهاباً يشعله . وما الرجل العظيم مرسلاً من قوس الله ، يجيش في صدره العزم ، ويغلي في عروقه البأس ، الا ذاكم الشهاب ، وما كلمته الا شفاء الغلة ، والتئام الجرح ، ومجتمع الاهواء ، ومستقر العقائد ، ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كناره . ولكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذي اوجـد ذلك الشهاب . نحن لا ننكر ان الحطب كان في شدة الحاجة الى الشهاب !... يا لله من سخافة اولئك النقاد وحمقهم ، امـا انه ليس أدل على حطة امرىء ولؤمه من عدم ايمانه بالعظماء ، ليس ادل على خسة جيل من الأجيال وضعته ، من عماه عن نور الله المقدس وايمانه بالحطب اليـابس الميت . هذا والله أقصى منتهى الكفر ، إذ أن الرجل العظيم ما برح في كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس ، والشهاب الذي لولاه ما شبت النار في الحطب . وليس تاريخ العالم إلا كما قلت : مجموع سير أبطاله !

أولئك النقاد الاصاغر يبذلون الجهـــد في ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ، ولكنهم لا يفلحون ، إذ ما زال يظهر الرجل العظيم من آن الى آن فيرمي بحقه باطلهم فاذا هو زاهق ، واذا هم قد ظلوا من مذاهبهم في مثل بيت العنكبوت او اوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا ان يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هي إجلال العظماء ، فطرية في طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورهـا من الفساد والوهن . واجلال العظماء باق ما بقي الانسان ، فالكاتب جونسون له من صديقه بوزيل أضرع مقدس ومجل على أنهما كانا في القرن الثامن عشر أشد العصور كفراً وفجوراً ، والأمة الفرنسية الكافرة تؤمن بفولتير وتظهر عبادتها الابطال في أغرب صورة حينما أمطروه بالازهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها . فحقاً اذا كانت النصرانية اعلى انواع تقديس البطل ، فان الفولتيرية من أسفل انواعه ! فما اعجب ان يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح ، وكان شيطاناً مريداً . هذا مع أن ابعد النـــاس من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسيو هذا الجيل ، ومـا ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم ، فليس في نفوسهم موضع للاجلال والاكبار ، ومع هــذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير ، يدخل فولتير باريس عــائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدماً قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون انه نوع من الابطال امضى حياتـــه في محاربة الضلال والظلم ، وكشف أمور المنافقين من ارباب المناصب ، انه بالاختصار ممن جاهـد جهاد الأبطال ، وإن لم يسلك في ذلك الا خطة غريبة ، نعم يحسون أنه اذا كان الاستهزاء هو اكبر الامور ففولتير اذن هو أكبر الناس ، هو الامام الاعظم الذي يقتفون اثره ويتطلبون منزلته ، فهو في الحقيقة آلههم الذي لا يصلح الا لهم ولا يصلحون الا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة ماري انطوانيت الى الحـارس الذي على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من اولي المنزلة والجاه يتنكرون في ازياء خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذي بفرسه : اسعدي ايتها الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير ! وقد شبه احد كتابهم تلك المركبة تخترق باريس برأس مذنب قد ملأ

جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لاخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها اثراً ظاهراً وذخراً ثميناً ، ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف او فاضل او جميل الا كان يعتقد ان فولتير أشرف وافضل واجمل .

اجل ان البطل مـــا زال معبوداً منذ « اودين » الى « جونسون » ، ومن المسيح الى احقر قسيس في كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك مـــا دام الليل والنهار لأنه ما منَّا الا من يعشق الابطال ، يعشقهم ويجلهم وينحني اكباراً لهم ، وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل الا يحس المرء ان في اجلاله لمن هو ارفع منه رفعة لنفسه ؟ وهل جال في صدر المرء احساس هو اشرف من ذلك واقدس ؟ وانه ليسرني ويشفي نفسي انه ليس في طاقـــة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود ، ان تُذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية : عبادة الابطال . هذا وان اجيـــال الكفر التي تعقبها الفتن والثورات ، تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، واني لأرى في غريزة عبـــادة الابطال الصخرة الراسخة التي تتلقى الدول الساقطة في مهاويها فتحتميهـــا من الضياع في اعماق الخراب ، فاذا انتهت الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيىء نفسها للنهوض ، ثم تشرع ترتقي وتصعد حتى تعود الى احسن مما كانت عليه . وهكذا يظهر لي ان عبادة الانسان للبطل ، هي الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور ، هي النقطة الوحيدة الثابتة في التاريخ الثوري الحديث ، والا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاً .

كذلك اجد ان الوثنية روحها الحق ، وإن كان لها ظاهر مشوه ، كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله ، وما زال البطل يُعبد . ومن هـذا وذاك تألفت الوثنية وان اتخذت من الاشكال والاوضاع الحقير والمنكر ، وظني ان وثنية قدماء النرويج امتع لنا من كل ما عداها ، لانها (اولاً) آخر الوثنيات عهداً اذ ما زالت مستمرة حتى القرن الحادي عشر ، فمنذ ثمانمائة عام كان اهل الاسكانديفيا يعبدون « اودين » ، ثم هي هامَّة لنا من حيث انها ديانة آبائنـــا اولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية في عروقنا ، والذين نشبههم في عدة وجوه ،

فعجباً ايها الاخوان ان يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف .

وبعد ، فلنلق نظرة في عقائد اولئك القوم لجملة اسباب ، ولنعلم ان ذلك من الممكن ثم من السهل ، لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان .

***

في تلك الجزيرة العجيبة المسماة « ايسلاندة » التي يخبر علماء طبقات الارض انه استثارها زلزال ثاري من قعر البحر ، وهي بقعة موحشة يباب جرداء ، يشوب أديمها تراب البراكين ، ومن خواصها انها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية في أجواف العواصف السوداء ؛ الا ان لها مع ذلك في فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر ، وهي وسط العباب الخضم تسمو صعداً مكفهرة الجبين ، جهمة الطلعة ، تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب في الهامة الشمطاء ، وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئز مراجلها وتهدر شقاشقها الى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة ، فكأنما الجزيرة آثار معترك لمتكافح جيوش الجليد والنار . في هذه الجزيرة وهي أبعد ما يرجى ان يكون به تاريخ مرقوم ، عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التي نحن بصددها ، وعلى شاطىء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الانعام والانسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم ، وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوماً شعراء ، أعني ذوي صدور جياشة بالمعاني والسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت انه كان يفوتنا شيء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الاسكانديناف ! اذ الحقيقة ان معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من اهالي « ايسلاندة » .

وكان بالجزيرة في اوائل امر المسيحية قسيس نصراني يدعى « سيمند » لعله كان لا يزال ينزع به عرق الى دين آبائه الوثنية ، فأخذ يجمع عدداً من أغانيهم القديمة ، مما قد طال عليه القدم فأمسى حوشياً مهجوراً ، وكان توحيدياً صوفياً عليه مسحة دينية ، وهذه المجموعة هي ما يسميه ادباء الشمال ال « الالدار » او

أل « ادا » الشعرية وهي كلمة مشكوك في اشتقاقها لعل المراد بها « السلف »، وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنورورسترلسون »، وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمند » فكتب فيما كتب تاريخاً حافلاً لعقائد الوثنية وجعله نثراً مفصلاً بشذور من النظم ، فجاء كتاباً بديعاً مونقاً بريئاً من كل اثر للتعمل والكلفة ، وهو ما نسميه « عفو الخاطر »، وهذا الكتاب هو المسمى بال « ادا النثرية » فبفضل هذين المؤلفين وشتى اغاني غيرهما جلها « ايسلندي »، وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والحواشي بين « ايسلندي » وغير ايسلندي مما هو للآن مستمر في البلاد الشمالية ، قد نستطيع ان نعرف بعض اليقين، ونبصر تلك الوثنية وجهاً لوجه ، ولنتناس قبل كل شيء انها دين باطل ، بل نتأملها على انها فكر قديم ، ثم ننظر أما يمكننا ان نعتذر لها ونرتاح اليها شيئاً ما !

إن اول خواص هذه الوثنية في رأيي هو الايمان الصريح بأن القوى الكونية هي أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة ، فتلك الاشياء التي تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها اجلالاً ومهابة ، اعني ان ما نراه نحن فناً من العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جاناً ومردة « جوتان »، مخاليق جساماً ، شعثاً ، غبراً ، شنع الصور ، لهم طبائع الشياطين والأبالسة ، والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة ، اما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهي آلهة ، وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون ، وهما يعيشان منفردين كل فريق في جهة ، ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب ، ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد) في السموات ، ويقطن المردة في بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهيم ».

عجب كل هذا ، انا لا اراه باطلاً ولا خرافياً ، وكل من اصاب بالنظر الثاقب لبابه وسره ، وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره ، كان رأيه فيه رأيي ، فقوة النار التي نخفي نحن ما بها من آية العجب في طي اسم كيماوي نجعله حجاباً لروعة

هولها ، كان القدماء يرونها عفريتاً سريع الحركة خفي المدب من قبيلة المردة « جوتان » ، وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » (هكذا ذكر احد رحالة الاسبان) النار ، وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعاً من الشياطين او ضرباً من الآلهة يعضك اذا مسسته ويعيش بأكل الخشب ، وكذلك ارى انه ما كان في قدرة اي كيمياء قط ان تخفي عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغباوة ما هي النار ؟ امـــا الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطاناً فظيعاً اشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هـيرم » أو « رايم » وهي كلمة بطل استعمالها الا في بعض اودية « أسكوتلاندة » — وهكذا لم يكن الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميتاً ، ولكنها شيطان حي تراه اذا اظلم الليل يسوق افراسه البلق إلى كهفه حيث يقبل عليهن يمشط شعورهن ، وهذه الافراس البلـق هي سحب البرد ورياح الجليـد ، امـا بقره فهي جلاميـد الثلج ، ثم ان هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع !

ولم يكن الرعد في تلك الاوقات بجرد كهرباء ، وانما كان الاله « دونار » (ثاندار [1]) ، اله الرعد وهو ايضاً اله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وانما زمجرة الرعد هي غضبه وسخطه ، وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجبيه ، ومـــا الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبـال ، فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد ، وتراه من غضبه ينفخ في لحيته الصهباء ، فذلك حفيف الريح قبل الارعاد ، و « بولدار » الاله الابيض الجميل العـادل المنعم (الذي وجـــد المبشرون الأول انه اشبه شيء بالمسيح) هو إله الشمس اجمل الاشياء الظاهرة واحدى العجـائب والاسرار رغماً من جميع الفلكيين وعلم الفلـــك ! ولكن اعظم الآلهة في ظني هو ذلك الذي عثر على اثره العـــالم الاشتقاقي الالماني « جريم » وهو الاله « ونش » أو « وش [2] » إله الطلب الذي

---

١) كلمة انكليزية معناها الرعد .

٢ كلمة انكليزية معناها « طلب » .

يعطينا كل ما نطلب ! اليس ذلك اخلص دعاء النفس الانسانية واعمق اصوات الروح ، وان لم تكن بعد دعاء مهذباً وصوتاً منقحاً ؟ هذا ابسط آراء الانسان وهو مع ذلك عنصر جوهري في احدث مذاهب الدين .

واذكر من باقي الآلهة « آجير » إله الزوبعـــة ، وذلك لان النوتية بنهر « ترنت [1] » ما برحوا للآن متى ابصروا المــاء قد طما في حالة المد ، وهي حالة خطرة ، صاحوا : « حذراً فان آجير قادم » ... عجباً لهذا اللفظ قد بقي بعد زوال تلك القرون ، كأن دنيا طغى عليها المـــاء فغرقت في عبابه الا ذؤابة قمة مــــا برحت لابصارنا بادية ! وقد كان اسلاف هؤلاء النوتية في العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير ، وما ذلك الا لأن تلك القبــائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديماً وضربت في انسابنا ، فدمنا مزيج من السكسوني والدانيماركي والشمالي ، ولا ارى بين احد هذه الثلاثة والآخرين الا فرقاً سطحياً مثل ما ارى بين النصراني والمسلم والوثني .

وعن الهم الاكبر اودين سنتكلم قريباً ان شاءالله ،ولكن اعرفوا قبل ذلك ما كان جوهر الوثنية الاسكاندينيفيـــة او الشمالية : هو الايمان بقوى الكون واعتبارها الهية رائعة شخصية ، اعني آلهة وابالسة ، ولعله قول معقول ومفهوم ، وكذلك كان الفكر الانساني في طفولته يتفتح لرؤية الكون الهــــائل تفتحاً مشفوعاً بالعجب والهيبة ، وقد ارى في هذا النظـــام الوثني معنى حراً جزلاً شريفاً ، وسذاجة قوية لم تهذب جد تهذيب ، مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها ، والحق يقال ان مذهب الوثنية الشمالية ما هو الا فكر صريح قوي ، الفكر العميق الحر يتفتح في قلوب صحيحة حارة لرؤيــــة الكائنات ، رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو اول خصائص الفكر الصحيح في كل آن ، فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية مــــا كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب ، إنما تتبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفاً واخلاصاً جماً كبيراً ، وانه لمن الغريب

---

[1] نهر بانكلترا .

ان نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صوره منضودة دمـــاه في في ابدع نظام واجمل نسق ، إلى بيوت الوثنية الشمالية تمرح في افنيتهـــا آلهتها وتحمر النبيذ لتشربه مع « آجير » اله الزوبعة ، ثم يرسلون « ثور » اله الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين ، ويذهب « ثور » الى تلك الديار وبعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعاً وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطىء قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثني ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء وقوة هائلة الا انها لم تهذب ، فهي كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة لكنها قدم عاثرة وخطوة طـــائشة ، فانظروا اصلحكم الله ماذا كان رأيهم في خلق الدنيا !

لما تحارب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكوّن منهـــا مارد اسمه « يمير » ، ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد واخذوا جثته وجعلوها دنيا ، فاما دمه فذلك هو البحر ، واما لحمه فهو الارض والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكناً لهم اعني الجنة او « اسجارد » ، وجعلوا جمجمته قبة السماء وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها في المشرق والآخر في المغرب واصلها في الارض وفرعها في السماء ، آراء جسام ماردية هـــائلة ما زالت بها العصور تنهنه جبروتها وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية الى الصفة الالهية ، والثانية اقوى ولا ريب من الاولى ، ما زالت بها العصور حتى حولتها الى افكار شكسبيرية ومعان لوثرية[1] فأولئك الوثنيون القدماء هم آباء ادياننا مثلما هم آباء اجسامنا .

ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرهـــا في مملكة الموت ، ثم يسمو ساقها صعداً الى السماء فينتشر ذوائب فروعه على جميع انحاء الكون وهذه هي شجرة الوجود ، ويجلس عند اصلها في مملكة الموت ثلاثة اقضية[2] : الماضي

---

١) نسبة الى لوثر رأس المذهب البروتستانتي .

٢) جمع قضاء .

والحاضر والمستقبل ، يروون جذورهـــا من البئر المقدسة ، ثم تمتد أفرعها وما يجري بها من إيراق وازهار واثمار وسقوط اوراق وازهار وثمار ، ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال ، تمتد افرعها بكل هذه الامور في جميع الامكنة والازمان . أليست كل ورقة من اوراق هذه الشجرة ترجمة انسان ، وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة او فعلة ؟ وأفرعهـــا تواريخ الامم ، ووسواسهـــا صوت الحياة صادراً عن الابد الى الابد ، فاذا تنفس في خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الانساني ، وان صاحت بين افنانهـــا العاصفة فذاك صوت الآلهة . هذه شجرة الوجود ، هي الماضي والحـاضر والمستقبل ، ما كان وما يكون وما سيكون ، تصريف فعل « يكون » تصريفاً لا نهاية له .

فاذا تأملتم معشر الاخوان كيف ان جميع الافعال البشرية تتسلسل وتتصل ، وليس واحد منها إلا آخذاً بعنق الآخر متداخـلاً فيه ، وكيف ان الكلمة التي ألقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم ، منذ جرت أول لفظة على لسان اول متكلم ، اذا تأملتم كل ذلك رأيتم انه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم ما اجمله وما اجله اذا قستموه باستعارة أهـل هذا العصر التي تشبـــه الوجود بمكينـــة « مكينة الوجـود » ، بل ارى تشبيه الاقدمين أشرف من ان يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل ! حقـــاً ان مذهب اولئك الوثنيين الشماليين لعجيب ، مخالف لما نعتقده نحن في الطبيعة ، فمن اين اتى ؟ من افكار أولئك الشماليين ، ولاسيما من فكر اول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر ، اول شمالي نابغة عبقري كما ينبغي ان نسميه ! وكم قبل هـذا الرجل قد عاش في العالم من رجال غير ذوي فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الأبكم الذي يحسه الحيوان ، او العجب المشفـوع بالسؤال والبحث المتعب الكلاد بغير طائل كالذي يشعر به الانسان ، حتى اتى الرجل المفكر الكبير ، الرجل العبقري الذي يوقظ فكره راقد الافكار في جميـع الاذهان : وكذلك شأن المفكر او البطل الروحاني ، فان ما يقوله قد كان كامناً في نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على ان ينطقوا به ولكن لا سبيل ، فما هو الا ان ينطق ذلك

البطل حتى تثور جميع الافكار من مكامنها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة اسرع اجابة ، فرحة به فرح الساري بالصباح ، ولا غرو، فانما هو خروج من العدم الى الوجود ، من الموت الى الحيـــاة ، فيا سقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فانه جدير ان يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شاكل ذلك، وان حسبه اهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدي اياد وآلاء ونبياً والهاً ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه ابداً ، بل يعود معدن افكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه في رجل بعد رجل وجيل بعـد جيل ، حتى يبلغ كماله ، فاذا بلغه لم يكن ثمـة مجال للنماء وانمـــا يقلع ذلك الغرس ويخلي مكانه لغيره .

ونحسب ان مثل هذا الرجل كان موجوداً في امة الشمال وهو الذي كانوا يدعونه الاله اودين ، وكان لهم استاذاً واماماً في احوالهم الروحانيه والجثمانية ، وبطلاً كبيراً لا تُقدر قيمته، أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة، ولا جرم فانه اهل لذلك ، انمـــا كان قد اوتي فضيلة النطق بالفكر الجليل ، وفضائل اخرى كانت إذ ذاك من المعجزات ، فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبـــات قلوبهم ؟ اما فسر لهم لغز هذا الكون ، وعرّفهم ماذا يجب عليهم في هذه الدار وماذا ينتظرون في الدار الآخرة ، وانطق الوجـود واحيا الحيـاة ، فهو منشأ الوثنية الشمالية ، واكبر ظني ان اودين هــذا اول مفكر من امة الشمال كيفما كان اسمه ، كان ولا شك رجلاً يعيش بين الرجال ، وهو ما كاد ينشر رأيه في الكون حتى ثار في جميع الاذهان مثل رأيه تماماً ، فكأنما كان مكتوباً على صحائف الاذهان بالحبر المغطى ، فما هو الا ان فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان ، وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى امام سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئاً آخر احسب ان فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل « ادا » ، وذلك انها ليست نظامـــاً فكرياً واحداً متماسكاً ، ولكنها مجموعة نظامات شتى الاصول والازمان، ولن يعرف الناس قط تواريخ

هذه النظامات وكيف تنقلب من صورة الى صورة بما ادخله عليها مفكر بعد مفكر ، الى ان لبست الهيئة التي نراها لها في كتاب ال « ادا » ، كلا ولن يُعرف ما صنعه « اودين » نفسه ، وماذا عسى ان يُعرف من الانبــاء عن « اودين » ، بل انى يعرف عنه انباء وكيف يكون له تاريخ ، وعجيب ان يكون اودين هذا بكسائه الوحشي ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية ، بشراً مثلنا تناله أحزاننا وافراحنا ، ويمشي على مثل ارجلنا واقدامنا ، عجيب ان يكون مثلنا حذوك النعل بالنعل ثم يكون قد اتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع الا اسمه « اودين » ، اذ ان لفظة « ودنزداي [1] » اصلها « اودين زداي » ، ولعل في هذه اللحظة اناساً ينطقون هذا اللفظ ، فليس يوجد لأودين تاريخ وليس فيما رجم فيه المرجمون ما يستحق ان يذكر !

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعماً لم يخجل منه على وضوح سخافته ، بل شفعه بأمتن لهجات الثقة او القحة ، وذاك ان اودين كان اميراً وفارساً بطلاً في بقعة بقرب البحر الأسود ، له اثنا عشر تابعاً كلهم سيد عشيرته ، ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد ان فتحوا تلك الاقطار ، وأن هذا الامير اودين اخترع الحروف الابجدية والشعر وغيرهما ، ثم آل به الأمر الى ان اتخذه اهل اسكاندينفيا إلهاً معبوداً ، واعتبروا اتباعه الاثني عشر ابناء له وآلهة كذلك . هذا ما لا يشك فيه المؤرخ « سونورو » ، ولكن المؤرخ « جراماتيكاس» وهو آخر من اهل الشمال اشد ثقة برأيه من «سونورو»، لا يصعب عليه ابداً ان يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء اصلاً وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدنيمرك او غيرها ، ويجيء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون وهو يا للاسف عالم ومحترس فيضع تاريخاً لزمن اودين ، اذ يقول : ان اودين قدم اوربا عام سبعين قبل الميلاد .

---

[1]) انكليزية معناها يوم الاربعاء .

وبما ان هذه الاقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن، فلا حاجة بي هنا الى تفنيدها، بل حسبي ان اقول ان تاريخ اودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وازمان مديدة ، ولا ارى اودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الا شيئاً قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الاعوام .

ويجيء بعد ذلك المؤرخ « غريم » الالماني فينكر وجود « اودين » بالمرة ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول ان لفظة « فوتام » التي هي اصل كلمة «اودين» المجعولة عَلَماً على الاله الاكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية في كل مكان — هذه اللفظة التي تتصل حسبما زعم « غريم » باللفظـــة اللاتينية « فادير » واللفظة الانكليزية « ويد » الخ — معناهـــا القديم « الحركة » و « القوة » فهي الاسم اللائق للاله الاكبر لا لمخلوق .

قال غريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الامم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منهـــا كلها في معنى مقدس واكبر وما شاكل . حسن وايم الله ما قال المسيو « غريم » ، ثم لا يسعنا الا الاذعان للسيد المذكور في جميع المسائل الاشتقاقية ، فلنقر ولنقتنع بأن كلمة « فوتان » او « اودين » يُراد بها « الحركة » و « القوة » فما الذي يمنع ان تكون اسما لرجل بطل محرك كما انها اسم لاله ؟ فاما من حيث ان النعوت المشتقة منهـــا كلها في معنى مقدس واكبر ، أليس قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبي » حينما غلا بهم تقديسه ، لفظة « لوبي » نعتاً لكل شيء افرط جماله ، حتى قالوا بستان لوبي وورد لوبي وغادة لوبي . فلو ان ذلك استمر لاصبحت كلمة لوبي وهي نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكي الجمال او الهي الجمال . ولقد قال آدم سميث في مقالته على اللغة انه ما من نعت الا وكان في الاصل اسماً لشيء من الاشياء ثم قُرن على سبيل المجاز والاتساع الى كل شيء شارك الشيء الاصلي في صفته ، فكلمة اخضر مثلاً كانت في الاصل اسما لشيء شديد الخضرة ثم إن الناس كلما ابصروا شيئاً فيه خضرة — عشباً مثلا — قالوا عشب اخضر ، وما نزال نقول ساعة ذهباً وخاتمـــاً حديداً ، فكل النعوت في زعم

« سميث » كان اصلها اسماء واشياء ، ولا يسعنا ان نعدم رجلاً ونقضي عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك في انه قد كان لاولئك القبائل القديمة رجل كان اول استاذ وقائد ، وحقاً لقد وجد في وقت ما رجل هو « اودين » او مثل « اودين » يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل بطلاً مصوراً من لحم ودم !

فاما كيفية صيرورة الرجل « أودين » الهاً – الاله الاكبر – فهذا ما لا احسب ان احداً يحب ان يتفلسف فيه ، وقد قلت ان اهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حداً ، بل لم يكن لديهم اذ ذاك ميزان يزنون به الاجلال ، فان اردت ان تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلالك لبطل من اكبر الابطال وحبك اياه حباً من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ، ويفوت كل حد ، وحتى يمتلىء به وعاء صدرك ويطفح. او ربما كان ذاك الرجل «اودين» إذ منحه الله العقل الكبير ، وبعث في ذهنه نوراً من لدنه ، وفجر في نفسه ينبوعاً من عنده ، اصبح يرى نفسه سراً من الاسرار ، ولغزاً لا يحل ، وشيئاً يوجب الرعب والدهش في نفسه هو ، فحسب انه ربما كان الهي المنشأ اي شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة « فوتان » او « اودين » (بمعنى القوة العظمى) . انا لا احسب ان ذلك قد كان منه غشاً وتدليساً ، إنما هي هفوة ، وهو اصدق ما لديه ، والحقيقة ان كل ذي نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو ، فيخال نفسه طوراً في اعلى قمة وآناً في اسفل حضيض ، ويظل ولا شيء اشكل عليه من امر نفسه ، ثم ترى ان رأي الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما في الآخر بما يحدث نتيجة ، فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه ، وأحس هو في فؤاده حرارة وجدان شريف ، ووقدة شعور طاهر كبير ، وخليطاً مشوشاً من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فاذا حواليه كون هائل يقطر من جميع انحائه ماء الجمال ، هذا وقد علم انه لم يسبقه الى هذا المقام العلي إنسان ، خبروني نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه : «أأنا قوة كبيرة ؟» فاذا الناس أجمعون يجيبونه : « بلى قوة كبيرة ! » «فوتان » او « اودين » !

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم في مثل هذه الامور ، وكيف ان الرجل الذي كان اثناء حياته عظيماً تبلغ عظمته بعد المات عشرة امثالها ، وظلمة القدم من شأنها ان تجسم ما يصير فيها ، وكذلك إذا كان للشيء الهالك محبة في الفؤاد واجلال استفحل في الذاكرة وتجسم في الخيال، فما بالكم اذا كان العصر عصر ظلمـات وجهل مطبق ، فلا تاريخ ولا كتاب ، ولا رقعة ولا نقش في حجر ، اللهم الا صخرة صماء على سبيل الاثر هنا وهناك؟ بلى والله انه لولا الكتب لاصبح كل رجل جليل بعد ان يمر على وفـــاته وفناء جيله اربعون عاماً ، ضرباً من اولئك الابطال الذين تسمعون عنهم في خرافات القدماء ، فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة او ثـلاثة آلاف عام ؟ انه لا فائدة في التفلسف في مثل هذه الموضوعات ، فانها تأبى بطبيعتهـــا البحث والاستقصاء ، ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنـا ان نلمح في اقصى اعماق ذلك الدهر البـــائد وميض نور حقيقي يبرق في جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة ، حسبنـــا انه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وانما حق ومعقول .

ويزعم ان « اودين » اخترع حروف الهجـاء وكان يأتي بها ضروباً من السحر ، فهبوا ذلك صحيحاً ، أفليس اختراع الحروف هو اكبر اختراع منذ اقدم الدهور الى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شيء اكبر من إبراز كوامن الافكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة وإعجازاً عن الاول ؟ ثم الا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « اتاهوليــا » عندما رأى الحروف الهجائية ، وكيف صعب عليه ان يصدق بتلك المعجزة ، فأمر احد حراسه من الجند الاسبانيين ان ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندي الذي الى جانبه حتى يتحقق صدق هـذه المعجزة ... فاذا كان اودين قد اوجد الحروف في امته فما باله لا يأتي بفنون من السحر ؟

ويحكي لنا المؤرخ «سنورو» ايضاًان «اودين »اخترع الشعر الذي هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا – اصلحكم الله – انفسكم في هذه العصور عصور طفولة الامم ،

في تبلج صباح الشعوب الاوروبية ، اذ يشرق في جميع الانحاء لألاء جديد ندي ، واذا اوروبا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة ، وكل نفس بها رجاء – رجاء ودهشة يتوهجان في جميع النفوس شعاعاً جماً ونوراً عميماً ! أولئك كانوا ابناء الطبيعة الاقوياء ، وكان لهم في « أودين » فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم ، شاعر ونبي ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع ، وكذلك شيمة الرجل الجليل في كل آن ان يكون بطلاً من جميع جوانبه ، بطـلاً قبل كل شيء في روحه وفكره ، وهكذا كان لذلك البطل المتوحش « اودين » قلب كبير قد فتح ابوابه فتلقى هذا الكون الكبير وتلقى الحيـاة الانسانية كما كانت حينذاك ، ثم قال كلمته في هـذه وذاك ، فهو كما قلت بطل في صورة وحشية اولية ، ولكنه بطل عبقري كريم النفس شريف الخلق ، فاذا كنا نحن ابناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان اعجاب اولئك المتوحشين به ؟ حقاً لقد كان عندهم بطلاً بل نبيـاً بل إلهاً ، او بعبارتهم هم « فوتان » اي « اودين » ومعناهـا القوة الكبرى والفكر ، رعاكم الله ، فكر في اي صورة بدا وعلى اي شكل ظهر ، حتى لأحسب ان « اودين » هذا هو من قبيل اكبر ابطال العالم ، وحسبكم برهاناً فكره الكبير في قلبه الوحشي العميق ! أفلا ترون في كلماته الخشنة جذور الفـاظ انكليزية لا نزال نستعملها ؟ وما وجوده في تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع .

فجدير بنا ان نرى فيه انموذج الرجل الشمالي ، واشرف بني جلدته ، ثم ما كاد يظهر في قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن اخلص الولاء واصدق العبادة ، فهو الجذر الذي انبت اشياء جمة ، ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها في جميع ارجاء الحياة التيوتونية ، حتى ان كثيراً من اسماء بلادنا واسم يوم الاربعاء كما ذكرت مشتق من لفظـة « اودين » ، افلا ترون بعد ذلك ان آثار الرجل قد جاوزت الى بلادنا ، وان افرعاً من فروعه قد امتدت الينـا ومن ذلك الجذر ذياك الورق !

فاذا كان الرجل اودين قد باد وهلك ذكره ، فهـذا ظله الواسع المديد ما زال ينشر اعلامه على تاريخ التيوتونية جميعه ، لانه متى سلمنا ان اودين كان وقتاً ما الهاً امكننا ان نفهم ان نظام افكار الاقدمين او عدم نظامهم ، او بالاختصار كل مـا كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل ، قد اخذ بعد مجيئه وتعاليمه في طريق آخر ، ولبس هيئة جديدة ، اذ جعل جميع الامم التيوتونية ينقشون على الواح ضمائرهم كل مـا قاله ذلك الرجل وعلّم بحروفه وشعره ، واصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم ، وكذلك شأن الرجل الكبير في كل حين ، او ما ترون في العقائد الاسكاندنافية التي يصعد ظلها الهائل من اعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الافق الشمالي ، صورة الرجل « اودين » ? نعم الفكر فكر كيفما كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً ، وما تاريخ العالم الا مجموع سير ابطاله !

بيد اني ارى في صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرققاً للافئدة ، وهو افراط اولئك القوم المتوحشين في حب بطلهم ، وان شاب ذلك الحب سذاجة وعجز . نعم ، انه وان شابه منتهى العجز ، فلقد كان في منتهى الوفاء والشرف ، وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان . وأما لو امكنني ان افهمكم ما لم ازل اعتقده منذ زمن مديد، من ان هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوي وروح تاريخ الانسان في هذه الدنيـا ، لكان لكم في ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحـاضرات . نحن لا نعبد أعاظم رجالنا الآن ، كلا ، ولا نفرّط في اجـلالهم ؛ بل نقتصد يا للاسف ، في اجلالنا لهم ألأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وانكر وادهى وامر !

وكذلك نرى في مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلاً وقيمة ثمينة ، وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان في يومه حقاً ، أليست كأنهـا صوت آبائنا الأول يصيح من اعماق القرون الغابرة ، يهيب بنا نحن ابنـاءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا في الدنيا ، هذا كل ما استطعنا ان

نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذي رفعكم فوقنا درجات ، فاصبحتم بحمده اكثر منا اشرافاً على كونه واصح رؤية ، ولكن لا تحسبوا انكم بلغتم القمة ، فان رأيكم وان فضل رأينا لكنه ما زال جزئياً ناقصاً ، والامر اعظم من ان تناله مدارك انسان لا اثناء الزمان ولا خارج الزمان . وكأني بالانسان بعد ان تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقي والنهوض ، لا يزال يجد ان اقصر جهده هو الالمام بطرف من اطراف هذا الكون ،فان الامر كما قلت أكبر من الانسان، وليس في وسعه ان يفهمه، وكيف وهو شيء عديم النهاية » .

الايمان بأن الكون شيء الهي مقدس ، ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ،هو عنصر خرافات الاسكاندناف وسائر الخرافات، ولعل الوثنية الاسكاندنافية اصدق في هذا الامر من جميع ما عداها ، اذ الاخلاص اكبر خواصها ، وهذا الاخلاص هو عزاؤنا عن خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب ، فقد احس ان هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة ، وروح يقظى ، وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معنيي الطفولة والرجولة ، الى سذاجة في شرف احساس ، وعمق في نشاط وصفاء ، واجلال في شغف ، واخلاص في شجاعة ، فلله اولئك القوم ما كان اشجعهم واصدقهم !

وكذلك نرى ان هذا الايمان بالطبيعة قد كان اكبر عناصر الوثنية ، فاما الايمان بعظمة الانسان كواجباته الالهية والادبية ، وان لم يكن مفقوداً من الوثنية ، فهو العنصر الأهم في الاديان والأطهر والأصفى . وكذلك ترى ان الانسان يذهب في اول امره الى الطبيعة وقواها ، فيرتاع لها ويعبدها ، ثم لا يعرف انه لا قوة في الحقيقة الا القوة الادبية ، وان اهم الامور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والمحرم ، الا بعد تصرم الدهور الطويلة .

اما من حيث الخرافات المذكورة في كتابهم المسمى ال « ادا » ، فهي كما

ذكرت آنفاً أحدث عهداً من مدة « اودين » ، ولعلها لم تكن في نظر اولئك الأقوام الا ضرباً من اللهو والفكاهة ، ولم تكن انجيلا لهم ولا توراة ، اذ ان العقيدة كما قدمت لا بد ان توجد اولاً ثم تزدحم حولها الاقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح ، ولا احسب العقيدة الشمالية الا انها كانت قبل نظم الاشعار حية فعالة في نفوس اهلها ، وكذلك سائر العقائد تكون انشط وانمى كلما كانت اسكت واصمت .

ومما يرى في كتابهم ال « ادا » ، ذلك الكتيب المبهم المظلم ، يؤخذ ان رؤوس العقائد لم تكن الا ما يأتي الايمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يُقضى عليهم بالقتل في ساحة الوغى ، وحومة الحرب ، ثم الايمان بالقضاء المحتوم وهو ان من قضي عليه ان يموت قتلاً فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ، ثم الاعتقاد بان اول واجبات المرء هو ان يكون شجاعاً . ليست هذه الثلاثة هي اعظم اصول الشرائع العظمى : شريعة لوثر وشريعة محمد ، بل ازيدكم وشريعة نابليون ايضاً ، بل هي سنة الانسان اينما كان وكيفما كان ، وهي السلك الذي يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيط الذي منه ينسج ثوب عقيدته . وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا في معترك القتال الى قاعة « اودين » ، اما الادقة الاخساء والجبناء الأذلاء فيُنبذون في ديار « هيلا » الهة الموت .

هذا هو فيما اراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان اولئك الاقوام يعتقدون ان الشجاعة رأس كل شيء ، وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازم ، وانهم يستوجبون سخط « أودين » ويستنزلون عقابه اذا هم لم يشجعوا في جميع المواطن . فانظروا بربكم أما ترون في ذلك معنى عالياً كبيراً؟ حقاً انه لواجب أبدي وفرض سرمدي حتى اللحظة كما كان حقاً في تلك العصور ، ان يكون الانسان شجاعاً ، وما زال اول واجبات المرء ان يقهر الخوف ، وحقاً انه ينبغي لنا ان نقطع دابر الخوف ، فانه لا سبيل الى العمل حتى نصنع ذلك ، فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه ،

كان خليقاً ان تخبث نفسه ويفسد طبعه ، وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية ، وافكاره زوراً وباطلاً لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان .

ولذلك ارى انه لو استخلص لباب المذهب الاوديني من قشوره لالفي حقاً الى هذه الساعة ، كيف لا وانما اول واجبات الانسان ان يكون كما قدمنا شجاعاً ، وان يمضي قدُماً في سننه ، ويكون رجلاً في كل ما يحاول ويزاول ، ثم هو في جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره . وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن ، هو ميزان فضله ومقياس رجولته في كل آن .

ولا شك في ان شجاعة اولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جداً ، وقد روى المؤرخ « سنورو » انهم كانوا يرون الموت في غير مواطن الحرب عاراً وسبة :

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل
وما مات منا سيدٌ حتف انفه ... ولا طلّ منا حيث كان قتيل

فاذا احس احدهم دنو الاجل واقتراب الموت الطبيعي ، احدث الجراح في بدنه تزلفاً بذلك إلى « اودين » ، ليفسح له في جناته مقاماً ، وكان الملوك اذا اشرفت عليهم مناياهم امروا بانفسهم ان يُجعلوا في سفن ثم تُرسل السفينة في اليم منشورة القلاع تدبّ في خشبها نار بطيئة المسرى ، فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح تأججت في بدنها النار وطار في اركانها شواظها. وكذلك يلقى البطل العظيم بين احشاء الماء وجوانح الهواء قبراً . شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ، ولكنها شجاعة وخير من لا شيء .

ثم اي نجدة روعاء وهمة قعساء ، واي عزيمة ومضاء قد كانت لملوك البحر من اولئك الشماليين ! لكأني والله اراهم مشمرين على ظهور سفنهم ، صامتين ، مقفلي الشفاه ، غير شاعرين بأنهم قد اوتوا منتهى البسالة والنجدة ، يكافحون البحر الثائر وعفاريت امواجه وشياطين حيتانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما . اولئك آباء بحارتنا : رالي وبلاك ونلسون ! لقد ذهب اولئك

الأبطال وما ترنم بعظائم اعمالهم شاعر كهوميروس الا اني ارى مآثر اغاممنون[1] تتضاءل في جانب مسعاة رجل من اولئك الابطال الشماليين ، رجل مثل « رولف » او « رولو » أمير نورماندي ، ذلك الملك البحري الفاتك ، فاني ارى له الآن يداً في حكومة انكلترا وان كان قد مرت على عهده القرون والدهور .

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله اولئك الاقوام من الجولان في البحار ، ومن الحروب والوقائع ، اثناء عدة اجيال ، لأن ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة ليُعلم اي امة اقوى فتسود . ثم رأيت ان من اولئك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر ، اعني الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات ، وفي ذلك معنى وايم الله كبير . ولقد اخطأ المؤرخ « سكالدز » حيث زعم ان هؤلاء الملوك كان امرهم قاصراً على الحرب ، بدليل ان الحرب وحدها لا ترزق امة ولا تمير شعباً ، وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة ! واني لاحسب ان المحارب الصادق يكون كذلك الغابي[2] الصادق ، اعني انه يكون ايضاً المصلح الصادق ، والمفكر الصادق ، والعامل الصادق ، لا يدع امراً إلا ويتناوله برفق وصدق ، وما ذلك الا لان الشجاعة الصادقة هي الاساس لكل هذه الامور ، والشجاعة الصادقة شيء والقسوة والفظاعة شيء آخر . فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد ابداه اولئك القوم ضد الغابات ، وضد الظلم الوحشي من قوى الكون ، ليذللوا لنا الطبيعة ! او لم نسر نحن ابناءهم في ذلك الطريق الذي نهجوه لنا ، اذن فلا أبعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة !

ويظهر لي ان تعليم او دين قومه فضيلة الشجاعة ، واجابة القوم إياه لاصابة قوله هوى في نفوسهم ، وظنهم ان كلامه وحي جاء به من السماء ، وانه لذلك إله .. يظهر لي ان هذا هو اول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من

---

١) احد ابطال اليونان في شعر هوميروس .

٢) اعني قاطع الغاب .

الخرفات على اختلاف ضروبها والوانها ، والرموز الشعرية والقصائد والقصص والاناشيد والاغاني الخ أأقول نبتت ! عجباً عجابا ! انما يقال نبت للشيء الحي ، وقد قلت ان هذا المذهب الوثني لم يك الا ظلمة حالكة يبرق في جوفها ذهن او دين كالنجم في الديجور . نعم ، ولكنها ظلمة حية ! تدبروا رعاكم الله ذلك، هذه الظلمة هي الذهن المتوحش الجاهل ، ذهن تلك الامة البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على ان يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر الى ما شاء الله في فطنته ونطقه !

نعم ان الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ، ثم لا تزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى اصيبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية لعدده ، وذلك ان البذرة تخرج شجرة ، فاي فروع هذه الشجرة اصاب الارض صار في الحال جذراً لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جذوراً ، وهكذا الى ما شاء الله والفكر حي لا يموت ، واول من فكر من الرجال على ظهر هذه الارض فهو بادىء الجميع ، ثم الثاني والثالث ، بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل « اودين » ، او ان شئت فقل انما هو « اودين » على النكرة ، ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه في الله والكون والانسان ولينشر ظل صورته على اجزاء من تاريخ العالم !

فاما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا ما لا موضع له هنا ، كلا ولا كبير أهمية ، وقد توجد اشعار نبوئية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو اضافها الى قواعد الدين اناس متأخرون . وما احسب انه قد بقي من اشعارهم الا الاغاني ، وامثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالاشعار ، شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الاصل في التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب قاطبة ، فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جراي » ان يصف لنا عيشة اولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر بوب اذ ترجم « الالياذة » ، فلم يؤاته الشعر على ابراز روح

هوميروس . وحسب جراي ان حياة اولئك القوم كانت «وحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروع والرعب فصورها كذلك ، ولم يدر ان اهم عناصرها هي وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها ، الى انس لا وحشة ، وانشراح لا انقباض ، وشيء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة . وكان القوم غاية في السذاجة ، لم يميلوا في تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى ما مال اليهم إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأني بأولئك الشماليين لا يجدون في وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدي الفرائص امام مدهشات المرسح . ثم يعجبني جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون ان « ثور » إله الرعد يقطب جبينه في حنق صادق ، ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل اصابعه ، ثم أجد كذلك الرحمة بادية في اجمل مظاهرها في خرافاتهم تلك ، فمن ذلك ان «بولدار» الاله الابيض — إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا في الطبيعة شيئاً الا نقبوا فيه عن دواء ، ولكنه مات وقضي الامر ، فتبعث امه « فريجا » رسولاً اسمه « هرمودر » ليبحث عنه ، ويطوي الرسول تسع ليال وتسعة ايام يخب في اودية منخفضة مظلمة ، ومنعرجات معتمة دشكلة ، حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبي ويقول له الحارس : نعم ، لقد عبر « بولدار » ههنا آنفاً ، ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً الى جهة الشمال ، فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة الموت ويرى بولدار ويحادثه ، فاذا هو رهين بذلك الملك قد قضي عليه ان لا يغادره قضاء محتوماً لا مفر منه . وقد ابت ملكة الموت ان تطلقه ، كلا ولو ارادت ذلك الآلهة طرا ، ثم ان امرأته تطلب من اجله ان تموت لتؤنسه في ديار الموت ، فيجاب طلبها ويبقى الزوجان معاً آخر الابد . ثم يرسل « بولدار » خاتمه الى « اودين » وترسل زوجته « نانا » خاتمها على سبيل الذكرى ، وا اسفاه ووارحمتاه !

والحقيقة ان الشجاعة ينبوع الرحمة ، ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب . وقد قال المؤرخ « اهلاند » : أليس من

آيات القوة والشجاعة ان تجد نفوس هؤلاء القوم في اله الرعد رفيقاً مؤنساً ؟ وأن لا تخاف ولا تذعر من رعده بل ترى انه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالي يرتاح ويستأنس الى «ثور»، ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق، ويلاعبه ويداعبه، وكان ذاك الاله عنده هو إله الحرارة الشمسية ايضاً، اعني إله العمل والأمن والخير والبركة، وصاحب الفلاح ورفيقه في الغرس والحرث. ثم أن «ثور» نفسه لا يترفع عن مباشرة جميع الاعمال الخشنة السوقية، وما يزال يذهب الى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها، وفي بعض هذه الاقاويل ما فيه فكاهة وضحك.

فمن ذلك ما ذكرنا ان «ثور» يذهب الى ديار «المردة» ليجلب مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير، فيدخل عليه «هيمير» شيخ الابالسة ولحيته مرصعة بالبرد، وكلما رمى ببصره عموداً من العمد انفلق من حدة نظرته، وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ «ثور» المرجل فيلبسه في رأسه فاذا هو قد بلغ قدميه، ذلك لانه مرجل المارد «هيمير» الذي كان كل بقرة من بقره هضبة من الثلج.

هذه افكار وايم الله ماردية هائلة الجسامة، غير انها تحتاج الى ان تُراض وتذلل حتى تصير افكاراً شكسبيرية ودانتية [1] وغوتية [2]، ثم اني ابصر نسبة قريبة بين «ثور» اله الرعد و «جاك قاتل المردة» وبين «هندي ايتن» و «ايتن الاحمر الايرلندي» التي جاءت في اقاصيص شعراء احدث عهداً من شعراء تلك العصور الوثنية، بل اني لا اجد «هاملیت شكسبير» الا فرعاً من تلك الشجرة القديمة الشمالية. وهذا ما لا نزاع فيه ولا ريب، نعم ان هاملیت او امليت قد ورد في خرافة قديمة من اساطير الاولين تُحدث عن مقتل ملك

---

١) نسبة الى دانتي اكبر شعراء ايطاليا واعظم رجالها قاطبة.

٢) نسبة الى غوته اكبر شعراء المانيا واعظم رجالها على الاطلاق.

يصب السم في اذنه اثناء نومه، الى غير ذلك من حوادث الرواية الشكسبيرية . خرافة قديمة اخذها الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منها قصة دانياركية، ثم تناول شكسبير ما صنعه « ساكسو » فصور منه مـا تروته، فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الافياء قد نما طبيعة او صدفة .

وحقاً ان في هذه الاغاني الشمالية معنى صادقاً شريفاً شأن كل قول تتداوله الرواة وتتوارثه القرون، وليس هو مجرد جزالة في اللفظ وشرف في الديباجة، ولكنها شرف وجزالة في المعنى وخشونة في الروح ووعورة، وأرى في قلوب اولئك القدماء جداً صامتاً واطراقاً في غير ضجر ولا شكوى، وكأني بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام ما رآه النـــاس في جميع العصور بالروية والتفكير، وهو ان الدنيا باطل وعرض زائل بل خيـــال لا حقيقة، وكذلك رأي الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والمنية يقظـة والمرء بينهما خيال ساري

ومن اقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة ان « ثور » يذهب الى « اتجارد »، حديقة ارض المردة، يصحبه اثنان من اتباعه « ثيالفي » و « لوكي »، وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون في سهول وقفار بين صخور واشجار، حتى اذا جن الليل آنسوا داراً وكان جانب من جوانبهـا كله باباً فولجوه، فاذا مكان حقير خال فاقـــاموا به، فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء، فاخذ « ثور » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال، وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا، فوجدا غرفة صغيرة فعـاذا بها، واقام ثور بالباب يترقب عدواً مهاجماً ولا عدو . ولما اصبحوا وجدوا ان الضوضاء لم تكن الا شخير مارد جسيم مسالم : المـــارد « سكريمير » وكان ناحية منهم . وكان المكان الذي حسبوه داراً فبـــاتوا فيه، إنما هو احدى قفازتي ذلك المارد قد القاها الى جانبه عندما اراد النوم، وكانت الغرفة التي عاذا بها هي بيت الابهام، ولم يكن للقفـــازة بيوت لسائر الاصابع، يا لها من قفازة عتيقة !

ثم ان المارد « سكريمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثور » ارتاب بالمـــارد وعزم على قتله متى نام ، وكذلك اتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم ، فلم يفعل المارد اكثر من انه انتبه وحك وجنته وقال : « ورقة سقطت » ثم عاد في نومه ، فارسل « ثور » على وجهه ضربة اشد ، فلم يك من المارد اكثر من انه همس قائلا : « ما هي الا حصاة » ثم نام فصب عليه « ثور » بيديه جميعاً ضربة احدثت اثراً بوجه المارد ، فما زاد على ان قطع شخيره وقال : « أحسب ان بهذه الشجرة عصافير والا فما هذا الذي سقط علي ؟ » ثم ان « سكيريمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة ، وكان يوم لهو وشراب ، فناولوا « ثور » كأساً وسألوه ان يشتف ما فيه بجرعة واحدة ، فكرع فيه ثلاثاً طوالا وما كاد يحدث اثراً ، فقالوا له : « طفل ولا ريب » ثم أومأ له الى قطة فسألوه أيقدر ان يرفعها ، فحاول « ثور » فما استطاع ان يرفع بعد الجهد الجهيد الا احدى اقدامها ، فقالوا له : « ما انت يا هذا برجل ، انظر ثمة الى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها » فعانقها ثور وجهد وكد فما فعل شيئاً .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثور : « لقد غُلبت ولكن لا تخجل فان في الامر سراً أنا كاشفه لك ، فاما الكأس التي حاولت ان تشرب فلم تقدر فذلك البحر وحسبك انك احدثت به جزراً ، ومن ذا الذي يا ثور يستطيع ان يشرب البحر ؟ وأما الهرة التي اردت ان ترفعها فتلك هي الحية تلتف حول الارض فتمسك اجزاءها وتضم اركانها ، فقل لي : أكنت محاولاً برفعك اياها ان تخرب العالم ؟ واما العجوز فهذه هي الدهر والهرم والدوام ، ومن ذا الذي يصارع ذلك ، لا انسان ولا إله ، فانها غلابة لكل شيء ! واما الضربات الثلاث التي ضربتها ، فتأويلها ان تنظر الى هذه الأودية الثلاث فهي من صنع ضرباتك » فنظر « ثور » الى رفيقه فاذا هو المارد « سكيرمير » ، وهذا المارد هو الارض ذاتها وما قفازته الا احـــد الكهوف ، واملس المارد فلم يبق له اثر . ثم ان ثور التفت لينظر حديقة المردة فاذا هي قد صارت

هواه ، ولم يبقَ الا صوت المارد يهتف به ساخراً : « أولى لك ان لا تعود الى ديار المردة ! »

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ، ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز ؟ نعم ذهب أنقى واصفى مما يوجد في خرافات اليونان وان كانت أجود صنعة وارشق معرضاً ، وقد ارى لذلك المارد « سكيرمير » فكاهة جمة أساسها الجد والاعتبار والحزن ، كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهي فكاهة تجري في دمائنا حسبما يخيل الي لاني اكاد اسمعها الآن من اقاصي غابات امريكا يصدح بها كاتبها الكبير « امرسون » .

ومن الرائع الكبير من افكار القوم ، ذاك الذي في الصورة الآتية ، وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة ، فتنتهي بموت الجميع وخراب الكون ، ولكنه موت موقت ريثما يتجدد كون ذو سماء اجمل وابهى ، وارض انضر واحلى ، وإله اشرف واقوى يعدل بين الناس جميعاً . فعجيب من هؤلاء الناس كيف ادركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر ، سر القيامة والبعث ! وهذا فيما اراه القانون الاساسي لكل مخلوق احدثه الدهر واقامه في دار الأمل[1] قانون قد نفذ اليه نظر ذوي الاخلاص والبصيرة ، وسينفذ ما دام الانسان .

ولننظر الآن الى الخرافة التي يذكر فيها آخر ظهور « ثور » في الارض ، ونجعلها خاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل الي آخر هذه الخرافات عهداً ، وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية ، وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظي الوثنيين في اوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا فحواها :

---

١) الدنيا .

بينما الملك « اولاف » امير النرويج ذلك الذي كان له اليد الطولى في هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية في البلاد ، سائحاً في حاشيته على سواحل النرويج ، يتنقل من ثغر الى ثغر ، ويبث العدل في الرعية أو يصلح من امورها ، اذا بغريب بادي الوقار اصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة ، قد طرأ ثم كان من حديثه ما اعجب الملك وراعه : ولكنه ما لبث ان غيّر لهجة كلامه فخاطب الملك قائلاً : « نعم ايها الملك « اولاف » ما اجمل هذا الشاطىء يزهو في رونق الضحى ، وما أندى خضرته وابهى نضرته ، فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان . ولكن اذكر انك ما كنت ممتعاً بذاك ، لولا ما مهده لك « ثور » من امر البلاد ، وما وطّأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة وكم دافع عنه الأبالسة ، وكم لاقى في ذلك من يوم اروناني[1] ونهار عصيب ، والآن اذا استتب لك الامر وطاب لك الزمان تناسيت « ثور » ودفنت ذكره ، فيا ايها الانسان انتبه من رقدتك وكن من امرك على حذر ! » قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مرسح العالم ! واني لأرى باعث حزن وشجن في ذلك الصوت ، آخر اصوات الوثنية الذي فني معه « ثور » والعالم الشمالي باكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فالى الفناء مصيره ، وما من شيء حبيب الينا عزيز علينا الا وتجري بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ، ويروعنا بنواه يوم وداع !

وكذلك كان لاولئك الشماليين الانجاد في تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا ان نعرّف وثنيتهم) ما كفاهم ديناً وشرعاً ، وما تقديس الشجاعة بالأمر الهين ، ثم لا احسب ان عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنا الا

---

[1]) شديد .

شيئاً مفيداً ، ذلك ان الدين لا يبرح منه في نفوسنا ، وان لم نشعر بذلك من أثر . فشعورنا به جدير ان يجعل صلتنا بالماضي آكد ، وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضي تعلمون ميراث لنا واي ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التي هي مجموع كل عصر وكل امة ، فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به ، وقد جاء في كلام « غوتيه » أن رجلاً اسمه « مايستر » سأل استاذه بأي الاديان الثلاثة أنت مؤمن ؟ فأجاب : « بجميعها لان من اجتماعها يتكون الدين الحق » ! ..

البطل في صورة رسول

محمد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة ، عصور الوثنية الشمالية الى دين اخر في أمة اخرى ، دين الاسلام في أمة العرب ، وما هي الا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل أي رفعة وارتقاء نراها هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره .

في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم إلهاً بل رسولاً بوحي من الاله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لا تعود ابداً ، ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا ان نسأل أكان من أي ناس قط أنهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه ، فقالوا : « هذا خالق الكون » انا لا اظن ذلك ، انما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه ، على أن هذا ايضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة ، ولكن دعنا نقل ان الرجل العظيم ما برح في جميع الازمان لغزاً من الالغاز لا ندري كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل اهم مزايا جيل من الاجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كإله او كنبي او كيفما كان ، فذلك هو السؤال الاكبر . ومن طريق اجابتهم عن هذا السؤال ، وكيفية مذهبهم في ذلك الامر ، يمكننا ان نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فان الرجل العظيم اذا كان مصدره واحداً ، اعني من ذات الله ، فهو جنس واحد : « أودين » او « لوثر » أو « جونسون » او « بارنز » وأرجو

أن اوفق الى افهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وانه لم يُحدث الخلاف العظيم بين احدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسونها هم او الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمنهم .

❁

لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متمدين من أبناء هذا العصر ، ان يصغي الى ما يُظن من ان دين الاسلام كذب ، وان محمداً خداع مزور . وآن لنا ان نحارب ما يُشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان احدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصار اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا استطيع أن ارى هذا الرأي ابداً ، ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هـــذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس الا بُله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ان لا تُخلق .

فوا أسفاه ما اسوأ مثل هذا الزعم ، ومـــا اضعف اهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة . وبعد ، فعلى من اراد ان يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ، ان لا يصدق شيئاً البتة من اقوال اولئك السفهاء ! فانها نتائج جيل كُفْرٍ وعصر جحود وإلحـــاد ، وهي دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الارواح في حياة الابدان ، ولعل العالم لم ير قط رأياً اكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان ان رجلا كاذباً يستطيع ان يوجد ديناً وينشره ؟

عجباً والله ، ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني بيتاً من الطوب ! فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب ومـــا شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت ، وانما هو تل من الانقـــاض ، وكثيب من أخلاط المواد . نعم ، وليس جديراً ان يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتـــا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير ان تنهار اركانه فينهدم كأنه لم يكن . واني لأعلم انه

على المرء ان يسير في جميع امره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت ان تجيب طلبته وتعطيه بغيته .

كذب والله ما يذيعه اولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وان زينوه حتى اوهموه صدقاً ، ومحنة والله ومصاب ان ينخدع الناس شعوباً واماً بهذه الاضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل . وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الاوراق المالية المزورة ، يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الاثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأي مصاب وابيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية واشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء افواهها : « هذه الاوراق كاذبة ! »

اما الرجل الكبير خاصة ، فاني أقول عنه يقيناً انه من المحال ان يكون كاذباً ، فاني أرى الصدق أساسه واساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندي انه ما من رجل كبير ، ميرابو او نابليون او بارنز ، او كرمويل ، كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير اول باعثاته على محاولة ما يحاول ، اعني انه رجل صادق النية ، جاد مخلص قبل كل شيء ، بل اقول ان الاخلاص – الاخلاص الحر العميق الكبير – هو اول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا اريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه ، كلا ، فان هذا حقير جداً وايم الله ، هذا اخلاص سطحي وقح ، وهو في الغالب غرور وفتنة ، انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ، ولا يشعر به ، بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص ، اذ اين ذاك الذي يستطيع ان يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟

نعم ان الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أهي مخلصة او بعبارة اخرى اقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء اراد ام لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع ان يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هي اولى اسباب عظمته . هو يرى

الكون مدهشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقاً كالحياة ، وهذه الحقيقة لا تفارقه ابداً وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا في غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظـــة بين جنبيه ونصب عينيه ، كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب . ها هي ! ها هي ! فاعرفوا هداكم الله ان هذه هي اولى صفات العظيم ، وهذا حـده الجوهري وتعريفه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة ان توجد في نفس كل انسان خلقه الله ، ولكنهـــا من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيماً الا بهـــا .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً اصلياً صافي الجوهر ، كريم العنصر ، فهو رسول مبعوث من الابدية المجهولة برسالة الينا . فقد نسميه شاعراً او نبياً او إلهاً ، وسواء هـذا او ذاك او ذلك فقد نعلم ان قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الاشياء . نعم ، هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحـــات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الاوهام والآراء : وكيف وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم اذا نظرت الى كلمـــات العظيم شاعراً كان او فيلسوفاً او نبياً او فارساً او ملكاً ، الا تراهـــا ضرباً من الوحي ؟ والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للاشياء ، وقد دل الله على وجوده بعـــدة آيات ، ارى ان احدثها واجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة فوجب علينـــا ان نصغي اليه قبل كل شيء ...

وعلى ذلك فلسنا نعد محمـداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية ، او يطمح الى درجة ملك او سلطان ، او غير ذلك من الحقائر والصغائر . وما الرسالة التي أداها الا حق صراح ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ، مـــا محمد بالكاذب ولا الملفق ، وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فـاذا هي شهاب قد اضاء العالم

اجمع . ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وَهَبْ لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات – واي انسان لا يخطىء انما العصمة لله وحده – فانه ليس في طاقة أية هفوات او غلطات ان تزري بتلك الحقيقة الكبرى وهي انه رجل صادق ونبي مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ، ونجعل من الجزئيات حُجُباً تستر عنا الحقائق الكلية . الهفوات ! أيحسبُ الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن اكبر الهفوات عندي أن يحسبَ المرءُ أنه بريء من الهفوات ! مـــا بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ؟ الا ما أهـون امر الذنوب وأصغر خطر الاغلاط – الجزئيـات والقشور – إذا كان لبابها كريماً وسرها حراً شريفاً ، وكان في التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لادران الروح من أدران الشوائب . أليست التوبة اكرم أعمال المرء قاطبة وأقـدس أفعاله ؟ إنما ألأم الذنب هو كما قلت ، حسبـــان المرء انه بريء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلقة من الوفـــاء والمروءة ، بعيدة عن التقى والبر والحق – أو هي ميتة – أو إن تشأ فقل هي نقية نقاء الرمـــل الجاف الميت . وإني أحسب ان سيرة داود وتاريخـــه كما هو مدون في مزاميره ، لأصدق آية على ارتقـاء المرء في معارج المكرمـات ، وعلى حرب العقل والهوى ، حرباً طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفياً على الانقراض . ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبداً بالبكاء والتوبة ، واستنهاض العزم الصادق الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الانسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها ! أو ليست حيـــاة الانسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة الا لأخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات ، وانما

الأمر الهام هو أيظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات ، ما دام اللباب حقاً والصميم صحيحاً ، ومـا كانت الجزئيات وحدها لتعرّفنا حقيقة انسان .

●

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمـة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق . فـكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة اخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطّف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة ، كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الاعرابي صامتاً لا يتكلم الا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضاً قفراً يباباً خرساء تخالها بحراً من الرمـل يصطلي جمرة النهار طوله ، ويكافح بحرّ وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلاً اما إذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشي فيخصر

ولا احسب أناساً شأنهم الانفراد وسط البيد والقفـار ، يحادثون ظواهر الطبيعة وينـــاجون اسرارها ، الا أنهم يكونون اذكياء القلوب ، حداد الخواطر ، خفاف الحركة ، ثاقبي النظر ، وإذا صح ان الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب لا شك طليانه .

والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوماً اقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم احصن سور وأمنع حاجز ، وهـذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف البـاذخ ، وقد كان احدهم يضيفه ألد اعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فاذا ازمع الرحيـــل خلع عليه وحمّله وشيّعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم ان يقاتله متى عادت به اليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتاً ، فاذا قال افصح .

ويمتاز العرب بحلاوة الشمائل ورقة الظرف ، وبألمعية القريحة وأريحيـة القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ، حيث كانت تقام اسواق التجارة ، فـــاذا

.نتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تُجعل للاجود قريضاً والاحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أي لذة ، فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى لهؤلاء العرب صفة واضحة فيهم ، واحسبها ثمرة الفضائل جميعاً والمحامد بحذافيرها ، ألا وهي التدين ، فانهم مذ كانوا ما برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته ، فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فان مصنوعات الله ما برحت بوجهٍ ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدّمتُ نعتقدها مفخرة للشاعر وفضيلة ان يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال او « أسرار الجمال الشعري » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم استاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه ، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي سديد واي تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟

والحجر الأسود كان من اعم معبودات العرب ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى « الكعبة » ، وقد ذكر المؤرخ الروماني « سيسلاس » الكعبة فقال انها كانت في مدته اشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاماً . وقال المؤرخ « سلفستر دي ساسي » ان الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فاذا صح ذلك فلا بد أن إنساناً قد بصر به ساقطاً من الجو ! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر « زمزم » والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظرٌ حيثما كان سارٌ مفرح ينبجس من الحجر الاصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض :

بديومة لا ظل في صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوّم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً وبارحها المسموم للوجه ألطم

أظل إذا كافحتها وكأنني بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتُق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها ، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر واسماعيل فيضاً من الله وشفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الاسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها ، وعليها الكسوة السوداء يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً ، حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصابيح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وستوقد تلك المصابيح الليلة لتشرف تحت النجوم المشرقة ، فنعم اثر الماضي هي ونعم ميراث الغابر . هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصي المشرق الى أخريات المغرب ، ومن دلهي الى مراكش ، تتوجه أبصار العديد الجمهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم . نعم ، هي والله من اجلّ مراكز المعمورة وأشرف أقطابها !

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الاسود ، ومن حج القبائل الى ذياك المكان ، كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتاً ما ذات بال وشأن ، وان كانت الآن قد فقدت كثيراً من اهميتها . وموقعها من حيث هي مدينة سيء جداً ، اذ هي واقعة في بطن من الارض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة ، على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات اخرى ، حتى الخبز . ولكن الذي اضطر الى ايجاد هذه المدينة هو ان كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم أن اماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعي التجارة ، فأول يوم يلتقي فيه الحجيج تلتقي فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا انفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض ، رأوا انه لا بأس عليهم ان يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن في الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب باجمعها ، والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين ايطاليا ، وقد

بلغ سكانها في حين من الاحيان مائة الف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة المأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارستقراطية عليهـــا صبغة دينية ، وذلك انهم كانوا ينتخبون لها عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة .

وكانت الكعبة لقريش في عهد محمد ، واسرة محمـد من قبيلة قريش ، وكان سائر الامة مبدداً في انحاء تلك الرمال قبائل تفصلهــا بين الواحدة والاخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة امير او امراء ، وربما كان الامير راعياً او ناقل امتعة ، ويكون في الغالب غازياً . وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علني الا التقاءهم بالكعبة ، حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، والا رابطة الدم واللغة .

وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طوالاً خاملي الذكر غامضي الشأن ، اناساً ذوي مناقب جليلة وصفـــات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم ، ويطير في الآفـــاق صيتهم ، ويرتفع الى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما كانت وثنيـاتهم قد وصلت الى طور الاضمحـلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض انباء عن اكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة ، اعني حياة المسيح ووفاته ، وهي التي احدثت انقلاباً هائلاً في جميع سكان العالم ، فلم تعدم هذه الانباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الامة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم ، ان وُلد الرجل محمـــد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من اسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات ابوه عقب مولده ، ولمـــا بلغ عمره ستة اعوام توفيت امه ، وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره ، وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبدالله أحب أولاده اليه ، فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبدالله فاحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول : « ينبغي ان يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وفضلاً »

ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين ، عهد به الى ابي طالب أكبر اعمامه ، رأس الاسرة بعده ، فرباه عمه ، وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل على احسن نظام عربي .

ولما شب محمد وترعرع ، صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه ، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين ، رحلة الى مشارف الشام ، اذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أعني الديانة المسيحية . واني لست أدري ماذا اقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما ، فان محمداً لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة ، ولم يكن يعرف الا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره الا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ، ولا بد من ان يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ، ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشي ، وتحلـّها له يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات ، فلعل هذه الرحلة الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ ابداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ! نعم ، انه لم يعرف من العالم ولا من علومه ، الا ما تيسر له أن يبصره بنفسه ، او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به انه لم

يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك . ولم يقتبس محمد من نور أي انسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك في جميع أشباهه من الانبياء والعظماء ، اولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور ، من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وانما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده ، بين الطبيعة وبين أفكاره !

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً ، وقد سماه رفقاؤه الأمين ، أي رجل الصدق والوفاء ، الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره ، وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة . واني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ، فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام والا فلا .

وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ ، صارم العزم ، بعيد الهم ، كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلا حراً ، رجلاً شديد الجد مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة حلو الايناس ، بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لان من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله واحواله ، هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه ، وضيء الطلعة ، حسن القامة ، زاهي اللون ، له عينان سوداوان تتلألآن ، واني لأحب في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتفخ ويسود في حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الحمراء لوالتر سكوت) ، وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم ، ولكنه كان أبين في محمد وأظهر . نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ناري المزاج ، ولكنه كان عادلاً صادق النية ، كان ذكي اللب شهم الفؤاد

لوذعيا كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غني عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح ، فادى عمله في الحياة وحده في اعماق الصحراء .

وما الذ وما أوضح قصته مع خديجة ، وكيف انه كان اولا يسافر في تجارات لها الى اسواق الشام ، وكيف كان ينهج في ذلك اقوم مناهج الحزم والامانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ، ولما زوجت منه كانت في الاربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة . ولقد عاش مع زوجه هذه على اتم وفاق وإلفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ، ومما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالته ، بل كان ملفقاً مزوراً انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوي ، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية . ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه ، حقيقة كانت او مختلقة ، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة . نعم ، لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظنونهم به ، ولم يك إلا بعد ان ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعاً ، وثار يريد امراً جليلاً وشأناً عظيماً .

ويزعم المتعصبون والملحدون ان محمداً لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وايم الله ، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ، ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً ، وحكمة وحجى واربة ونهى ، افكار غير الطمع الدنيوي ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ... وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم الا ان يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة ، إذ ترى

محمداً لم يرض ان يلتفع بمـــألوف الاكاذيب ويتوشح بتتبع الأباطيل ؛ لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات .

لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخـــاوفه وروائقه ومباهره ، لم يك هنالك من الاباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه : « هأنـذا » فمثل هذا الاخـلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية ، وكل كلام مـا عدا ذلك هباء وكل قول جفـــاء ، وما زال منذ الاعوام الطوال ، منذ أيام رحله واسفاره ، يجول بخاطره آلاف من الافكار : ماذا انا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي اعيش فيه والذي يسميه الناس كوناً ؟ ومـا هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا اعتقد ؟ وماذا افعل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء ، أو شماريخ طود الطور ، او تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهـــار ، ولا النجوم الزاهرة والانواء الماطرة . لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما الجواب عن ذلك إلا روح الرجل والا ما اودع الله فيه من سره !

وهذا ما ينبغي لكل انسان ان يسأل عنه نفسه ، فقد أحس ذلك الرجل القفري ان هـذه هي كبرى المسائل وأهم الامور ، وكل شيء عديم الاهمية في جانبها ، وكان اذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية ، او في روايات اليهود المبهمة ، او نظام وثنية العرب الفـاسد ، لم يجده . وقد قلت ان اهم خصائص البطل ، واول صفاته وآخرها ، هي ان ينظر من خلال الظواهر الى البواطن ، فاما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات ، فينبذها جيدة كانت او رديئة . وكان يقول في نفسه : « هذه الاوثان التي يعبدها القوم لا بد من ان يكون وراءها ودونها شيء ما هي الا رمز له وإشارة اليه ، وإلا فهي باطل وزور ، وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع ! »

وما لهذا الرجل والاصنام ، وأنى تؤثر في مثله اوثان ولو رصعت بالنجوم

لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والاقيال من حمير ، اي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه في واد وهم في واد ، هم يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فاما ان يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين. فلتجبها يا محمد ! أجب، لا بد من ان توجد الجواب ، أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمداً وأثاره ؟ حمق وايم الله ، وسخافة وهوس ! اي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب ، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى ، وجميع ما بالارض من تيجان وصوالجة ، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة ، وقضيب مفضض الطرف ، او في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا ، اذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل ان محمداً كاذب ونعد موافقتهم عاراً وسبة ، وسخافة وحمقاً ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع !..

وكان من شأن محمد ان يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ، ونعمت العادة ما أجل وانفع ، ولاسيما الرجل كمحمد ، لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامتة ، متفتحاً صدره لاصوات الكون الغامضة الخفية . اجل ، حبذا تلك عادة ونعمت ، فلما كان في الاربعين من عمره وقد خلا الى نفسه في غار بجبل «حراء» قرب مكة شهر رمضان ، ليفكر في تلك المسائل الكبرى ، اذا هو قد خرج الى خديجة ذات يوم ، وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته ، فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وانه قد انارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وان جميع هذه الاصنام محال ، وليست الا اخشاباً حقيرة ، وان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور الابدي والرونق السرمدي ، الله اكبر ولله الحمد ، ثم الاسلام وهو ان نسلم الامر لله ، ونذعن له، ونسكن اليه ، ونتوكل عليه ، وان

القوة كل القوة هي في الاستنامة لحكمه ، والخضوع لحكمته ، والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ، ونعلم انه الخير وأن لا خير إلا هو .

ولقد قال شاعر الالمان واعظم عظمائهم « غوته » : « اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم ، وقدما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الاذعان للضرورة ، فان الضرورة تخضع المرء برغم انفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرهاً ، بل في اليقين بان الضرورة الاليمة المرة هي خير ما يقع للانسان وافضل ما يناله ، وان لله في ذلك حكمة تلطف عن الافهام وتدق عن الاذهان ، وانه من الافن والسخف ان يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزاناً لذلك العالم واحواله ، بل عليه ان يعتقد ان للكون قانوناً عادلاً وان غاب عن ادراكه ، وان الخير هو اساس الكون ، والصلاح روح الوجود ، والنفع لباب الحياة ، نعم عليه ان يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى ».

اقول : وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الاشرف الاطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحراً وكريماً ، وسائراً على المنهج الاقوم ، وسالكاً سبيل السعادة ، ما دام معتصماً بحبل الله متمسكاً بقانون الطبيعة الاكبر الامكن ، غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم ، هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري – قطب رحى الكون ومحور الدهر – وليس بظافر اذا فعل غير ذلك ، وحقاً ان اول وسيلة تؤدي الى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ، ثم بأنه صالح بل لا شيء غيره صالح ! وهذا يا اخواني هو روح الاسلام ، وهذا هو ايضاً روح النصرانية ، والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ، والاسلام والنصرانية يأمراننا ان نتوكل على الله قبل كل شيء ، وان نفطم النفس عن الشهوات ، وننهي القلب عن الهوى ، وان لا نجمح في عنان المنى ، وان نصبر على البث

والاسى ، وان نعرف اننا لا نعرف شيئاً ، وان نرضى من الله كل مـا قسم ، ونعدهـا يداً بيضاء ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال ، وتبارك الله ذو الفضل والجـلال ، ونقول : « انا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون ».

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا اشرف ما نزل من السماء على بني الارض . نعم ، هو نور الله قد سطـع في روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك ، وقد سماه محمد (عليه السلام) وحياً و « جبريل » ، وأينا يستطيع ان يحدث له اسماً ، ألم يجيء في الانجيل ان وحي الله يهبنا الفهم والادراك ، ولا شك ان العلم والنفاذ الى صميم الامور وجواهر الاشياء لسر من اغمض الاسرار لا يكاد المنطقيون يلمسون منه الا قشوره . وقد قال نوفاليس : « أليس الايمـان هو المعجزة الحقـة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الســاطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هي اهم ما يجب على الناس علمه ، لم يك الا امراً بديهياً ، وكون الله قد انعم عليه بكشفها له ونجـاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد اصبح مضطراً الى اظهارها للعالم أجمع ، هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين !

ويخيل الينـــا ان الصالحة خديجة أصغت اليه في دهشة وشك ، ثم آمنت وقالت : «اي وربي انه لحق!» ونتوهم ان محمداً شكر لها ذلك الصنيـع ، ورأى في ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما اسدت اليه من قبل ، فانه ليس أروح لنفس المرء ولا اثلج لحشاه من ان يجد له شريكاً في اعتقاده ، ولقد قال نوفاليس : « ما رأيت شيئـاً قط آكد ليقيني واوثق لاعتقادي من انضمام انسان اخر الي في رأيي » نعم انه لصنيـع أغر ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجـة حتى لقي ربه ، حتى ان عائشة –زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها – هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم ، ألست الآن

أفضل من خديجة ؟ لقد كانت ارملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبني اكثر مما كنت تحبها . » فأجاب محمد : « كلا والله لست افضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والكل كافر ومنكر ، ولم يك لي في هذا العالم الا صديق واحد ، وهذا الصديق هي » وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلي ، وهؤلاء الثلاثة اول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك ، فما كان يصادف الا جموداً وسخرية ، حتى انه لم يؤمن به في خلال ثلاثة اعوام الا ثلاثة عشر رجلاً ، وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ، ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال ، وبعد هذه السنين الثلاث آدب مأدبة لأربعين من قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً فذكر دعوته ، وانه يريد ان يذيعها في سائر انحاء الكون، وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي ، وكان غلاماً في السادسة عشرة ، وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في اسدّ لهجة انه ذاك النصير والظهير . ولا ُيحتمل ان القوم كانوا منابذين محمداً ومعادينه وكلهم قرابته ، وفيهم ابو طالب عم محمد وابو علي ، ولكن رؤية رجل كهل امي يعينه غلام في السادسة عشرة ، يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعو الى العجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين !.. ولكن الامر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية في الجد والخطر ! اما علي فلا يسعنا الا ان نحبه ونتعشقه ، فانه فتى شريف القدر كبير النفس ، يفيض وجدانه رحمة وبرا ، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان اشجع من ليث ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان ، جدير بها فرسان القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قاتله : « إن أعش فالامر اليّ وإن أمت فالأمر لكم ، فان آثرتم ان تقتصوا فضربة بضربة ، وان تعفوا اقرب الى التقوى » !

وكان في عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة

وخدمة الاصنـــام ، وانضم اليه منهم رجلان او ثلاثة اولو بأس ونفوذ ، وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيء الوقع لدى كل انسان ، اذ جعلوا يقولون : « من هذا الذي يزعم انه أعقل منا جميعاً والذي يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ! » وأشار عليه أبو طالب ان يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وان يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليـه فيخطر بذلك حياته ، فأجابه محمـد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله او أهلك فيـه ما تركته ! » كلا ، فان في هذه الحقيقة التي جاء بها لشيئاً من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ، ما دام قـد أراد ان تظهر ، وبرغم قريش جميعها ، وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد أن تظهر ولا يسعها الا أن تظهر ، بذلك أجاب محمد ، ويقال أنه اغرورقت عيناه : لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه امر ليس بالهين اللين ، ولكنها أمر صعب المراس مر المذاق !

واستمر يؤدي الرسالة الى كل من أصغى اليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ، ويستميل الاتباع هنا وهنالك ، وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ، ومناصبة بالعداوة ومجاهرة ، وشراً بادياً وكامناً ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعـه على الهجرة الى الحبشة ، فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ، وكانت خديجة قد توفيت ، وتوفي ابو طالب ، وتعلمون ، أصلحكم الله ، أن محمداً ليس بحاجة الى ان نرثي له ولحـاله النكراء اذ ذاك ومقامه الضنك وموقفـه الحرج ، ولكن اعرفوا معي ان حاله اذ ذاك من الشـــدة والبلاء كما لم يرَ إنسان قط ، فلقد كان يختبىء في الكهوف، ويفر متنكراً الى هذا المكان والى

ذاك ، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدده الحتوف وتتوعده المهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من افراس اتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن امر محمد — ذلك الأمر العظيم — ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته — وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعاً ، وكانوا اربعين رجلاً كل من قبيلة ، ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلاً — هاجر الى يثرب حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن المدينة أي مدينة النبي ، وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق ، والسنة الاولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح اذ ذاك شيخاً كبيراً ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكاً وعراً ، وسبيلاً قفراً وخطة نكراء موحشة ، فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ، ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل انسان في مثل هذه الأحوال . وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ، ثم دفاع عربي ، ولسان حاله يقول : « واما وقد ابت قريش الا الحرب فلينظروا اي فتيان هيجاء نحن ! » وحقاً رأى فان اولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق ، وأبوا الا تمادياً في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ويأتون كل اثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا الا عتواً وطغياناً ، فليجعل الامر اذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم ، والى كل مسرودة

حصداء وسابحة جرداء ! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق ، وكانت النتيجة ما تعلمون .

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه ، فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذي اوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين ، وأنه حق . والرأي الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد – فرد ضد العالم اجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع . وأرى على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف احياناً ، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة اخرى ، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة او بالصحافة او بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم الا ما كان يستحق ان يهزم ، وليس في طاقتها قط ان تفني ما هو خير منها ، بل ما هو أحط وادنى فانها حرب لا حَكَم فيها الا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل وما اقسط ، وما كان اعمق جذراً في الحق وأذهب اعراقاً في الطبيعة ، فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده .

أقول الطبيعة اعدل حكم ، بلى ما اعدل وما اعقل وما ارحم وما احلم ، انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب وسائر اصناف الأقذاء ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فانها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً ، فاما القذى فانها تبلعه في سكون وتدفنه ، ولا تذكر عنه كلمة ، وما هي الا برهة

حتى ترى القمح زاكياً يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز ، والارض الكريمة قد طوت كشحاً على الاقـذاء وأغضت ، بل انها حولتها كذلك الى اشياء نافعة ، ولم تشك منها شجواً ولا نصباً . وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها ، فهي حق لا باطل ، وهي عظيمة وعادلة ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم ، فاذا كان كذلك حمته وحرسته ، او كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه ، فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحاً من الحق ، أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو ، وا أسفاه ، شأن كل حقيقة كبرى جاءت الى هذه الدنيا او تجيء فيما بعد ؟ أعني ان الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات ، لا يمكن ان تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من ان يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطأها وجوهرها فتموت وتذهب ، نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ، ولكن الروح يبقى ابداً ، ويتخذ ثوباً اطهر وبدناً اشرف ، وما يزال يتنقل من الاثواب والابدان ، من حسن الى احسن وجيد إلى اجود ، سنة الطبيعة التي لا تتبدل . نعم ان جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت ، وإنما النقطة الهامة والامر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من اعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء او عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الامر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها أنت لتصدر حكمها فيك هو أفيك اقذار واكدار ام لا ، وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا ، أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور ام لا بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس انه نقي ، اني اقول له : « نعم نقي ، نقي جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل واكذوبة وزور وثوب بلا روح ، ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقي ولا غير نقي ، وإنما انت لا شيء والطبيعة لا تعرفك

وإنها منك براء . »

نحن سمينا الاسلام ضرباً من النصرانيـــة ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس ، واختــلاطه بالدماء في العروق ، لأيقنا انه كان خيراً من تلك النصرانية التي كانت اذ ذاك في الشــام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفراً ميتاً ! على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً ، وبفضله فقط آمن الناس بها ، وحقاً انها كانت ضرباً كاذباً من النصرانية كالدعي بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء اصنـــام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود وروواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينـــه المتوقدة الجلية إلى لبـــاب الامر وصميمه ، فقال في نفسه : الوثنية باطل . وهذه الاصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهي منكر وفظيع وكفر لو تعلمون ، انما الحق ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقنا وبيـــــده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما اصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به اولئـــــك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية ، لجدير أن يكون حقاً وجدير ان يصدق بـــه ، وان ما اودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيـــد الذي للانسان ان يؤمن به ، وهذا الشيء هـــو روح جميع الاديان ، روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعــــددة ، وهي في الحقيقة شيء واحد ، وباتباع هذه الروح يصبح الانسان إماماً كبيراً لهـــذا المعبد الاكبر — الكون — جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه ، لا محاولاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم اعرف قط تعريفاً للواجب احسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا فان الفلاح في ذلك (إذ كان

منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) . وجاء محمد وشيَع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ، أما انه الاهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها ، وانما هو أن خلق الله وابناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة ، فابتلعها وحق له أن يبتلعها ، لانه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فانها حطب ميت اكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الاذواق في الامم المختلفة ، هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ، ولذلك لا عجب اذا قلت ان الاوروبي يجد قراءة القرآن اكبر عناء ، فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلم ، لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأن لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات ، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه اتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر احكام القضاة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة . وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الالوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة ، ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة !

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه ، وقد زعم « براديه » وامثاله انه طائفة من الاخاديع والتزاويق لفقها محمد ، لتكون اعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغايته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الاقوال ، فاني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الاكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هي الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس ، بعد ان اوقدتها الافكار الطوال في الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر ، وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً ، وقل ما نطق به في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية . هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ، ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ، حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين اصحابه ، وهياج نفسه وثورانها ، كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر ، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية ، وهي تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دوامات الفكر ، حتى اذا اسفرت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الافاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش ، كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ ، لقد كانت حياته في نظره حقاً ، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والاخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته الى

العربي المتوحش ، وهي اول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها ، وهي منشأ فضائل غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه ان يبعث للكتـــاب فضائل اخرى .
ومن العجب ان نرى في القرآن عرقـــاً من الشعر يجري فيه من بدايته الى نهايته ، ثم تتخلله نظرات نافذات ، نظرات نبي وحكيم ، أجل لقـــد كان لمحمد في شؤون الحياة عين بصيرة ، ثم له قدرة عظيمة على ان يوقع في أذهاننا كل ما ابصره ذهنـــه ، انا لا احفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد ، لاني ارى لهـــا في الانجيل شبيهاً ، ولكني شديد الاعجاب بالنظر الذي ينفذ الى اسرار الامور ، فهذا اعظم مـــا يلذني ويعجبني ، وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت فضل الله يؤتيـــه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل ان يأتي بمعجزة قـــال : حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الارض ، أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الارض الـــتي خلق الله لكم ونهج لكم فيهـــا سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من اين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد اسود ، ثم يسح بمائـــه ويهضب ليحيي ارضاً مواتاً ، ويخرج منها نباتاً ونخيلا واعناباً ، اليس ذلك آية ، والانعام خلقها لكم تحول الكلأ لبناً وهي فخر لكم . والسفن – وكثيراً ما يذكر السفن – كالجبال العظيمة المتحركة تنشر اجنحتهـــا وتحتفز في سواء اليم لها حاد من الريح وبينما تسير اذا هي قد وقفت بغتة ، وقد قبض الله الريح . معجزات والله كل هذه ، واي معجزات بعدها تريدون ، الستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا ابداً ، ثم لكم جمـــال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمـــة اشرف الصفات » وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجـــودين . « ثم وهبكم الرحمة » لقد ادهشتني جداً هذه الجملة ، فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون امرهم ! هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ، وكذلك

أرى في محمد دلائل شعرية كبيرة ، وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ؛ وأتبين فيه عقلاً راجحاً وعيناً بصيرة وفؤاداً صادقاً ورجلاً قويـــاً عبقرياً ، لو شاء لكان شـاعراً فحلاً او فارساً بطـلاً أو ملكاً جليلاً ، او اي صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العـالم في نظره معجزة ايّ معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو ان هذا الكوكب الصلب المادي انما هو في الحقيقة لا شيء – انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير ! وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى ، وكان يقول الجبال اوتاد الارض ، وانها ستفنى كذلك يوم القيامة ، وان الارض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثوراً ، فتنعدم . وكان لا يزال واضحاً لعينيه سلطان الله على كل شيء ، وامتـلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقـة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدســاً بل لا يرونه شيئاً واحداً ، وانما اشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال ، وتستعمـل في تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الـكائنات من سر الله ، وما أفحش ذلك النسيان عاراً ، واكبر هذه الغفلة اثماً . واذا نسينا ذلك فأي الأمور يستحق الذكر ، اذن فمعظم العلوم أشياء ميتـة خاوية بالية ، بقلة ذابلة ! نعم وما احسب العلوم لولا ذلك الا خشباً يابســاً ميتاً ، وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفـة التي لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ! ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولاً الى العبادة ، أعني أنه لا علم الا لمن عبد ، والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الاسلامي ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فان الذي أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من

تلقاء نفسه ، وانما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل ، وقد تلـل محمد هذه الاشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه ان يجعل ، والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل مـا تعلمون من الصوم والوضوء والقواعـد الصعبة الشديدة واقامة الصلاة خمساً في اليوم والحرمان من الخمر ؟ وليس كما يزعمون كان نجاح الاسلام وقبول الناس إياه لسهولته ، لأنـه من أفحش الطعن على بني آدم والقدح في اعراضهم ان يُتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة — إلتماس الحلو من كل صنف في الدنيا والآخرة ! كلا فان احسن الآدميين لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجنـدي الجاهل الجلف الذي يؤجر يمينـه وروحه في الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف » يحلف بـه ، فـتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلـك وشرفي ! وليست امنية أحقر الآدميين هي ان يأكل الحلوى ، بل ان يأتي عملا شريفاً وفعلا محموداً ، ويثبت للناس انه رجـل فاضل كريم ، ليعمد أيكم الى أبلد انسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد ، فاذا هو قد تأجج قلبـه حماسة ، واتقدت نفسه غيرة ، وصار في الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم : انه ميال بفطرته الى الراحة ، وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة . إنما مغريات الانسان وجاذباته هي الأهوال والصعائب والاستشهاد والقتل ، إقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تذك ناراً تحرق سـائر ما فيه من الخسائس والنقـائص ، وما كان قط اعتنـاق الناس لدين من الاديان لما يرجـون من متاع ولذة ، بـل لما يثور في قـلوبهم من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد اخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطيء إذا حسبناه رجلا شهوياً ، لا همّ له الا قضاء مآربه من الملاذ ! كلا فما ابعـد ما كان بينه وبين الملاذ اية كانت ، لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسـائر اموره واحواله ، وكان طعامـه

عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون -- ونعم ما يذكرون -- انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام ، مجتهد في الله ، قائم النهار ساهر الليل ، دائب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان ، غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت ، رجل عظيم وربكم ، والا فما كان ملاقياً من اولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً ، واكباراً وإعظاماً ، وما كان ممكنا ان يقودهم ويعاشرهم معظم اوقاته ثلاثة وعشرين حجة ، وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ! لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الانوف اباة الضيم وعري المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا اذعنوا ، وكيف وقد كانوا اطوع له من بنانه ، وظني انه لو كان اتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الابطال !

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف ان يصعد الى ربه . ولا نحسب ان شدة تدينه ازرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين رزىء غلامه : « العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب » . ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) في غزوة « مؤتة » قال محمد : « لقد جاهد زيد الله حق جهاده ، وقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة ابيها -- وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ! فقالت : « ماذا أرى ؟ » قال : « صديقاً يبكي صديقه » . مثل هذه الاقوال وهذه الافعال ترينا في محمد

أخا الانسانية الرحيم – أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق ، وابن امنا الاولى وابينا الاول .

وإني لاحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي ، لا يعول الا على نفسه ، ولا يدعي ما ليس فيه . ولم يك متكبراً ، ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم في ثوبه المرقع كما اوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الاعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية . إذ كان يراها من وحي وجدانه وأوامر شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير الى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : « الحصيد ؟ انه لا يلبث الا يوماً . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم انه حر ، ولكن جهنم أشد حراً . » وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية . إذ يقول للكفار : « ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة . »

وما كان محمد بعابث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو . بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ، ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه ازاءها الا الاخلاص الشديد والجد المر . فاما التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو ان جميع أقواله واعماله اكاذيب ، بل انه هو نفسه اكذوبة . وأري خصلة المروءة

والشرف – شعاع الله – متضائلا في مثـــل ذلك الرجل ، مضطربا بين عوامل الحياة والموت ، فهو رجل كاذب . لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، محترم في بعض الازمان والامكنة ، لا تؤذيك بادرته ، لين المس رقيـق الملمس ، كحمض الكربون تراه على لطفـه سماً نقيعـاً ، وموتاً ذريعاً .

وفي الاسلام خلة أراها من اشرف الخلال وأجلها ، وهي التسوية بـين الناس . وهـذا يدل على أصدق النظر وأصـوب الرأي . فنفس المـؤمن راجحة بجميع دول الارض ، والناس في الاسلام سواء . والاسلام لا يكتفي بجعل الزكاة سنة محبوبة ، بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل . فتكون جزءاً من اربعين من الثروة ، تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا وما هو الا صوت الانسانية – صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل – ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمـادية على جنة محمد وناره ، فأقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين ، لا على ما جاء في الكتاب ، فان القرآن قد اقل جداً من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل مـا فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوانية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابـاً بدنيا والماً جثمانياً حتى أسندوه الى النار ، ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر مـــلاذ الجنة روحانياً ، اذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوهـا خالدين » ، فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى اماني المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذي عبثاً يلتمسه الانســـان في الحياة الدنيا ، وقال ايضاً : « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » ، وأي رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟

وأي دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان ، الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقلع عن مآربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وانما المنكر هو ان تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات ، ولعل امجد الخصال وأشرف المكارم هو ان يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وان يجعل من لذاته لا سلاسل واغلالاً تعيبه وتمتاص عليه اذا هم ان يصدعها ، بل حلياً وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها ، وكذلك امر رمضان ، سواء كان مقصوداً من محمد معيناً ، او كان وحي الغريزة وإلهاماً فطرياً ، فهو والله نعم الامر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها ، وهاته النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ، ماذا ترون كل هذه الا ظلًا تمثل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى ، رأس الحقائق ، اعني الواجب وجسامة أمره . لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل انساني مهما حقر خطارة كبرى ، فما كان من سيء فله من السوء نتيجة ابدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية ، وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته الى اسفل سافلين ، وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية ! كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفري ، كأنما قد نقش ثمة بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول في اشد اخلاص وأحد جد ، أن يخرجه للناس ويصوره لهم ، فاخرجه وصوره في صورة تلكم النار والجنة ، واي ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأي قالب صبت فيه ، فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في اي اسلوب

وأي صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها ، فاعرفوا له قدره ، ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان والف عام ، وهو الـدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به اهله من حبات افئدتهم ، ولا احسب أن امة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم ، اذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والابد ، وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة احد المارة : « من السائر ؟ » فيجيبه السائر : « لا إله الا الله » ، وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل واطراف النهار في ارواح تلك الملايين الكثيفة ، وان الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ، ونعم ما يفعلون .

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور ، واحيا به من العرب امة هامدة ، وارضاً هامدة . وهل كانت الا فئة من جوالة الاعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العـالم ، لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً ، وسع نوره الانحاء وعم ضوءه الارجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى اصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس ، واشرقت دولة الاسلام حقباً عديدة ، ودهوراً مديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة ؟ وكذلك الايمان عظيم ، وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقي في درج الفضل ، وتعريج الى ذرى المجد ، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان . ألستم ترون في حالة اولئك الاعراب ومجدهم وعصرهم ، كأنما قد وقعت

من السماء شرارة على تلك الرمال التي كأن لا يُبصَر بها فضل ، ولا يُرجى فيها خير ، فاذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ٍ ميت ، واذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارهـــا بين غرناطة ودلهي . ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس في انتظاره كالحطب ، فما هو الا ان يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا !

البطل في صورة شاعر

دانتي - شكسبير

أ

البطل في صورة إله ، والبطل في صورة نبي ، هما من ثمرات العصور الغابرة ، لا يعود بهما الزمان بعد ذلك ابداً ، وهما يدلان على سذاجة في الفكر يمحوهـا مجرد تقدم العلوم الطبيعية ، ومحال على الناس ان يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إلهاً أو ناطقاً بصوت اله ، إلا اذا كانوا عائشين في عصر خال البتـة من الاوضـاع العلمية الطبيعية . نعم لقد جاء الزمن الذي يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وابهة ، وان لم تك اقل فضلاً وحقاً ، اعني صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جـدير ان تنتجه اقدم العصور وأحدثها .

بطل ، نبي ، شاعر ... الى غير ذلك من شتى الاسماء ، نعطيها للرجل العظيم في شتى الازمـان والامكنة ، وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق ، وحسب ما برعوا فيه من فنون الفضل وابواب العلم . وعلى هذه القـاعدة يمكننا ان نعطي كثيراً من الاسماء غير ذلك ، واني لأوقن بأني لا احسب ان هنـاك رجلاً عظيـما لا يمكنه ان يكون عظيما في كل فن ، فالشاعر الذي لا يستطيع الا ان يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه الا ان ينظم قصيدة بارعة ، ولا احسبه يجيد صفة الفارس الاروع إلا اذا كان هو نفسه فارساً أروع ، ولا ولا احسب الشاعر الكبير إلا انه يجمع في نفسه بين السياسي والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وأنه قد كان يمكنه ان يكون ، بل هو بالفعل ، كل هذه ... ثم لا افهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج ناراً ، المفعم دموعـاً ، ان يكون شاعراً ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعـات ، فيقرع بها القلوب والاكباد ، لو قد ساقته الاحوال

والاسباب الى ذلك . والامر الاولي الجوهري هو ان يكون الرجل عظيماً ، وان فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن اكبر وقائعه . وقد اذكر قواد لويس الرابع عشر ، فيخيل الي أنهم كذلك شعراء ، وان في كلمات القائد « تورين » ما يماثل أقوال « ساموبل جونسون » حكمة وبلاغة ، فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لامرىء قط ان يجل ويُعظم بغيرهما. او لا تذكرون ان الشاعرين « بترارك » و« بوكاشيو » كانا يقومان باعمال سياسية فيحسنان القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون ان الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى ما لم يستطعه ، ولا نعلم اي عمل من الاعمال كان شكسبير لا يؤديه على اكمل حال لو قد اسند اليه !

ولست أنكر ان لكل امريء طبيعة خاصة واستعداداً فطرياً ، وان هنالك فروقاً في الغرائز ، ولكنّ فروق الأحوال والعلل اكثر واكبر ، وما عظماء الرجال في ذلك الامر إلا كأصاغرهم ، فانك لتتناول الطفل الممكن تصييره أيّ صانع فتعلمه حتى يصبح حداداً او نجاراً او بناء ، ومتى اصبح هذا او ذاك بقي كذلك طول عمره ، واذ كنا لا نزال كما قال « اديسون » نجد الرجل الاعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادي الألواح كأنه الهيكل المبني وهو مع ذلك خياط لا يحمل الا خيطاً وابرة يخف محمولها على النملة ، علمنا ان الامر غير متوقف على الاستعداد الطبيعي ، وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف : أيصير غازياً أم سلطاناً ام فيلسوفاً ام شاعراً ؟ انها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه الا ان يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة امامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضي به في شأن الرجل العظيم !

ان بين الشاعر وبين النبي في نظر المتأخرين فرقاً كبيراً ، ولقد كان مدلولهما في بعض اللغات القديمة واحداً . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر او نبي ، والحقيقة انه ما زال بين النبي والشاعر — لو يفقه الناس — شبه قريب ، وما برح

جوهرهما واحداً من حيث ان كليهما ينفذ ببصره الى سر الكائنات المقدس ، أو ما يسميه « غوته » السر الجلي لكل انسان ولا يكاد يراه مع ذلك انسان ، السر الالهي الكائن في كل كائن — المستقر في باطن « الظـــاهر » كما يقول « فيخته » — السر الذي مـــا جميع الظواهر من النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وافعاله الا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر ! نعم، السر الالهي في كل زمان ومكان موجود ولا ريب ، وربما اغفله النـاس في معظم الأوقات والجهات ، اذ يُحسب الكون الذي هو « فكر الله المحقق » شيئاً عادياً تافهاً هامداً ، كأنما هو شيء جامد تولى صنعه النجـار والحداد ، ولا داعي هنا للاكثار في ذلك الموضوع، ولكني اقول: ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، بل ويل لهم وأسف عليهم ، ويا بؤس الحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك!

ولكن أقول : من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان « الفاتيس » اعني الشاعر او النبي باحدى اللغـــات القديمة ، لم ينسه ولم يغفله ولكنه نفذ اليه ببصيرته ، وانما ارسله الله ليفعـــل ذلك ، وليكشف من سر الله ما غمض . هذه هي ابداً رسالته الى الناس ، أن يجلو لنا غامض السر ، ذلك السر الذي هو اليه اقرب وبه اعرف من سائر الخلق ، فاذا نسوه فقد ذكره مسوقاً الى ذكره باقوى دافع من ذات نفسه ، عائشاً فيه من حيث لم يرد ولم يشعر ، فهو ليس بتابع لمعتاد القول ، ولكنما رجل نظارة مبتدىء محقق ، فهو لا يستطيع الا ان يكون مخلصاً . ومن عاش من النـــاس وسط الظواهر ، فهو العائش في صميم الحقائق ، المجتهد في الله ، الجاد في شؤون الحياة والكائنات ولو عبث العـالم طراً، فالاخلاص اول اسباب شاعريته ونبوته ، وهكذا يشترك الشاعر والنبي في ادراك سر الله الجلي فهما من حيث ذلك واحد .

اما الفرق بينهما فذاك : وهو ان النبي قد تناول هذا السر المقدس من وجهة الخير والشر ، المحظور والمباح ، وتناوله الشاعر من وجهة الجمـال والحسن والجلال وما شاكل ، فاحدهما الهادي الى ما نفعل ، وثانيهما الدال على مـــا نعشق ، على انهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان ، لا يمكن الفصل بينهما وفصم

عروقها . ولا يخلو النبي ايضاً من تتبـع الجمال ايان كان ، والا فكيف له ان يبصّرنا ما يجب علينا اتيانه . ولقد جـاء في التوراة — وهو قول نبي — آية جديرة ان تحسب كأبدع ما نظم شاعر وهي :

« انظر الى « زهر الرياض » فانك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج ، وهو مع ذلك قد كسي من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان في ريعان سلطانه » .

أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة الى اعمق اعماق الجمـال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون ألوانه في اقشب من مطارف الامراء وآنق من حلل الملوك ، وهي بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن ، كأنها عيون الملاح ترنو اليك من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للارض ان تصوغ هذه الازهار لو لم يكن الجمال جوهرها ، رغماً من ظاهرهـا الجمد المتلبد ؟ ومن ثم قال « غوته » قولاً استنكره الكثيرون وهو : « الجمال أفضل من الخير ، والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وانما قصد الى الجمال الحق الذي يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » ، وحسبنـــا ذلك بياناً للفرق بين الشاعر والنبي .

قليل من شعراء الأعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى ، وهذا القول وأيم الله ان كان ظـــاهره الصدق فهو في الواقع انخدوعة ، اذ الحقيقة انه ليس في جميع الشعراء كامل ، وانمـــا الشعر عرق يجري في طبيعة كل امرىء لا يخلو منه فرد ، وكل انسان يجيد فهم قصيدة فهو اثناء قراءتها شاعر ، وما الفؤاد الذي يرتاع لتلاوة جحيم « دانتي » الا من طينة فؤاد ذلك الشاعر ، وان كان اقل شاعرية . ولم يك غير شكسبير بقـادر على اشتقاق قصة هاملت من تلك الحـــكاية القديمة — حكاية الشاعر « ساكسو جراماتيكاس » ولكنه ليس من انسـان الا ويستطيع ان يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال او ضعفه .

وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله حتى نصع أمره بينهم كالغرة في الفرس البهيم والأبلق وسط الدهم ، كان جديراً ان يسموه شاعراً . وكذلك شأن انتقادهم اكابر شعراء العالم ، فان من رأوه من الشعراء قد برز في مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق في سماء الخيال حتى علا النظراء ، أجمعوا على اجلاله وسموه شاعراً عاماً ، على ان مثل هذا الحكم ليس في الحقيقة الا مسألة ذوق ورأياً خاصاً ، فان في جميع الشعراء بل في جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك . وسرعان مـا ينسى الناس معظم الشعراء ، ثم لا تحسبن ان الاعاظم الافضلين منهم : امثال شكسبير وهوميروس إلا ملاقين من النسيان حظوظهم ، ولا بد من يوم يُصبح امرهم فيه نسياً منسيا .

ولسائل ان يسأل اي فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعري ? فالاجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقـــاد الالمان في ذلك الصدد ، وفيها الذي يُفهم لاول وهلة ، فمن ذلك قولهم ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ، ثم هو ينفض هذه الخاصية اعني عدم النهـــاية على كل شيء يصفه أو يصوره ، فهذا الكلام وان لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر ، اذ كان إنمـــا قيل في موضوع مبهم مثل الشعر ، ثم هو لا يخلو من بعض المعنى اذا تُؤمل وتدبر .

اما انا فاني اجد معنى جمـــاً في التعريف القديم للشعر ، وهو انه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى لهو ضرب من الغناء . وحقاً لو اضطر الانسان الى اعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم ، فاذا كان نظمك موسيقياً لا في اللفظ فقط بل في اللب والمادة ، وفي جميع الافكار والمعاني والنظام والنسق فهو شعر والا فلا ، والمعنى الموسيقي هو ما اذا خرج من ذهن نفذ الى لباب الشيء وادرك مكنون سره أعني النغمة الكامنة في جوفه ، اعني ما يستتسر في ضمير ذلك الشيء من موسيقى الائتلاف والوئام . من ذلك

الموسيقي الذي ليس الا بفضله يوجد ذاك الشيء ويكون اهلاً لأن يوجد في هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بان لباب كل شيء موسيقي ، أعني انه اذا بدا للناس بدا في منطق موسيقي ، اي بدا في صوت الغناء . واني ارى معنى الغناء عويصا عميقاً ، اذ أين ذلك الذي يستطيع ان يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان ، والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهي العمق الذي يذهب بنا الى شواطىء المجهول فيتركنا ننظر برهة في ذلك البحر !

أجل ان في جميع الكلام ، حتى في اكثره استعمالاً ، لشيئاً من النغم والغناء . وليس ثمة قرية في العالم مهما حقرت الا ولاهلها لهجة قد خُصّ بها منطقهم وكلامهم . فهذه اللهجة هي النغمة التي يغني بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم ان اللهجة ضرب من النشيد والترنم ، وما من قوم الا ولهم لهجة خُصوا بها ، وان كانوا لا يفطنون الا للهجات غيرهم . ثم اذكروا ايضاً ان كل كلام صادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوباً موسيقياً ، بل ارى كلام الغضبان صوتاً من الغناء . وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء ، بل يظهر لي ان الغناء هو لبابنا الجوهري ، وان كل ما فينا بعد ذلك اللباب او الغناء فانما هو لفائف وقشور وأغلفة !

نعم ، الغناء هو اول عناصرنا وعناصر جميع الاشياء . ولقد كانت اليونان تقول في خرافاتها ان للفلك في مسيره موسيقى ، ولعل ذلك كان دليلاً على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطني ونظامها الداخلي ، وان روح اصواتها وتعبيراتها لم يك الا غناء وموسيقى ، وعلى ذلك فسنسمي الشعر فكراً موسيقياً ، والشاعر هو ذاك الذي يفكر على هذه الصورة ، وأساس ذلك هو في الحقيقة قوة الذهن ، وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً . انظر الى صميم الاشياء يكن نظرُك موسيقياً فان قلب الطبيعه هو الموسيقى لو امكنك ان تنفذ اليه .

ويظهر لي ان الشاعر – كاشف اسرار الوجود بنغماته – ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جداً عن منزلة النبي ، اذ يرون عمله تافهاً ووظيفته صغيرة ،

فكان البطل عندهم اولاً الهـاً ثم نبياً ثم شاعراً . أليس في ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم في انظارنا على توالي الزمن ، فاننا نراه اولاً الهاً ذا وحي الهي ثم لا نرى فيه بعد ذلك الا ناظم اشعار جميلة ورجلاً نابغة وبارعاً وما اشبه ! هذا هو الظاهر لي ، ولكني احمل نفسي على الاعتقاد بان الامر خلاف ذلك ، شعوراً مني بأنه لا يزال في بني آدم الاجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة في أية هيئة بدت واي اسم أعطيت .

وقد أعلم انه اذا كنا لا نرى في الرجل العظيم الهاً ولا نبياً ، فما ذلك ان رأينا في الله وفي ينبوع الضياء الاقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الاوفر الاوفى ، قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لانه قد سما وطاب ، وجدير بكم ان تعوا ذلك وتذكروه ولا انكر ان الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور ، قد احدثت ضرراً عظيماً في هذا الأمر الاجل الاعلى ، باضعافها في نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى اصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للاجلال ، وهذه وابيكم ألأم العقائد وأنكاها واوخمها مغبة ؛ ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر امورها وأشيائها .

ومع كل ذلك فانظروا الى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع . هذا هو ظاهر نابليون ، ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الانبياء وجبابرة الملوك ، ثم انظروا الى الشاعر بارنز كيف كان اذا اطـّرد به مجرى الحديث ، استوقف الاميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه ، فلم يبق منهم الا من شعر بان لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروها لأحد غيره ، وانه هكذا تكون الرجال وإلا فلا ! فترون من ذلك انه قد يكمن في قلوب هؤلاء القوم وان لم تصرح به ألسنتهم ، ويُلمح من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعاً جلياً ، انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لا يجدونها لسائر الرجال في ذلك الفلاح الكثيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التي تستوكف الاعين تارة بهوامر الدموع ، وطوراً تقوّم بالضحك الشديد حنايا الضلوع . اولا نشعر نحن ايضاً بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس

الناس من ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل – وسيفعل الله ذلك يوماً ما – نعم لو ابدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر الكاذبة ، فضيلة الايمان بالجواهر الصادقة ، اذن فاي منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز في نفوسنا وأي محبة واكبار وتمجيد ؟

وعلى كل ذلك ألا ترون ان لدينا شاعرين هما وان لم ينالا منزلة الألوهية فقد نالا في هذه العصور ، على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك ، منزلة التقديس والولاية ؟ نعم ان شكسبير ودانتي لوليان من اولياء الشعر حرام على كل انسان ان ينال مقامهما الشريف بأدنى اساءة ، وهذه نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفطرة ، رغماً مما قام في طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية ، وكلاهما قائم في فضاء الدهر كراهب في فضاء القفر ، له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة ، غريب في جيله وقومه .

غرّبته العلى على كثرة الأهل فاضحى من الاقربين غريبا

لا مثيل لهما في سائر الشعراء تباركا عن الانداد والاقران ، يحفهما في نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال ، فهما مقدسان وان لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس ! وهكذا ترون كيف ان مـا أودع نفوس البشر من فطرة اجلال البطل ، ما يزال يحيى في قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر ، وسنلقي نظرة في تاريخ هذين البطلين .

لقد ألفت عدة تراجم لدانتي وجملة حواش وشروح لكتابه ، ولكنها على العموم قليلة الثمرة ، اما تاريخ حياته فقلما يُعرف عنه ، وقد فقد معظمه حتى لا يمكن تداركه . لم يك دانتي في زمانه الا رجلاً صغير الشأن شريداً طريداً مكسور الفؤاد ، مهيض الجناح ، قليلاً اهتمام الناس به مدة حياته ، واسوأ من ذلك ان معظم انباء ذاك الحول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على مر خمسة قرون وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح ، فكتابه هو جل ما ما نعرفه عنه ، كتابه وصورته المنسوبة الى المصور « جيوتو » التي إما نظرت

اليها لم يسعك الا الشهادة لصانعها بالاحسان والاجادة أياً كان ، اما انا فأرى ذلك الوجه أمسّ الوجوه لكبدي وأقرعها لأحشائي ، وأرى آية الحزن والألم وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البـــادي في رقعة المصور ، منفرداً وحيداً لا يحفه من الاثاث والمتاع الا ما يرفرف عليه من روح الوحشة ، أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ دانتي !

وظني انه اشجى وجه صوّر من عالم الحقيقة ، وجه محزن مفتت للفؤاد ، أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان ، لا كما تكون في الرجل بل كما تكون في الطفل ، ولكن قد خالط هذه المعاني الرقيقة معاني أقسى وأمر ، معاني وحشة وسخط وألم في تجلد ، وتعزز ويأس في رفعـة وكبرياء : روح رقيقة هواء قد لبست آية اليأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر اليك من وراء سجن من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء ، لا كازدراء الأنس بل كازدراء الآلهة ، للشيء الذي يذيب حشاه ويأكل فؤاده ، كأن ذلك الشيء هو احقر ما يكون وأدنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب .

انما هو وجه رجل منابذ للدنيا ، مناصب لها ، معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقـــاً بضاعتها ابداً نافقة ، ورحى ما تبرح العمر دائرة ، وهل هي إلا محبة تحولت حنقـــاً – لا يفتر ولا يستريح – متمهلا مطرداً ساكتـــاً كحنق إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام ، كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ؟ هذا هو دانتي ، هذا هو صوت عشرة قرون خرس ، هذا هو الرجل الذي صدح لنا صوتاً عن الجحيم والجنة !

وارى هناك مطابقة بين ما نعرفه عن حياة دانتي وبين صورته وكتابه : ولد هذا الشـاعر بمدينة فلورنس من أعمـال ايطاليا في عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على احسن نظام كان اذ ذاك ، وكان فيما تلقـــاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتيني ، وقدم راسخة في بعض أبواب العلم ، ولم يدع دانتي

فيما نظن شيئاً يُتعلم حتى حصـله . وكان ذا فهم صفي مهذب ، وذكاء مشتعل ، وعقل راجح ، وكان قـد اتقن من العلم ما جاء في الازمان القريبة من عصره ، فأما ما بعُد عنه في أقاصي الغابر ، فلم يجد اليه سبيلاً لخلـو عصره من المطبوعـات ومن أسبـاب التواصل . وسلك في حياته المـذاهب المعتادة ، فصحب جيش بلاده في حربين، وذهب مرة سفيراً الى بعض الولايات، وأصبـح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو في الخامسة والثلاثين من عمره .

وكان قد عرف في طفولته صبية حسناء ، في مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها أحياناً ، وكانت تمتد بينهما صلات على بعد ، وكلكم يعرف ما كان من أمره معها ، وما كان من الشتات والفرقة ، ومن اقترانها برجـل غيره ، ووفاتها بعد ذلك بقليـل . وهي تشغل جزءاً عظيمـاً من كتاب دانتي ومن حياته ايضاً . ويظهر لي أنه لم يحبب قط غيرها انساناً ، وكان حباً من صميم الأحشاء ، وان فؤاده ما برح يناجيها والقبر ما بينه وبينها ، وينزع اليها وهي مع الله ، ماتت وزوّج من امرأة اخرى ولكنه لم يسعد ، وشتان ما بينه وبين السعادة !

ولسنا متوجعين لدانتي آسفين لما أصابه ، فانه لولا تلك المصائب لمـا كان دانتي الا أحد قضاة بلده ، ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ، ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها ، والعشرة القرون التـالية المصيغة (لانـه سيتم طبعاً بعد تاريخ وفـاه دانتي عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة – كتاب دانتي – وتخسر لذيذ مسموعها ! نعم لا اسف ولا حرقة ولا حسرة ، وكيف وإنما أراد الله لذلك الشاعر حيـاة اشرف واسمى ، ولعلنا لا نعرف أيها الاسعد الأهنأ ، عيشته تلك المرة الاليمة أم عيشاً هادئاً عادياً ، والسعادة والشقاء سر من الأسرار يُعنى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل !

وبينما دانتي عائش في وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنـة أدت الى نفيه وسائر حزبه ، فكـُتب عليه منـــذ ذاك الشقاء والويل ، وانتُزعت املاكه واصبح وهو :

ناء عن الاهل صفر الكف منفرد كالسيف عري متناه عن الخلل

وكان يشعر وفي حشاه جمرة تتوقد بأن ما لقيه لمن أفحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع الى وطنـــه وثروته ، ولم يدع وسيلة الا اتخذها حتى السلاح ، ولكن عبثاً حاول ، وما زاده اجتهاده الا خطباً على خطب ، ومحنة فوق محنة ، فاهدر دمه ونودي متى ُقبض عليه أعدم احراقاً . هكذا وُجد في بعض الآثار وألفي ايضاً رسالة تاريخها واقع بعد هـــذه الحوادث بعدة سنـــين ، رداً من دانتي على اقتراح قدمه اليه قضاة بلده يعدونه العفو والعودة الى منصبه وأملاكه اذا هو قبل ان يقدم معذرة وغرامة ، فأجاب في عزة وكبرياء :

« اذا انا لم ارجع بريء الساحة موفور الكرامة فلا رجعت ابداً ! . . »

وكذلك راح دانتي في هذه الارض الرحبة الفضـــاء بلا دار ، ينتقل من مضيف الى مضيف ومن محل الى محل ، منطبقاً عليه قوله : « آه ما أوعر المسلك وما اخشن الطريق ! »

ولم يك دانتي بالجليس الممتع ، وانى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال ؟ كلا ، ولا كان دانتي صاحب الطبع الحاد ، والفؤاد الجاد ، والاحزان والاشجان ، بجدير ان يلهي الغير بفكاهته ويضحكهم بنـادرته ، وقد روى عنه بترارك انه لما كان في بلاط الامير « كانديلا سكالا » وقد لامه ذلك الامير على اطراقه واكتئابه وصمته ، اجابه بجواب خشن ، وكان الامير اذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فاقبل على دانتي يقول له :

« أليس عجيباً ان نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل في مقاله متاعاً ولذة ، وانت على مـــا بك من عقل وحكمة تطوي اليوم فاليوم والشهر

فالشهر ، مطرقاً صامتاً لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ »

فقال دانتي : « لاعجب ، او لا تذكر المثل : « ان الطيور على اشكالها تقع ! »

فمثل هذا الرجل الكبير ، صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجعات، والصمت والاطراق ، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك ، وكذلك ما زالت الأيام بدانتي حتى افهمته انه اصبح ولا مأوى له على ظهر الارض ، ولا ملاذ ولا ملجأ ولا امل ، وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب في انحائها شريداً .

كأنما هو في حـــل ومرتحل موكل بفضاء الارض يذرعه

وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له او حشا يخفق وجداً عليه ، وانه لا خل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء !

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت ، جنح بالطبع الى الآخرة ، وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الابدي ، ذلك العـالم الحق الذي ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذباً يرفرف عليه ، وناجته نفسه : امـا وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الابد ، واما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء ، وماذا العالم والحياة ؟ تلك لا شيء !

وكذلك اذا اصبح دانتي في الدنيا بلا مأوى ، جعل مأواه في عالم الآخرة الرائع الهائل ، وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح افكاره ، والآخرة سواء حسبها النـاس شيئاً معنوياً او شيئاً حسياً فانها ما برحت اهم أمورهم ، ولكن دانتي كان يعتقد انهـا حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور ، فلم يشك دانتي في انه سيبصر طبقـات الجحيم وينظر بها بركة « ماليبولج » كما لا يشك احدكم في انه يبصر القسطنطينية لو اصبح على شاطىء البوسفور ، فلما افعم فؤاد دانتي من هذه الافكار والخواطر ، وطال عليه تأملهـا في سكوت وتدبرها في صمت ، طفح بهـا اناء صدره وفاض ، فبرزت للعالم في ذلك الشعر الباهر

والغنـاء السـاحر : كتابه المسمى « القصة المقدسة » اشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من اقوى اسباب العزاء لدانتي ، بل من اعظم دواعي الفخر ، انه استطاع ان يخرج ذلك الكتاب الأجل في منفاه ومحنته ، وانه لم يك في طـاقة « فلورنس » ولا في قـدرة اي رجل او رجال ان يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى ، او يعينوه عليها ، وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ .

وكان ذلك البطل الضخم يقول في شدة بأسائه وازمة نكرائه : إذا أمضيت عزمك ظفرت ، كل من سار على الدرب وصل . وكانت مؤونة الكتابة كبيرة عليه جداً ، وكان نصبها شاقاً حتى قال : « هذا الكتاب الذي تركني عدة اعوام في هزال » .

أجل لقد احرز دانتي قصبات السبق بالكد والالم لا بالدعـة والعبث ، بل بالجد العلقمي والجهد الناصب . كيف لا وانمـا بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه ، وكذلك معظم الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها ، والكتاب مودع سيرته جميعها ، وكانت وفاته بعد ان اكمله بمدة يسيرة ولما يطعن في السن ، وانما قضى في السادسة والخمسين من عمره ضحية الحزن والكمد ، هكذا يقال . وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته في بلدة « رافينا » ، ولما مر على وفاته قرن طلب ابناء وطنه الجثة من أهالي « رافينا » فأبوا كل الاباء . وعلى قبر دانتي هذه الآية :

« هانـذا — دانتي — مدفون بعيداً عن وطني ومسقط رأسي ! »

قلت ان قصيدة دانتي غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزياً عميقاً وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال « كولريج » في بعض كتـاباته ان كل جملة موسيقية التركيب يجري في اثناء لفظها حلو النغم فلا بد من ان تكون ذات معنى جليل شريف ، لأنه مازال ابداً بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ، إلفة وشبه . والشعر القديم الجيد ، شعر هوميروس مثلاً ، كله غناء . وان كل شعر حر غناء . وان كل شعر لا يصلح ان يتغنى به فمـا هو بشعر ، ولكنـه قطعة نثر قصلت في

لفظ طنان ، فيه عقوق لقواعد النحو ، وأذى ومصاب على القراء .

وإذا كان في رأس احد الناس خاطر فما باله لا يبديه في عبارة سهلة قريبة ، اعني في جملة نثرية ? بل ما باله لا يستريح او يخرجه ملتوياً معقداً تطن به القافية . اما انه لا حق له قط في النظم والغناء بالقوافي حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد، فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية افكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً . اذن فله علينا ان ندعوه شاعراً ، ونصغي اليه على انه غريد الناطقين وهزار اللافظين . والادعياء في ذلك كثيرون ، ولذلك كانت قراءة النظم على القارىء الأريب عملاً شاقاً إن لم نقل عملاً لا يطاق !

وما اقبح النظم الذي لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه ، الذي كان اولى له ان يُلقي الينا معناه في وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . واني انصح الى كل من أمكنه ان يقول افكاره ان لا يغنيها ، وان يفهم انه لا مجال في الاحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً . وكما ان الغناء الحر يلذنا ويطربنا ، فكذلك الكاذب منه يؤلمنا ويوجعنا ، ولا يقع منا الا موقع الضوضاء المقوتة المنكرة ولا نراه الا كطنين الذباب او دوي النحل .

وحسب دانتي فخراً ان اقول ان قصته هي غناء حسن، بل اني لأحس الوزن الموسيقي يطّرد في جميع لفظها فكأنها نشيد من الاناشيد ، ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلاً في ذلك ، بل ارى حركة اللسان في تلاوتها تجري على ميزان فكأنها ضرب من الرقص . ولكن السبب الاكبر في ذلك هو خروجها من اعماق الفؤاد ، فجوهرها ومادتها من الموسيقى ، وهي بفضل عمقها وحرارتها واخلاصها موسيقية ، وانك ما تعمقت قط الا اصبت الموسيقى في كل شيء ، ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب ، وهذا ايضاً من جنس الموسيقى وكأنما اركانها الثلاثة : «الجحيم والمطهر والجنة» في تواجهها الاركان الثلاثة لقصر مشيد ، وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آية الروع

والجلال والهيبة . هذا هو العـــالم الذي خلقه دانتي وملأه بالارواح بين منعّم ومعذّب . هذا عالم الارواح خلقه دانتي ! وهي اشد اشعار الدنيـا اخلاصاً ، فالاخلاص هنا ايضاً مقياس الفضل ، ولقد خرجت من لباب لبه فهي ما تزال تبلغ لباب ألبابنا !

افرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبـــة الى كل نفس

وكان اهل فيرونا اذا بصروا به في احدى الطرقات قالوا : « ها هو الرجل الذي كان في جهنم ! » بـلى وخالق الخلق لقـــد كان في جهـنم ، في جحيم الحزن والكربة والبـلاء . والقصص التي تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها الا الشقاء والبث واللوعة ،او ليس الفكر والعمل الحر اياً كان والفضيلة العليا – أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نتجت من الزوبعة السوداء – أليست مجهوداً صادقاً كمجهود الاسير اذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراووق الطباع !

وقد هذبتك الحادثات وربمـا صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك

بل ليخيل الي أن شعر دانــتي قد سبك في تنور روحه ، وبودقة قلبه ، ألم يتركه « مهزولا » عدة سنين ؟ وأن الدقة لتعتور قصته جميعها ، لم تغادر منها فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك اصدق ما يكون وأجلى وانصع ، وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من اجزائهـا في موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله ، وهل هي الا روح دانتي تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون في ابدع قوالب الشعر واعجب صوره . وتالله ما هو بالعمل السهل ، وانما أمر عظيم وخطب جلل ، ولكنه أمر نفذ وعَمل اكمل .

ولعل الحدة هي اكبر مميزات دانتي ، فما هو بالرجـــل الواسع الصدر السمح النفس ، ولكنه رجـــل ضيق العطن متحزب ، وبعض هذا راجع الى طبيعة العصر ، وبعضـــه الى طبيعة الرجـل ، فترى ان ملكات دانتي وقواه الذهنية قد تجمعت وتكاثفت حتى اصبحت حـــدة نارية وشعوراً عميقاً ، فهو ينفذ في جسم كل شيء حتى يرسب في قرارته . ولست والله اعرف في الوجود شيئاً له مثل هذه الحدة . انظروا الى تصويره الاشيـــاء تروا ان له اقوى قوة

بصرية ، فاذا نظر الى الشيء عرف حقيقته فأداها وحدها ، وتذكرون صفته لقاعة « دايت » بالجحيم اذ قال : « ذروة حمراء حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج في ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما ابينه وما اوضحه لاول وهلة ثم الى الابد ! وهذا عنوان الرجل ، فان في دانتي لأخصر ايجاز ، واقتضاب في دقة وإحكام ، وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمي ، ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفي اشارته وليس بالهذر طوّلت خطبه

ثم ما أرشق تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها ، حتى ليخيل الي أنه يحز في الشيء بقلم من نار ، فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل « انه كان كالشراع المحطم عموده بغتة فهوى » ويذكر احد المعذبين فيقول « بوجه مشوي » ثم انظروا ما ذكره من « الثلج الناري » المتساقط على المعذبين : « ثلج ناري بلا ريح بطيء مصمم دائب لا يني ولا ينتهي » ولا احسب هذا التصوير الا قطعة من صميم عقل الرجل، وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطلياني الحاد السريع الناري الصامت الشديد القوي ، وحركاته الوشيكة المقتضبة ، وثوراته الساكتة الكظمة .

لأن التصوير وان لم يكن إلا من القوى الظاهرية السطحية ، ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس ، وعنوان على الرجل جميعه . اوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلا فاضلا ذا قيمة ، فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فؤاده حب يلقيه على ذاك الشيء ، فيكون سبباً الى التعمق فيه والعام النظر ، لو لم يكن ذا جد واخلاص .

والرجل العديم الفضل لا يستطيع ان يصف لك شيئاً ، فانه بضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ولا يقف الا عند الأكاذيب والأباطيل ، او لا يمكننا القول بأن آلة الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الاشياء ؟ استبانتها بالامتزاج بها الناشيء عن محبتها والانجذاب نحوها ، وكذلك الطبيعة لا تكشف

أسرارها الا للولوع بها الذي كله اخلاص لها وصبابة اليها . وقدماً كان الحب اول هاد الى خبايا الحقائق ، الحب الصادق الصاحي الراكز على اساس العقل والحكمة ، لا الكاذب الثمل الطائر باجنحة الخديعة والطيش ، لان الحب الصادق يستدعي رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة للدخائل ، ولن ترى الرجل البليد الاحساس الكليل الحب إلا محجوباً عن اسرار الامور لا يلابس منهـا سوى القشور . وهذا هو الواقع حتى في المسائل العملية ، فالرجل الذكي الأريب هو من ابصر من الامر المراد اتيانه النقطة الجوهرية فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذي كأنه وهج الحريق في الليل البهيم ، هو كل ما يمتـاز به وصف دانتي وتصويره ، بل تراه ايضاً شريفاً جليلاً كيفما قلبته ومن اي ناحية اتيته ، ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا الى ما ورد بالقصة من حديث الغادة « فرانسسكا » وعاشقهـا ، ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد ، تجدوه كأنه منسوج من ألوان قزح على زقعة من السواد الأبدي ، أو كأنه صوت ناي جم النواح مبحوح الانين يناجي حبات القلوب بادياً فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى ، وأشجى ما فيه ان الحبيبين يلقيـان عذاب الجحيم معاً ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوة في الشقاء وعزاء في الضراء !

لقد كان الشاعر صديق والد « فرنسسكا » هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتي صبية بريئة من كل عيب ، حسناء سمحـاء ، ولكنها إذ اذنبت في في حياتها أبى دانتي الا عدل الجزاء فجعلها في جحيمه بحيث تعلمون ، ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها . يا لها رحمة في قسوة وعفو في شدة ، وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن ادراكها دانتي .

وما أخبل رأي القائلين بان كتاب دانتي لم يك الا هجاء فاحشاً اراد ان يسيء به الى من اعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم ، وأحسب لو أن رجلاً حمل في قلبه حنان الام الرؤوم ورأفتها فذاك هو دانتي ، ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف

الرحمة ايضاً ، والذي تخاله منه رحمة هو في الحقيقة جبن او تصنع للرحمة قصد الافتخار ، وما اعرف في العالم رجلاً ارحم من دانتي ولا أكثر حباً . وان بين جنبيه لحشاً خفاقاً ووجداً واشفاقاً ، وفؤاداً ملتاعاً وولهاً نزاعا ، كحنين النايات والعيدان ليناً ليناً ، او كمهجة الطفل . ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ ، وعثرة الجد ، وجور القضاء ، ولؤم الزمن ، وصبابة وحنين الى حبيبته « بياتريس » ، ولقاؤهما في الجنة ، ونظره في عينيها النجلاوين تشرقان بشعاع النور المقدس ، وقربه منها ، من الغادة التي طهرتها حياض الفردوس وصفاء الابدية ... كل هذا شبيه عندي بأغاني الملائكة ، ولعله اصفى ما نطق به امرؤ في هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وارى هذا الرجل الحاد حاداً في كل شيء فلقد نفذ بحدته الى كل جوهر ولب ، وما عمّق نظره في التصوير وعمّق نظره في البرهان والدليل الا ما يعتور جميع ملكاته من الحدة . وهو فوق كل ذلك كبير من حيث الصلاح والتقى ، وذاك اساسه وعنصره . فاحتقاره للدنيئة عظيم ، واسفه على اولي البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده . وهل الاسف والاحتقار الا حب قلب عن جهته وأحيل عن طبيعته؟ ويقول في كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم في الجحيم :

« لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم ثم نضرب صفحاً ! »

يا له احتقار في ترفع ، ونفرة في سكوت ، وانفة في صمت واعراض . ثم قوله يذكر فئة من المعذبين :

« لقد انقطع املهم حتى من الموت » .

ليخيل الي ان دانتي يعرّض بنفسه في هذه الجملة ، فلقد أتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة حتى راحة الموت ، ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد ذلك الجهد والمصاب والكمد راحة القبر ، وان القضاء نفسه لا يمكنه ان يحرمه هذه النعمة ! مثل هذه الكلمات كانت في ذلك الرجل ، وأراه في الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين

معدوم النظير .

ولا اوافق قوماً يفضلون « الجحيم » في قصة دانتي على قسميها الآخرين ، ومرجع هذا التفضيل هو في ظني « بيرونية [1] » في الذوق والمشرب ، ولعل القسم الثاني « المطهر » أبرع من « الجحيم » وأسمى . أجل ، ما اشرف ذلك الجبل – جبل المطهر – فهو رمز لاشرف أفكار هذا العصر ، رمز لبراءة الانسان بالتوبة ، واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون ، والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديراً أن يكون في التوبة منجاة المذنب وبراءة ؟ والتوبة أجلّ أعمال النصرانية . ثم ما أبدع ما وصفها دانتي وأبرع إذ قال انه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق امواه تترقرق ، ولمع أمواج تهتز وتخفق ، في بريق الصباح ولمع الضحى ، فهذه صورة تدل على تحسن الحال ، وهذا ولا شك فجر الامل والرجاء قد لاح ، والأمل حي لا يموت ، واشد ما يكون في الحزن كالشهاب اسطع ما يكون في فحمة الديجور .

كالكوكب الدري أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلى

وهناك جبل يقوم في سفحه ويصعد في أوعاره المذنبون التائبون ، وقمة الجبل في عليين دونها باب الجنة ، وما تني انفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد الى عرش الله . ويقولون لدانتي حين يرونه : « استغفر لنا ربك » : ولا يأتلون في ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء ، وقد أدنى الكلال خطاهم ، وأنضى الكد أبدانهم ، واسنوا وشاخوا في ذلك الصعود ولما يبلغوا القمة ، ولكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها ، وعندها باب الفردوس ، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين ، وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع وترنح الجبل طرباً ورجف سروراً ، وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا في نظري تصوير شريف لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الآخرين ،

---

[1]) نسبة الى بيرون ، يراد طريقة بيرون وهي كراهية العالم .

واري « الفردوس » أحد أركانها موسيقياً صامتا وغناء ساكتاً ، وهي المكفرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ، ومن الثلاثة يتـألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى ، وهو شيء جليل حر الجوهر طول الدهر ، ولعله لم يتمثل في نفس انسان كما تمثل في نفس دانتي اذ سطعت حقيقته في ضميره ، ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحي في الحجر . وما دانتي الا نبي ارسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر ، وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه في مبدأ القصة ، من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفي ، حتى لنجدنا بعد سبعة ابيات او ثمانية وسط عالم الارواح ، ونسير فيه كأنما نسير بين اشياء ملموسة لا ريب فيها ! وكذلك كانت في نظر دانتي . وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سبيلا الى حياة اخرى خير وابقى ، ولم تكن الدنيا في نظر دانتي بـأقل غرابـة من الآخرة . ولا الآخرة بأقل حقاً من الدنيا . واذا كانت الآخرة عنده هي عالم ارواح فالدنيا كذلك في نظره عالم أرواح . أو ليس في كل امرىء روح ؟ نعم لقد كان ذلك بيناً له جلياً ، ولقد كان يعتقده وينظره فهو من اجل ذلك شاعره ، والاخلاص كما قلت اكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتي وجنته ومطهره انما هي في الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته في الكون . ولعل ناقداً يقوم فيقول لنا ما قصة دانتي إلا العوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث ، كلا والله انما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية ، وهي تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتي من ان الخير والشر هما قطبـا هذا الوجود اللذين عليهما مدار كل شيء ، وان الخـلاف بينهما ليس هو ان الخير افضل من الشر : مذهب الماديين الذين يرجعون في كل امر الى الحساب والوزن والمكسب والخسارة - بل ان الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب ، وان الشر هـو الخبيث المحرم اتيانـه تحريماً كلياً لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل ، فاحدهما للآخر كالحياة للموت ، كالجنة للنار . نعم ما شعر دانتي الا رمز لذلك ، ورمز العدل السرمدي والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت في تلك القرون ، رمز ولكنها في نظر دانتي ونظر تلك الاجيال عين الحقيقة التي لا ريب

فيها ولا شك ولا نزاع ، التي يعتقدها الناس من صميم أفئدتهم .

ولقد قلنا قبل ان الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والاقاصيص المنظمة ، ولا احسب ان اهل عصرنا هـذا يحسبون قصة دانتي مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن اساؤوا اليه ومجرد عبث وصنعة ، فاذا رأى ذلك اهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية انها البيان الحق لما كان يجيش في صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه ، بيان كان في وقته حقاً صادقاً ، وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية ، تجدوا فرقاً كبيراً . لم تكن الوثنية الا تمثيلا لظواهر الكون وافعال الطبيعة ولحياة الانسان وطبائع الاشياء وتقلباتها وتصرفات شؤونها واختلاطها في هذه الدنيا ، واما النصرانية فتمثل قانون الواجب الانساني ، قانون الاخلاق والآداب ، فكانت احداهما للطبيعة الحسية بياناً عاجزاً ساذجاً لأفكار الانسان الاولية اذ كان أهم الفضائل هي الشجاعة ، الاستعلاء على الخوف ، ولم تكن الاخرى للعالم الحسي بل للعالم الاخلاقي ، فان لم يكن من الفرق سوى ذلك فأي فضـل بيّن وارتقاء عظيم .

وهكذا وجـدت القرون العشرة الصامتة التي سبقت عصر دانتي صوتها في ذلك الشاعر الكبير ولسانهـا ، و « القصة المقدسة » من يراع دانتي ، ولكنها في الحقيقة إملاء عشرة قرون نصرانية ، وانما اتمها دانتي واكملها وتلك ما زالت الحال . وكذلك الحداد بآلاته وادواته وصنعته وحذقه ، قلّ والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته ، وانمـا معظم الفضل لجميع من سلف من واضعي الصنعة ومبتدعي اساليبها وأبوابهـا ، وكلهم قد صنع معه ما صنع ، وتلك هي الحال في كل امر ، فدانتي هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطوره يلذ آذاننا صوت افكار تلك العصور كما لو كان اعذب النغم وأشهى الغناء ، ويرن في مسامعنا موسيقياً ابدياً مـا دعا الله داع ، وما ترنم في الايك مسجاع ، وما افكاره تلك السامية الجميلة الرائعة الا ثمرة ما فكر فيه جميع الصالحين من قبله . أو لو فضل والله أولئك ، وهل خلا هو من الفضل ؟ أما انه

او لم ينطق لبقي الطيب الكثير من تلكم الافكار كامناً مكتوماً ، لا اقول ميتاً ، بل حياً صامتاً .

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزي هو غناء روح من أكبر الأرواح ، وتمثيل حقيقة من اكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتي شيء خلاف الوثنية الشمالية ، وخلاف النصرانية التي هدمها الاسلام بقرى الشام ، وانما هي أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوباً لا يبليه الدهر .

ابقى على الزمن الباقي من الزمن ... أليس خليقاً بنا ان نفرح بذلك الكتاب ونغتبط ؟ وظني به سيبقى الآلاف المؤلفة من السنين ، لان فرقاً عظيماً بين ما خرج من أعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج اجزائها ، فالخارجي هو سحابة صيف ، ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء ، وتزول كالظـــلال بزوال الاهواء والاميـــال ، وما تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الاحوال ، وأما الداخلي فانه سواء اليوم وفي غد وآخر الابد ، وما يزال ذوو النفوس الحرة والقلوب البارة في كل زمـــان ومكان يجدون في دانتي هذا اخاً وصديقاً وخلاً شفيقاً لما ، بين روحه وأرواحهم من النسب ، وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

أو لم يكن نسب هناك فماؤنا ماء تحـدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعَباً متفرعة من أصل واحد ، أصبح الألم الذي يقدح في نفسه يقدح كذلك في نفوسهم ، والأمل الذي يدب في روحه يدب ايضاً في أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالناي والعيـــدان إذا حن وهتف خفقت جواباً وأنّت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح في منفاه بسانت هلينا الى قصيد هوميروس ، ويُسرّ جداً بما فيه من الحق والصدق ، وبين القارىء والمقروء كما تعلمون عدد من السنين . وأقوال انبياء الله الاقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها ، وصدور الكلام من اعمـــاق الروح هو سر خلوده الوحيد . ودانتي في عمق الاخلاص كأحد هؤلاء الانبيـــاء ، وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب ، ولا عجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون

أخلد شيء أخرجته أوروبا، لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شيء . وكل ما بالقارة الاوروبية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومبـــانٍ مشيدة وثيقة ، فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهي قصيرة العمر في جانب غناءٍ قلبي كهذا ، وظني أنه سيبقى حبيباً الى القلوب شهياً الى النفوس، وقد زالت جميع هذه الاشياء عن أوضاعها ، ولبست هيئات محدثة ، وتألفت في تراكيب جديدة ، وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها . وان ما صنعت أوروبا ربـــما أتت لكثير جداً : مدن كبيرة ودول مجيدة ، وعقائد وشرائع ، وطوائف آراء واعمال ، ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتي إلا شيئاً قليلا . وذلكم هوميروس حي للآن يخاطبكم وجهاً لوجه ، ولكن أين دولة اليونان ؟ بادت من القرون العديــــدة وذهبت وزالت ، ولم يبق منها الا كثبان انقاض ، إن تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكرت جواباً . حلم كان ومضى ، دولة اصبحت في الثرى ، كأنها رفات اميرها أغا ممنون ! وكذلك قد كانت اليونان ، وهي اليوم لا تكون إلا ما نطقت !

وماذا نقول للقوم السائلين : « مـــا فوائد دانتي ! » أنه سؤال غريب لا يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بان العقل الذي أمكنه أن ينغمس في عنصر النغم والغناء ثم يغني لنا من ثمـة غناء حسناً ، جدير ان يكون قد اثر اكبر الأثر في صميم الحياة وقلب الوجود . وانه ما زال طول الدهر ينبوع الغذاء لما في النفوس من جذور كل خيرٍ ومكرمة ، يغذيها بطريقة لا يهتدي الى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقـــات الشمع والبترول ؟ والخلاصة ان دانتي أجلّ من ان تقدّر قيمته !

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم في الدنيا ، بما نراه نحن انه تأثيرهم . تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ! ليصنع كل امرىء صنعه فما ثمرته الا حسب عناية غيره . وسيثمر ثمرته وليس يهمنـــا أخرجت أعماله ترفل في حلة الملك والدولة ، وترن من ضجيج الحروب وصدى

الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التي هي جرائد مصفاة . أم خرجت عارية من كل هذه — خفية صامتة — نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هي الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة إلا ما أحسن ، واذا كانت أعمال الملك او الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فانها كالهباء ، وما ذلك الملك إلا اكذوبة وباطل وغرض هالك وسقط متاع ، مهما احدثت أعماله في الجو من الضجة والجلبة ، ومهما فلّل من مضارب السيوف وادار من أقداح الحتوف . ومهما قبض من الآجال والأموال ، وملك من أعنة الرجال والأحوال . هذا الملك في الحقيقة لم يكن . فلتكبروا معي دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ؟ لا يُريان بالحس ولا يُدركان باللمس ، وهما مع ذلك انفع من الصراخ واجدى ، وخير من الضجة وأبقى .

●

وكما ان الله أرسل دانتي ليصور لنا في أشجى الغناء والنغم ، ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة ، فكذلك ارسل شكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت اذ ذاك ، وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروءة ، وشتى الاهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والاساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأي . وكما اننا نبصر في هوميروس يونان القديمة ، فذلك سيكون شكسبير ودانتي بعد آلاف السنين المعرض الواضح لاوروبا الحديثة ، تتجلى فيه دينية ودنيوية . نعم لئن يكُ دانتي أدى الينا العقيدة او الروح ، فقد اعطانا شكسبير العمل او البدن ، وكأن الله أبى إلا ان نعطى البدن ايضاً فاعطاناه على لسان شكسبير . وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى ، تلك الحياة الشريفة العالية ، حد الكمال وآذنت بالاضمحلال السريع او البطيء كما نراها الآن في كل مكان ، ارسل شكسبير بعينه البصيرة وصوته المطرب الرنان لينظر تلك الحياة ، وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم في الشجر وغرد البلبل في القمر . رجلان كفؤان : دانتي عميق حـــاد فائر كأنه مايجوف الارض من النار ، وشكسبير واسع هادىء بعيد مرمى البصر قصيّ مدى النظر كأنه الشمس نور الارض

الظاهري . احدهما ثمرة ايطاليا ، والثاني بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقت الصدفة الينا ذلك الرجل . وظني ان شكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس ، بحيث انه او لم يخرج من قريته بسبب مـا أتى من سرقة الغزلان ، لكان له في عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما ، وكان قد عاش ومات ولم تُفتح اغلاق خزائنه ، ولم تُكشف اسرار دفائنه ، فحُرم العالم اكبر شعرائه قاطبة . نعم لولا تشرده عن وطنه لذاك الحادث ، لاكتفى بالغـابات والسموات والريف والعيش القروي . ولكن إن كان شكسبير هذا قد جاءنا عفواً ، ألم يجيء ذلك العصر ، عصر اليصابات ، أيضاً عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن واحوال الدهر تُقبل وتدبر ، وتموت وتحيا ، وتذبل وتنضر ، كالشجرة التي جعلها وثنيو الشمال رمزاً للحياة الدنيـا ، ولكنها تذبل وتنضر وتلقي اوراقها وتورق بقوانين ازليـة ونواميس أبدية ، لا تظهر عليها ورقة الا بميقات ، لا يظهر عليها بطل الا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الاشيـاء والكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهي جزء متداخل في نظام الكائنـات أجمع ، مستحيل فصله عن سائر الأجزاء ، وليست كلمة أو فعلة لرجل ما الا ومنشـأها العالم أجمع ، ولا بد أن تعود بالتأثير آجلا او عاجلا ظاهراً أو باطناً في العـالم اجمع . أجل هي شجرة « اجد رازيل » التي اصلها في مملكة الموت وذرى فروعها في الجنـان ؟ وعهد اليصابات هذا وشكسبيره من بعض الوجـوه ثمرة العصور السـالفة ، وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وانما نشأت هذه الحياة الظاهرية العلمية التي تغنى بها شكسبير من العقيدة المسيحية التي سجع بها دانتي ، لأن الدين كان اذ ذاك كما هو الآن ، وكما يكون في كل آن روح العمل ، كان الحقيقـة الاولى الجوهرية في حيـاة البشر . ومن العجب ان ظهور شكسبير لم يكن إلا بعد ان نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التي شكسبير من ثمراتها بقدر ما في استطاعة تلك اللوائح ان تنسخ دينـاً وثيق العرى . ومع ذلك فقد ظهر

شكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد ارسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال باللوائح والبرلمانات ، فان للملوك والأميرات مذهباً ، وللطبيعة كذلك مذهباً . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ما تحدث من الجلجلة والدوي ، إذ اي لائحة أو مناظرة كانت قادرة على إخراج شكسبير هذا ؟ كلا ، ولا الولائم بالقصور ، ولا افتتاح صحائف الاشتراك ، ولا بيع الأسهم ، ولا غير ذلك من الطنين الحق أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر الاليصاباتي بمجده وشرفه من غير ما طلائع ولا رواد ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر . أداه الينا الحظ في سكوت ، فتناولناه في سكوت ، كأنما هو شيء صغير الشأن قليل الخطر ، وانه في الواقع نعمة لا تقدر ، وهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر .

إن صفوة الأدباء في جميع الاقطار الاوروبية ، واعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء، قد اوشكوا ان يُجمعوا على ان شكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق أقول إني لا اعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوي ، اذا تأملنا جميع صفاته في أي إنسان آخر : تبارك الله وتعالى عن الشبه ! ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تتراءى في جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصافي ! وقد قيل ان في تركيب روايات شكسبير فضلاً عن سائر الفضائل والمزايا ، آية على فهم مماثل لما جاء في كتاب بالون « النظام الجديد » وهذا حق ، ولا غرابة فيه . وربما كان ابين اذا نظرنا الى الحوادث التاريخية او الجغرافية العارية الجافة التي أحدث منها شكسبير رواياته البارعة الرائعة ، واجتهد احدنا أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع ذلك الشاعر الاكبر ! حجارة واخشاب وحدايد متراكم بعضها فوق بعض في افسد اختلاط وتشويش ، شاد منها ذلك الرجل قصراً موثق الاركان موثق البنيان ، تتلى في اصغر اجزائه آية الاحكام والصنعة ، حيثما القيت البصر لم تلق إلا اتقاناً واحسانا ، فكأنما ظهر في الدنيا وحده بقانون ابدي في فطرته ، وبناموس الطبيعة السرمدي ، وما هو إلا ان ننظر

اليه حتى ننسى الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة التي صاغ منها وصور . وإن كان تلك الصنعة التي كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفي فضل الصانع وتغيبه، ولنا ان نصف شكسبير في ذلك بانه اكمل من كل انسان وفوق كل امرىء بطبقات، فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التي يصوغ منها شعره ومقدار قرته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والاحوال . وما نظرته في ذلك بالسريعة القصيرة ولا غناء في تلك، وانما نظرة طويلة جمة الشعاع غزيرة الضياء ينير اشراقهـــا الموضوع كله، وعين ذات ابصار دائب دائم ساج ساكن، أو بالاختصار : عقل كبير .

وعسى أصح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك في قصة أمراً جليلاً كان ابصره، فتنظر أي تمثيل وصورة يقـــدم لك، وأي حادثة هي في نظره اعظم وأجل فيبرزها، واي امر ادنى وأقـل فيخفيه، وما هو احسن ابتداء واستهلال وأعجب تخلص وانتقال، وما أبرع تقسيم وتبويب، وأبدع تنسيق وترتيب، وكيف يكون حسن الغاية وجودة النهاية ؟ فاذا حملت الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد، وكددت أسباب عقله منتهى الكد . اذ لا بد له ان يفهم الشيء الذي يحاوله، ويبصر الامر الذي يزاوله، وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه يضع الكلام في مواضعه، ويجمل اللفظ الى لفقه وقريبه، والمعنى الى شكله ونسيبه ؟ وهل ارسل روح النظام في تلك الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة فرد الفوضى نظامـــاً، والخلاف وئاما، وألف أعناق الشوارد، وجمع شمـــل البدائد ؟ وهل امكنه ان يقول للشيء كن فيكون ؟ هل امكنه ان يقول : ليكن ثمة ضياء يحول به عالم السديم نظاماً ؟ أما انه لا يستطيع ذلك لو كان الضياء في عقله والشعاع في نفسه .

ومن اسباب عظمة شكسبير ايضاً براعة تصويره للاشخاص والاشياء لاسيما الاشخاص . نعم لشد ما تتجلى عظمته في ذلك وتستبين، ولا احسب ان انساناً يماثله في تلك القوة المخترعة الثاقبـة الهادئة . فـاذا نظر الى شيء لم ينظر منـه الى ذلك الوجـه او ذاك بل الى صميم لبـه، فكان ذلك المنظور يتحلل امامه

في ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمي ذلك ابداعاً واختراعاً وخلقاً ، خلقاً شعرياً، وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشيء ، المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعاً . ثم اما ترون في شكسبير ايضاً فضائل الحكمة والعظة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعفو والسداد والصدق ، وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة ، المذللة العقبات الهازمة المشقات ، الخروج من كل قحمة عذر وورطة نكراء . عظمة ويمين الله في سعة السموات والارضين،وعقل يمثل لك الحقائق كما هي لا كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحوّرها الفكر المصدود عن القصد ، فكأنما والله عقل شكسبير المرآة المستوية اذا كانت اذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعني ان شكسبير رجل يعدل في النظر ويسوي في الرأي بين جميع الاشياء والبشر : رجل كريم عادل .

براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شكسبير استيعاب بصره لجميع اصناف الرجال ، من هامليت إلى أوثيلو الى فولستاف الى روميو الى كوريالاناس ، وتأديته اياهم في أكمل خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم في حبه ومعذرته ، وسعته اياهم جميعاً بلطفه ورحمته ... حبذا هو اخو البشر وشقيق الانسان ! وما كان ذهن باكون ليقاس بذهن ذلك الشاعر ، فان الاول على كماله وعظمته من طينة ادنى من طينة الثاني ، طينة ارضية مادية حقيرة بالقياس الى ذهن الشاعر الاكبر . واني لا اجد لشكسبير في التاريخ الحديث مثيلاً قط ، وليس منذ ايامه حتى الآن من يذكرنيه الا رجلا واحداً هو « غوته » فانه ايضاً نظّار الى حقائق الامور وجواهر الاشياء ، ويمكنك ان تقول فيه مـــا قاله هو في شكسبير اذ قال : « اشخاص شكسبير كالساعات الشفافة الوجوه ، بينا تريك الساعة في وجوهها اذا هي ايضاً تريك اللوالب والآلات في ضمائرها المكشوفة واحشائها ».

العين البصيرة ... هذه هي الكشافة لبواطن الامور والكامن في ألبابهـا

من النظام والائتلاف ، الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الاشياء من الاغراض ، من المعاني الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شيء مهما قبح ظاهره ، غرضاً هو للعـــين البصيرة واضح بين . أفهل هذه الاشياء خبيثة دنيئة ? انك قد تضحك من تلك الاشياء ، وقد تبكي ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والاسبـــاب كيفما كانت ، او على الاقل يمكنك ان تصد عنها وتنصرف وتعرض وتنحرف ، حتى يحين ان تقتلها وتمحوهـــا ! والعقل الكبير هو اول مواهب الشاعر فاذا اوتي ذلك فقد صار شاعراً ، شاعراً بالقول ، فان لم يؤاته ذلك فشاعراً بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب ، ثم يكتب شعراً او نـــثراً هذا امر ثانوي يتوقف على الصدف ، ربما على أدنى الصدف . ولكن القوة التي تمكنه من ان يبصر ألباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام « لأن لكل كائن نظاماً في جوفه وائتلافاً موسيقياً في ضميره والا فما كان يتماسك ويكون » ما هي بنتيجة عادات ولا صدف ، ولكنهـــا منحة الطبيعة واول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك اول ما نقول للشاعر بل لكل انسان هو : انظر ! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك في استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافي ، ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدوي وتسمية نفسك شاعراً . وأولى لك ان تقطع من ذلك الامـــل وتنفض يدك من هذه الامنية . فاذا شئت فان لك في غير الشعر مجالاً ومندوحة ، في التجارة مثلا او الصناعة او الزراعة ، وحسبك ذلك . وانت فاضل ما اجدت صنعتك واحسنت عملك أياً كان ، بشرط ان يكون حلالاً طيباً كريماً . ولا عار في العمل المتقن ما لم يكن خبيثاً ، والاتقان نتيجـــة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما فقدُه أشد المحن .

لكل داء دواء يستطب بـه إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحقيقة ان قيمة المرء بمقــدار بصيرته ، ولو سئلت ان اعرّف ملكات شكسبير فقلت : « ارباء عقله على كل عقل » ، لكنت قد ادركت الغـــاية وبلغت النهـــاية . وما هي في الحقيقة تلك الملــكات التي نذكرها كأنها أشياء

شتى ، كأن للمرء ذهناً وخيالاً وادراكاً مثلما له يدان ورجلان وقدمان ، وهذه غلطة مبينة ، ثم نسمع أيضاً ان للمرء « طبيعة ذهنية » و « طبيعة أخلاقية » كأن هذين شعبتان كلٌ في ناحية ، أما انه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة الا ضرورة النطق ، وأراانا إذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة ، ولكن لا ينبغي أن تتجسد الكلمات حتى تصير أشياء ، فان ذلك هو السبب الى خطئنا في هذا الأمر وضلالنا ، وانما يجب علينا أن لا نزال نذكر ان هذه الاقسام ليست في الحقيقة إلا أسماء ، وان طبيعة المرء الروحانية ، القوة الحية الكامنة فيه ، هي شيء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ، وان ما نسميه خيالاً وادراكاً وذهناً ومفكرة وبصيرة وغير ذلك ، انما هي صور مختلفة لتلك القوة المبصرة ، وكلها شديدٌ اتصالُ بعضِها ببعض ، دليلٌ بعضُها على بعض ، حتى لو عرفنا أحدها لامكننا أن نعرف الباقي . وما اخلاق المرء الا ناحية من تلك القوة الحية التي بها يعمل وبها يكون ، وكل أفعال المرء لو تفقهون دليل عليه ، حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه في الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فان جبنه أو اقدامه ليبدو لك في خلال لفظه ، وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل نماً عن شجاعته أو خوره ، من ضربته أو طعنته ، وهو هو بعينه واحد يظهر الملأ نفساً واحدة في صور شتى .

قد يعيش الرجل من غير يدين قائماً على قدميه يسعى بهما في الارض ويضرب ، ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق ، والرجل الذي لا خلاق له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة ، هو معدوم البصيرة بالمرة ، لا يرى شيئاً حق الرؤية ، ولا يعرف شيئاً حق المعرفة ، لأن المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أعني الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة ، واذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال ينتصف لكل شيء من نفسه ، ويأخذ الحق منها لغيرها ، ويقمعها ويقدعها ، ويذلها ويقهرها ،

ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق على ما فيه من عذاب ومضض ، فكيف يجد الى العلم بالحقائق سبيلاً ؟ وإنما الطبيعة وحقائقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ، وما يعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قشوراً وأباطيل وخبائث مما يستخدمه في أغراض ساعته ، ومـا مَثَله إلا كمَثَل الثعلب . أو ما يعرف الثعلب شيئاً من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب الآدمي ، وما أكثره في كل زمن وبقعة ، أتراه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل ان اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتداءه اليها فضيلة ثعلبية ، ولو أنه أضاع أوقاته حزيناً آسفاً مطرقاً يفكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء لهوجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية ، لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فاذا قلت اذن ان شكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه ، على أن في ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد ، وهو ما اسميه ذهناً غير متعمّد ، وفيه من الفضائل أكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوفاليس :

« ما روايات شكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . »

وأرى ذلك صواباً وحقاً ، فما صناعته بصناعة ، إنما هي وحي يتدفق به طبعه عفواً ويهطل به خاطره سحاً دراكاً :

ويدر درك للأولى يبغونه   عفواً بلا مسخ ولا ابساس

شيء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب ، يذوب كدمعة المحزون غير معتصر ، ويفيض كمنحة الجواد غير معتسر ، ويجيء كوداد المحب غير معتنف ولا مقتسر ، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر ، وغناء الحمام في الشجر ، أو كشذا المسك يفوح وينتشر ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل ، وإنما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجل ، أو صوت الطبيعة يخرج الينا من فم ذلك

الرجل ، أو إن شكسبير ناي تتناوله الطبيعة فتترنم فيه بأشجى نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها .

ولعل الأمم التي ستجيء بعد آلاف السنين ستجد في شكسبير هذا معاني جديدة وبياناً لألغاز حياتهم ، وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق أن تجعله جزءاً منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل أعماق نفسه عفواً لا أثر فيها للصنعة والتكلف ، كالدوحة نابتة من الثرى ، وكالجبال والأمواه إذ تلبس أشكالاً خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة موافقة لسنة الحق أياً كان . ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ، أرأيتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه يتألم ويتحسر ويتوجع ويتضجر ؟ أم كان خلواً من الألم والبرح والكمد والترح . كلا ولكنه ستار للشجو ، كتوم للمصيبة ، وكم خفي في تلك السريرة من الآلام والمحن ، فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم وروائع الحكم ، كأنها الجذور ، وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر . عظيم والله الكلام ، ولكن الصمت أعظم !

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هي من جلائل الصفات ، ولا أنعي على دانتي كآبته وشقوته ، فانها حرب بلا ظفر ، ولكنها حرب صادقة ، وهي أهم المسائل وأخطر الامور ، وأرى شكسبير يُعد أعظم من دانتي من حيث أنه جاهد فظفر ، ولا يخالجكم الشك في أنه قد كان له حظه من الهموم والاحزان ، وقسطه من القروح والاشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرع من مرارة المحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكافح من غمرة الكرب ، يكدح في بحر الشقاء ويضرب ، ويطفو به ذلك العباب ويرسب ، حتى بلغ شاطىء الامن ونجاه الله من الحين . وقد أفال الرأي من زعم ان عيش شكسبير كان خلواً من الاسى ، صفواً من القذى ، لم يرد منه الا عذباً زلالاً وفراتاً سلسالاً ، وان شكسبير لم يك إلا بلبلاً بروضة الصفاء أفنى عمره سجعاً وتثويباً ، وبلغ أجله شدواً وتطريباً ،

سعيد الفال ، مغبوط الحال ، ناعم البال ، هادىء البلبال ، شأن البلابل والقماري اللواتي هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور

كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا ، وأنى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان الى كتابة مبكيات كمبكيات شكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجى ؟ بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكوريالانس وماكبيث ، وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الالم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد نقول ولا حرج ، إن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك ، وكثير في رواياته اللفظ الموجع ، والقول المقذع ، والكلم النافذ المحرق ، ولكنه عند حد ، وما كان قط ليغلو في كراهة البشر . ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر ، واذا نصب من أشخاصه واحداً للفكاهة ، هال على رأسه ما لا يحصى من فنون المزاح والمجون وألقاب السخرية ، وما زال ينقله منَ الاشكال المضحكة فيما يستقصي العجب ويستنفد الاستغراب ، فكأنه يضحك بملء ضلوعه وقلبه ، وهو ضحك صالح لا يُقصد به الى السخر من المساكين والبؤساء والضعفاء ، ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكاً وإنما هو سفالة ولؤم ، فان الضحك الحر الكريم من شيء ما يستلزم حبَّك لهذا الشيء ، وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر : تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب ! وضحك شكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الاغبياء والادعياء ، وهذا الضحك في نظري كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال في وصف كلٍ من روايات شكسبير على حدة ، وإن كان لا يزال في ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام ، فلو أن كل قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل « غوته » لكان خيراً ، وسيكون ذلك يوماً ما . وقد سمى الفيلسوف الكبير الالماني « سكليجل » رواية هنري

الخامس وما شاكلها تاريخهـا جليلا وطنياً . وتذكرون ما قـــاله القائد « مالبرا » من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيـا الا ما علمه من شكسبير . وقلّ في كتبنا التاريخية لو تنظرون ، ما يوازي تلـكم الروايات قيمة وفضلا ، ومـا أبدع وصفـه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الانـكليز المكدود المنهوك وساعة التصاف اذ توشك الحرب أن تبتـدىء ، تلك الساعة الجليلة التي يكمن في اثنـائها النحس والسعـد ، ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر : « معشر الرماة الذين صيغت أكفهم في بريطانيا ... » الا تجدون في ذلك ريح الوطنية ? أما في ذلك مكذبة للرامين شكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة ? أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض في كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادىء قوي ، بريء من كل أثر للجلبة والغلواء ، كأنما صوت نبضـه رنين الحديد الصلب ،وظني أن في صدر شكسبير هذا جرأة ليث ،وفي يمينه بطشة قسور لو أشهدته صروف الدهر ساحة الوغى !

هذا هو فلاح قرية « سترافورد » الذي ارتفع الى درجة مدير تمثيــل فكُفي بذلك ذل السؤال ، والذي رمقه اللورد سواذمبتـون بعين رحمته ! والذي كان السير توماس حفظه الله يريد ارساله الى السجن ! انّا لم نعـده الهاً كأودين اذ هو عائش وسطنا ، ولكنــه رغماً من ضعف ايمان الازمـان الحديثة بالابطال ، فأي اجلال واكبار لم يصبه شكسبير هذا من ابناء اللسان الانـكليزي ? أي رجل بل اي مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شكسبير الذي هو اكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا ، مفخرة نزهو بها على الاجــانب ، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا . انظروا ماذا يكون الجواب اذا خيّرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند ، أن نكون لم نمتلك قط شكسبير او لم نمتلك قط امبراطورية الهند ! أنا اعلم ان رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ، ولكنا نحن لنا الحق أيضاً في أن نختار ما نراه أفضــل فنقول : سواء حكمنا الهند او لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير ، ستذهب الهند يوماً ما ولكن شكسبير لا يذهب !

بل ان لشكسبير فضلاً عن مزية المجد والفخار وتهذيب النفوس والاخلاق ، فائدة مادية عملية وهي انه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان في أنحاء المعمورة ، وسيجيء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعي من أبناء بريطانيا الا الجزء الاخس وسائرهم مبعثر في نواحي الكرة مبدد في جوانبها ، واذا كان ذلك فما الذي يقرّب بين هذي النفوس المتدابرة ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة ، فيخضرّ بينهم الثرى ويتحلى ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ، ويصبحون بفضله أمة واحدة ؟ ما ذاك الذي يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم في مستقره ونصابه ، ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ أبالحكومة ولائحتها ، أم بالوزارة واقتراحاتها ، أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشكسبير هذا ، فهو الملك الاكبر الحاكم على جميع طوائف الانكليز في سائر الانحاء والارجاء الذي :

يؤلف من أعناقهم فكأنما يؤلف من أعناق وحش منفر

الذي بفضله نصبح وامريكا شعباً واحداً على رغم ما أتته الحكومة من التفريق بيننا وبينهم ، وما هو في الحقيقة الا انفصال ظاهري سطحي ، وشكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً تحت صولجان واحد ، وراية واحدة ، الذي ليس في قدرة الحكومة ولا البرلمان – كلا ولا ألف حكومة وألف برلمان – ان تخلعه ؟ ولن يبرح الرجل الانكليزي يقول لصاحبه وجاره ، والمرأة الانكليزية تقول لتربها وجارتها في الهند وفي كندا وفي جامايكا وفي استراليا :

« نعم شكسبير هذا رجلنا ... نحن انتجناه والينا يُنسب ، وبفؤاده نشعر وبذهنه نفكر ، ونحن واياه من طينة بعينها ، ومن دوحة واحدة ! »

ولأهل السياسة ورجال الحكومة ان يتدبروا ذلك لو شاءوا .

البطل في صورة قسيس

لوثر - نوكس

سيكون كلامنا الآن عن البطـل في صورة قسيس . والقسيس في مذهبي نوع من النبي ، إذ لا بد من أن يكون منطويـاً على نور الوحي . والقسيس دليل الناس في مذاهب الدين ، وقائدهم في مناهج العبادة ، والواصـل بينهم وبين السر الخفي ، فهو وزيرهم الروحاني ، إذ النبي أميرهم الروحـاني ، والقساوسة وزراؤه . وهو — القسيس — العـارج بهم الى السماء عن طريق الأرض ، الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ، ومراقي الطيبـات ، ومعارج الخيرات والحسنات . وهو ايضـاً في اعتقادنا صوت من العـوالم المستورة يترجم للناس أسرارها ، بعبارة أقرب الى الأذهان وأشبه بالدنيويات من عبـارة الانبيـاء والرسل : يـترجم اسرار السمـوات — أو مـا سماه غوته « السر الجلي » الذي لا يكاد يراه انسان ، فـكلنا ، إلا من اصطفاه الله ، ازاءه كما قيل :

يا شاهداً يرنو بعيني غائب ومشاهداً للأمر غير مشاهد

هو نبي عار من روعة جلال النبي وهول مهابته ، يشرق له في نواحي المعيشة اليومية سراج أقل وهجاً من الشهاب النبوي وأسكن لألاء ، هذا ما يجب ان يكون صفة القسيس الـكامل ، وكلنا يعلم أن الكمال نادر وانه ينبغي الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعة . فإما ان يكونَ قسيسٌ مجرداً من كل هذه الشروط ، غير محاول ان يكون كل ما وصفت ولا ميمماً وجه الفضل وأمد الكمال ، فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه .

●

كان لوثير ونوكس قسيسين حرفةً ، وقد أديا الوظيفة في أمانة وصدق ، وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية أعني مصلحين . وربما وجد في أيام السلم من القسوس من يساوون لوثير ونوكس في حسن القيام بشؤون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها ، يستنزلون هدى الله على عبيده ، ويحدون بركب الفناء في سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ، ولكن اذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت ، وقامت فيها القحم والعقبات والموارط والهلكات ، ودجت الخطوب وأظلمت الفتن ، وأزمت الكروب وتشنعت المحن ، فليس القسيس الذي يسير بنا في هذه الطريق سيرة النوتي في البحر ذي الصخور والحجارة :

تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر

ليس الذي يساور بنا تلك القحم ويواثب ، ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب ، إلا أكبر من غيره — ولاسيما في نظرنا نحن — وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل ، لم يكن طريقه بالذلول الرَكوب ، ولا جرت سفينته على يمٍّ ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة ، ولكنه نزل بأناسه سوح القتال في زمنٍ فتوقٍ ثائرة وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة ، وأمور بائرة ، ونفوس حائرة . فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا ، من حيث انهما أكبر مصلحينا . أوليس كل مصلح صادق قسيساً قبل كل شيء بطبيعته ؟ وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين وجور الجائرين ، ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وان :

يد الله كانت فوق أيديكم التي أرادت بنا ما في الظنون الكواذب

أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة — كاهناً يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها — اعني قسيساً . واذا لم يكن قسيساً قبل كل شيء فلن تراه من الاصلاح والمصلحين في شيء .

وكما رأينا اعاظم الرجال في مراكزهم المختلفة يبنون الأديان — الاساليب

الشريفة للحياة الدنيوية والعقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى بها أمثال دانتي ، والافعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شكسبير — نرى أيضاً عكس ذلك أعني هدم هاتيك الاديان . وهو ايضاً من الضرورات ، وحري أن يكون من اعمال الابطال ومفاخر العظماء . وعجيب ان يكون ذلك ضرورياً ، ولكنه في الحقيقة ضروري . حتى ترى نور الشاعر ، ذلك النور اللين الغض يخلي مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح ، وليس يخلو التاريخ منه قط ، ولولا المصلحان القديس « ومينا كيس » ، والرجل الشديد البأس الصعب المراس « ثيبار داماتس » ما ترنم دانتي . ولولا ما سبق شكسبير من اعمال الامم ومساعي العالم من « اودين » الى معاصره « والتر رالي » ما نطق شكسبير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على ان عصره قد بلغ حد الكمال ، وانه قد أوشك أن ينتهي ويجيء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة ، فلا بد اذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة .

ولا شك انه قد كان خيراً لنا واجمل ، لو امكننا ان نفلت من تلك الفتن والثورات ونتحامى هذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير ابداً السير اللين الرفيق على انغام الشعراء ، يروضنا شجي غنائهم وطرب حدائهم ، كما كان يفعل « اورفيس » :

حيث استفز الراسيات بلحنه اورفيس واستدنى القطا الحذرات
ودعا الوحوش النافرات فأقبلت خضع الرقاب نواكس الهامات

وكان خيراً لنا إذ يؤاتينا غناء الشعراء ، لو أنا سرنا في طريق السكينة والامن ، يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من أحوالنا يوماً فيوماً . لقد كان حسبنا والله ذلك . ولكن ابت سنة الطبيعة الا اموراً اخرى ، اذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات في طريق الحياة الدينية ، بل يصبح الامر الصالح الذي كان يُعدّ من اسباب الرقي عقبة وعائقاً وقيداً لا مناص من خلعه واطراحه ، وفي ذلك ما فيه

عن الجهد الجهيد والمشقة . وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية والنظرية الروحانية ، التي كانت بالامس تشمل العالم طراً وتسع الامم جميعاً ، ويرضى بها تمام الرضى ذهن ثاقب دقيق كذهن دانتي ، تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب وانكار وسخر واصغار ، شبيهة عندهم بنظرية « اودين » ! كان دانتي يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد ، بتلك النيران التي صورها في قصته وتلك الاودية والجبال . ولكن لوثر لم يرَ ذلك ولا صوّبه . فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبقَ على مدى الايام كاثوليكية دانتي حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لا شيء يبقى !

انا لا احفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فان كلامهم في ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط ، مضطرب مشوش ، ولكني اقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها ، وبرهانها باد في طبيعة الاشياء . وذلك ان كل انسان فضلاً عن انه متعلم ، فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذي وهبه الله ما صنع السلف ، وبنفس هذا العقل يكتشف اموراً جديدة ويبدع ويبتكر . وليس انسان قط يخلو من ملكة الابداع والاختراع . ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقده جده حذوك النعل بالنعل ، بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره في الكون ويبعد مدى رأيه في الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لرأيٍ قط مهما انفسح ان يستوفيه ويستقصيه ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرىء يزيد رأيه في الكون على رأي جده ، اذ يخطّىء بعض ما كان يراه ذلك الجد ، ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة الاكتشاف . هذا تاريخ كل فرد ، وهو يظهر في مجرى التاريخ العام مضاعفاً أعظم تضعيف ، حتى يبدو في هيئة الانقلابات الكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتي يحسب أن في نصف الدنيا الآخر جبلاً في المحيط ، يطهر الله فيه أرواح المذنبين قبل ادخالها الجنة ، وهو ما وصفه في قصته وسماه

بجبل المطهر . وهكذا كان يرى دانتي ويعتقــد ، فلما ذهب كريستوف كولومبوس الى ذاك النصف الآخر من الدنيا ، لم يجد في بحـاره ذاك الجبل الذي كان دانتي يعتقد وجوده هنالك ، أفترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتي ؟ كلا ، وهذا حال سائر المعتقدات في هذا العالم ، وحال مـا ينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية .

فاذا أضفنا الى ذلك ، الامر المحزن وهو أنه اذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ، ونخر الشك في عظام اليقين ، فسدت عقيب ذلـــك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهنالك الاغـلاط والمظالم والمصـائب ، ومدت الفتنـة اسبابها وأخذت الثورة أهبها وشمرت جلبابها . وما زال من البديهي انه لا يصــدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فاذا ضعف اعتقـاد الانسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الاعمال ، بل اصبح يجري في جميع امره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة ، مخضعاً رأيه لرأي الدنيا ، جاعلاً ارادته رديفاً لارادة العالم ، وفكره جنيباً لفكر الملأ ، فما هو والله اذ ذاك الا عبد وأسير ، وبالخطأ فيما يسند اليه خليق وجدير ، وهو احد سواق الفتنة وحداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها الى اليوم الموعود والاجل المحدود ، وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظراً الى ظاهره الكاذب فقط الا وهو اثم جديد يلذ لبعض الناس ، جديد مصـــاب ، ومستطرف بلية . ثم تتراكم الآثام حتى لا تطاق ، وحتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكيــة دانتي من حيث معانيها ، ولا يقدسونها لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، اتيح لشملها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبدد ومفرق . وقضى ربك عـلى العيشة الاقطاعية ، تلك العيشة المونقة البهيجة التي أبدع صفتها شكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسيــة . وانما هو كما قلنا انفجــار من الآثام المتراكمة كانفجــار البركان ، ثم لا تستقر الامور الا بعــد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وانه لمن البلية أن نقصر نظرنا من ذلك الامر على جهة واحدة ، فلا نبصر في آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشتبهة ملتبسة وقتية ، رهينة بالفناء والموت ، والحقيقة غير ذلك ، اذ نجد أن الفناء هنا انما هو فناء الثوب لا الجوهر ، والموت موت الجسم لا الروح . وكل اتلاف بسلاح الثورة انما هو خلق جديد على نظام أبدع ، ونطاق أوسع . فكانت الوثنية الاودنية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعاً وضراعة ، وما الخشوع الا ضرب من الشجاعة أشرف وأكرم ، وما من رأي جال في صدر الانسان جولة جد واخلاص عن عقيدة صدق وايمان ، الا وكان في وقته نظرة صادقة من الانسان في صميم الحق ، فيها عنصر صدق ما يزال على تجدد الاحوال جديداً ، فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف ان نرى ان جميع من خلق الله من الامم ، في جميع الازمان والامكنة ، مخطىء ضال الا نحن . وانه ليس في خلق الله غابراً وحاضراً من بات على هدى من ربه الا نحن ، وان جميع الامم والشعوب ضلوا وخابوا لكي نصيب ونفلح نحن الفئة الضئيلة القليلة . وان جميع تلك الامم انما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية ، ولم يك زحفهم نحو الخندق الا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة ، فيكون لنا ثمة من جثثهم جسر نعبر عليه الى المدينة المحاصرة فنأخذها ! هذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل !

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل ، فيحسبون أنهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون الى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى ان يُقال اذا هم وقعوا كذلك في الخندق وصاروا أجساداً ميتة ، وكذلك أرى في فطرة الانسان أنه ما برح يحسب فكره إمام الافكار ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضي على هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر ان جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر ، إنما هم جنود جيش واحد ادرجوا في سلك الكتيبة تحت قيادة الله ، ليقاتلوا عدواً واحداً ، أعني به عالم

الظلمات والباطل . ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك ، بقتالنا بعضنا بعضاً ، لمجرد اختلافٍ في اللباس والزي ؟ ألا كل الازياء حَسَن ما زُرّت عراه على ذي مروءة ونجدة ! ومرحباً بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله ، من العمامة العربية واليماني المرهف الى «معول «ثور» يضرب به الجان والمردة . وما زمجرة لوثر في حومة الحرب ، والحان داني من اليراع والقصب ، إلا عون لنا لا علينا ، وكلنا تحت ذياك القائد وذاك اللواء .

❁

«وبعد» فلنلق نظرة في جهاد لوثر هذا ، لنعلم أي ضرب من الجهاد هو ، وكيف كان فيه بلاؤه ، ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحانيين ، نبياً لأمته وزمنه .

ولعل كلمةً هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون الا في مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به الانبياء عامة شدة الانكار للوثنية . وهو اكبر مسائل الرسل وعبادة الاوثان الميتة كإله ، هو ما لا يسكتون عنه أبداً ولا يطيقونه ، بل لا يزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر ، وهذا جدير بالتأمل . وكلمة «ايدول» أصلها «ايدولون» ومعناها الشيء المنظور ، أعني العلامة ، أي الرمز ، فليس معناها إذن إلـه بل رمزاً للإلـه . وجدير بنا أن نشك هل كان قط انسان مهما بلغ انحطاطه وعماه ، رأى في ذلك الصنم اكثر من انه رمز ؟ أنا لا اظن ان مثل ذاك الانسان كان يحسب ان الشيء الذي صنعه بيديه هو الالـه ، بل كل ما يحسب هو انه يمثل الالـه ، وان ألا إله كائن فيه بشكل ما . وإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل : أليست كل عبادة أية كانت هي عبادة بالرموز او بالاشياء المنظورة . وسواء تمثل الالـه للعين الخارجية في صورة منظورة ، او للعين الداخلية اعني للذهن او

للخيال ، فانما هو فرق سطحي لا جوهري . اذ لا تزال تبقى هـذه الحقيقة ، وهي ان هناك شيئاً يُنظر - بالعين او بالذهن - دليلاً على الاله ، اعني وثناً . وليس يخلو اورع الناسكين واولع المتصوفين ، من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة ، وبها يُعبد الله ولولاها ما وجد الى العبادة سبيلا . وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية ، على هذا الحد اشياء منظورة ، ولا تسير العبادة قط الا بالرموز - بالاوثان ، وعلى ذلك نقول ان كل مذهب وثنية ، وانما بعضها اشد وثنية والبعض اقل .

اين اذن شرها ؟ اما انه لا بـد من ان تكون منطوية على شر كبير ، والا فما كانت ملاقية من انكار الأنبياء والرسل اشده وابلغه . اجل لماذا نرى الوثنية بغيضة كل ذلك البغض الى الانبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا احسب ان اكبر امر اسخط نبياً على الوثنية وملأ صـدره غيظاً وحنقاً ، ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله في ذلك الصدد ويصرّح به للغير . فان احط وثني من عباد الكواكب او الاصنام ، كان كما رأينا خيراً من الحصان الذي لم يعبد شيئاً ! بل لقد كان في عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما يُحمد في الشعراء ، أعني ايناس الجمال الالهي والمعنى الكبير في النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق . فلماذا يا ترى ينقم عليه النبي كل هذه النقمة ؟ ان أحقر وثني عاكف على صنمه ، ليس اذا امتلأ صدره ايماناً بهذا الصنم ، الا جديراً بالرحمة لا الابغاض ، وان كان بعدُ أهلاً للاحتقار والمقت والاجتناب ان شئت ليمتلىء باعتقادها قلبه ، وليستر بها وعاء ذهنه الضيق المظلم ، او بالاختصار ليؤمن بصنمه الايمان كله يَكن في ذلك خير له ، او بعبارة أخرى ما هو حاضر في ذاك الوقت من الخير وممكن ، ثم دعه وشأنه آمناً في سربه ماضياً على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهي ان الايمان بها يكون قد تطرق اليه الفساد في أزمان النبوة . ويكون الكثير من الناس قد ادركوا

بعض ما ادركه النبي ، من ان هذا الوثن انما هو قطعة من الخشب ، وينكر النبي هذه الوثنية . والوثنية المنكرة هي الخالية من الاخلاص والصدق ، لما اكلت الشكوك قلبها ونخرت الشبهات لبها ، بينما يتشبث بها الوثني اذ يخيل اليه أنه يتشبث بطيف الخيال وأشباح الظلال ، وهذا لعمري من شر البلية واسوأ المحنة . ولقد قال كولريج :

« انكم لا تعتقدون وانما تعتقدون انكم تعتقدون » .

وذلك هو الفصل الأخير من رواية الاديان والعقائد ، وآية دنو الموت واقتراب الهلاك . وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات ؛ وليس في طاقة الانسان ان يأتي جناية أفظع وموبقة اشنع ، ولا اثماً أفجر وجرماً انكر ، وما هي الا رقدة العقل وشلل النفس ، وضياع الاخلاص والصدق ، فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الى الله منه .

ولا اجد لوثر في أمر الأصنام وتكسيرها الا كأي نبي من الانبياء . وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع ، بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر ، كما كان يجريها بطارقة في عصره ، وانه لشأن البطل أياً كان ، وفي كل زمان ومكان ، ان يرجع الى الحقيقة ويعتمد على الاشياء لا على ظواهر الاشياء . وبقدر حبه لحقائق الاشياء ، واجلاله اياها اجلالاً ناطقاً يصدح به صوت الشعر ويسجع ، او اجلالا مفحماً يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقته وكرهه لظواهر الاشياء مهما صقل التمويه من أطرافها ، وهذب التزويق من حواشيها ، ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة القرون الوسطى . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله ان يسمى نبياً . وهي في نظري نبوة القرن السادس عشر ، وأول ضربة في مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهي تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقاً ويكون مقدساً !

يظن الذي لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال ، وجعلها اساس الخير الديني والدنيوي ترك الثقة بزعماء الدين وعدم

الايمان بهم ، وطالما نسمع ان البروتستانتية أوفدت عصراً جديداً شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور ، هو عصر « الرأي الشخصي » كما يسمونه ، وإذ كانت البروتستانتية ثوراناً ضد البابا أصبح كل فرد بابا لنفسه ، وعُلِّم فيما عُلِّم أن من اول واجباته عدم الثقة بأي بابا او امام ديني ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون: أو لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامة دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا انكر ان البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما اليهما . كما لا انكر أن البيوريتانية الانكليزية التي كانت ثورة ضد الملوك والامراء ، انما هي الفصل الثاني من الرواية التي اول فصولها البروتستانتية ، وان الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التي كان من شأنها فيما يُرى ويُظن أنها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية — الأرضية والسماوية — او جعلت امر نسخها قضاء لا بد من تنفيذه . والبروتستانتية هي الجذر الذي عنه تفرع تاريخ اوروبا الحديث وتشعب ، لأن الروحانيات ما برحت تتقمص في العمليات ، والروحاني مبدأ العملي ، وقد اصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات : « يا للمساواة » « يا للإخاء » « يا للحرية والاستقلال ! » وأصبحنا ولدينا بدل الملوك اوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب ، وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتاً طاعة الانسان للانسان في الدنيويات والدينيات ، ولو ان الحقيقة كذلك لتناهى يأسي من الدنيا وأريقت صبابة رجائي . ولكن أرسخ عقائدي أن الامر ليس كذلك . ولولا الحكام ، اخيار الحكام ، الدنيويون والدينيون ، لأصبح امر النـاس فوضى ، وشر الامور الفوضى . ولكني أرى البروتستانتية رغماً مما احدثت من الديموقراطية الفوضوية ، منشأ ملوكية حرة صادقة ، ومنشأ نظام وصلاح وأحكام. وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وكاذبيهم. وأراها الخطوة الاولى إلى اقامة أحرار الملوك بيننا وصلاّحهم ! وهذا يحتاج الى قليل من الشرح . . .

ولنذكر أولاً ان أمر « الرأي الشخصي » في العبادة لم يك بالامر الجديد في العالم ، ولكنه كان في تلك المدة جديداً . نعم ليس في البروتستانتية شيء جديد

في جنسه ، وانما هي رجعة الى الحق والجوهر بعد الاقامة على الباطل والظاهر الكاذب ، شأن كل رقي وتعليم صالح . ولا أحسب الا ان حرية الرأي الشخصي ما برحت في الناس من قديم الازل ، لم يخل منهـا جيل من الاجيال . وما اظن أن دانتي كان قد عمد الى عينيه فقلعهما ، ولا الى حركات ذهنه فغلها وقيدها . ولقد كان في كاثوليكيته تلك حراً طليقاً وان اصبح قوم في اغلالهـا من بعده مكبلين ، وفي أصفادها موثقين. حرية الرأي ? ماذا اسمع ? كلا والله ما كان قط في قدرة السلاسل والاغلال ، ولا اي قوة بشرية ، ان ترغم انساناً على الايمان بهذا الامر او الكفر بذاك . وانما رأيه في ذلك سراجه الدائم الاشتعال ، الذي لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته . وبه يستنير ويهتدي بفضل الله وحده ! وان أشقى الضالين الذي يأمر بالاعتقاد الاعمى والطاعة المهينة ، لا بد من ان يكون قد أقنع نفسه أولاً بأنه لا حق لها في طلب الاقناع. نعم و «رأيه الشخصي» هو الذي أشار عليه بذلك كأصوب ما يؤتى ، فمثل هذا الرجـل حر الرأي في ضلاله ولكنه حر الرأي ، وهو فوق ذلـك مخلص . وما دام في قلب المرء اخلاص ، فالرأي الشخصي جـاره في ذلك القلب وحليفه . والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوي عليه من النور والهدى ، بينا ترى الرجل الكاذب الذي يحاول جهده أن « يعتقد انه يعتقد » يسلك طريقاً آخر . فللأول تقول البروتستانتية « خيراً صنعت ! » وتقول للآخر : « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء . وإنما كما قلت عودة الى جميع ما قيل من اقوال القدماء : « كن حراً ، كن صادقاً ، كن مخلصاً » . لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان اودين ، وكذلك جميـع المسلمين والنصارى وصادقي الوثنيين . لقـد رأى كل فريق منهم مذهبه الذي تبعه « برأيه الشخصي » . . .

واني لأقول ولا حرج ، إن الاستمرار على اعمال الرأي الشخصي لا ينتهي قط بالاستبداد الاناني والتفرق والتقاطع ، بل ينتهي بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ، ولكنها نتيجة الخطأ

والكذب وضعف الايمان ، وما ثورة المرء ضد البـــاطل إلا ميل منه الى ناحية الحق ، وجنوح الى اللحاق بزمرة اهل الصلاح والتقى . فامـــا أهل المظاهر الكاذبة فمحال ان يكون بينهم صلة او رابطـــة ، وكيف وفي جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شيء ، وإلا آمن بالحقائق لا بالأباطيل ، واذا اقفر القلب من العاطفة على الاشياء أفترجو ان يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا ، انه لا يأتلف بالناس : انه رجل فوضوي . والوحدة أيدكم الله والجامعة ، لا تكون إلا بين اخوان الصدق وأولي الاخلاص .

أما من حيث قولهم ان كل انسان يعبد الله « برأيه الشخصي » فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصيـــة ، وانما الرأي هبة الله يهبها لأعاظم الرجال ، ثم لا بأس على غير العظماء ان يعتقدوا رأي العظيم ويستشعروه ، حتى لكأنهم مبتكروه وقانصو شريدتـــه ، ومخترعوه ونابشو دفينته . وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، ان يصح ايقانه ويصدق ايمانه . فـاذا كان ذلك ، فما ضره ان لم يكن من الرأي بمنزلة كاشف خبيئته وفاض لطيمته ؟ ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص، بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار ، بمقدار ما هو فاهم المرأي الذي يعتقده ويستنبطه . فان فهمك لرأي عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم في احداثه . وكذلك لكل امرىء ان يكون متى شاء مخلصاً صادقاً، أعني مبتكراً بمعنى ما . بل لقد اوجد الله أمماً وشعوباً كل افرادهـــا مؤمن صادق ، تلك امم الحق وشعوب الايمـان ، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح . وأعصر مباركة وافرة الثمرات كثيرة الخـيرات ، جمة المبرات ، اذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل ، فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لقحة صنع غزيرة الدر ، وحاصل الجميـــع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب الى ناحية واحدة ، ويؤم غرضاً بـذاته وأمداً بعينه . هذه أعصر الربح لا الخسران وأزمن المزيد لا النقصان !

●

ولد لوثر ببلدة ايزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا ، لعشر خلون من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت امه وابوه وهو صانع فقير في بعض معــادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبا الى سوق ايزليبن الشتوي ، فاخذ السيدة المخاض في حومة السوق وغماره ، فعاذت بدار حقيرة ، وولدت غلاماً سمي مارتين لوثر. عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه ! لقد ذهبت هذه المرأة « فرو لوثر » وبعلهـــا الى ذاك السوق لتقضي حاجاً من البيع والشراء ، علها لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثيـــاب الصوف ، ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارهـــا الحقيرة . ولعـــل في ذاك اليوم لم يك في طول الارض وعرضها ، اثنان هما أصغر شأناً وأخمـــل ذكراً وأقل خطراً ، من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العـــالم وباباته وبطارقته في جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل . وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقتبلة شعاعه . في ذلك اليوم ولد بطل أطـــال سكان الأرض ارتقابه ، وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه . عجيب والله وغريب ، وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقـــدم عصراً ، وأسمى منزلة وارفع قدراً وقع منذ الف وثمانمائة عام . وهو حادث الصمت ازاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال في مثل ذلك المقام ! ويزعم الناس بعد لوثر ومولده ان الارض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات ، كلا وأسماء الله انما العالم عريق في الاعجاز والمعجزة من نبات ذيا كم الثرى !

وأرى أنه كان ملائماً جداً لوظيفة لوثر في هذا العالم وحكمة من الله بالغة ، أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربي فقيراً كأفقر عباده . وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولاً بالغنـــاء من دار الى دار . وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه ، والشقاء ابداً مجاهره وجهاً لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة ، لا تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الامل الخلب . وهكذا شب لوثر بين

حقائق الاشياء المرة المضيضة، لا ظواهرهـــا الحلوة المصقولة، غلاماً خشن الهيئـــة ضعيف المنة، في جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء، وشعور شب في ملتطم امواج البلاء ومصطدم أواذي الشقاء، ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق. وهذا واجبه في الحيـاة: أن يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال بما قد طال في البـاطل لجاجه، واشتد بالزور والكذب إلهاجه! غلامٌ نشأ في مهد العواصف، وربي في حجر القر والزمهرير، وغذته مرضعات الهم والنكد، وغازلته بنات البأساء والكمد، فخرج من احشاء وطنه خروج «ثور[1]» من ضمير اسكانديناڤيا. وكيف وانه ما انفك يضرب في شياطين الافك والزور، وابالسة المنكر والفجور، كما كان يفعل «ثور» بالجان والمردة، حتى هزم كتائب الكذب والمحـــال، وكشف جنود البدع والضلال!

ولعل الأمر الذي كان عليه متحول مجرى حيـــاته، هو موت صديقه ألكسيس بالصاعقة. لقد كان لوثر أظهر في زمن طفولته وصبـاه أشد الميل للدرس والمذاكرة، رغماً من كارثات الفقر، ورجـا أبواه ان يكون له في الرقي قسمة، فأركبـــاه طريق الدراسة القضائية لأنها الطريق اذ ذاك الى النهضة والصعود. فرضي لوثر بذلـك رضى كُكره، وأساغه مساغ الشجى وأغضى منه على القذى.

فلما كان في التـــاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له يدعى الكسيس ليزورا ابويه في بلدة مانسفيلد ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فاصابت صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت، فناجاه مناجي العبرة من اعماق نفسه:

«تباً لهذه الدنيا وقبحاً لهذه الدار، ويا بؤس للحيـاة ويا رحمتا للانسان! ما هذه الحياة؟ أتزول في لفتة الجيد ولمح البصر، وتذهب كالقرطـــاس طوته ألسنة النيران، فتضيع في مجاهل الابد؟ ماذا الدنيـــا وماذا الدول والممالك

---

[1]) اله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره.

والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم في التراب تراب ! بينما هم في حلـــل عزهم رافلون ، على الارائك متكئون ، تفغر الارض فاها فاذا هم في بطنها ثاوون ، وبالعفر والرغام مكحولون ، والمدر والحجارة موسودون . بلى كل من عليهـا فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام !

ثم أن لوثر عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة القديس اوغسطـين ببلدة ارفـورت ، برغم ابيه والكثيرين من معارفه .

ولعل هذا اول شعاع برق في تاريخ الرجـل ، ولكنه شعـــاع وسط ظلمات . وقد حدّث عن نفســه أنه كان في تلك المدة قسيساً صالحاً يجـدّ ويجتهد ، ليؤدي وظيفته وليدرك السعادة ، ولكن عبثاً حاول ، فما خف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد ، وما اشقاه لا من كدٍ في عمله ولا نصب ، ولا من مهانة العمل وذله أتـــاه البلاء ، وإنما لسقوط نفسه اذ ذاك في اسحق مهاوي الشـــك والخوف ، الشك في أنه على الهدى ، والخوف من عـذاب الله في الآخرة . وقد قام بخاطره أنه قد دنا أجله ، وشر من ذلك أنــه قد دنا عذابه الأبدي . أليس في ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته وإخلاصه ؟ لعله جعل يقـول في نفسه :

« من انت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ انت الذي ما عرفت إلا الشقاء والهوان . كلا ذلك مقام دونه الشمس ! »

ولم يكد يفهم كيف ان في الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار . فمن ثم هوت نفسه في اعتم ظلمات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار !

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل في مكتبة ارفورت ، حسنة من اكبر حسنات الزمن . ولم يك قط قبلها أبصر الانجيل ، فلقنه درساً خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانـه على ذلك اخ في الله قسيس ، فعلـّم

لوثر ان المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات ، وانما هو الله ومرحمته ، وذلك اقرب الى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وأنشب من مغفرة الله في ارسى طود وهضبة . ولا بدع أن جعل يقدس الانجيل الذي اسدى اليه تلك المنة ، فأجلّه كما يُجلّ مثله كلام الخالق . وعزم على أن لا يحيد عنه اصبعاً ، وقد كان منه ذلك حتى لقي ربه .

فكان ذلك خلاصه من اسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال الى الهدى . فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء . وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ما كان مكتتماً قبلُ في زوايا صدره من المواهب الالهية ، والصفات العلية . فأعظمه الرؤساء وبوأوه من الدرج ما هو اهله ، ووكلوا به امر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه اخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصدق . ثم اختاره امير المقاطعة فريدريك الملقب بالعاقل ، وكان عاقلاً عادلاً ، استاذاً في جامعة « وتنبرغ » فأحسن اداء ذلك العمل ، كما أحسن البلاء في جميع ما نيط به من الأمور ، وجعل من يوم الى آخر يعلو في انظار الناس ويتغلغل في نفوسهم .

وكان في السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة ، وكان اتاها برسالة كما قلت من ديره . ولا اخال الا ان لوثر عجب كل العجب لما ابصر ما حال البابا يوليوس الثاني وسائر احوال روما اذ ذاك . وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة ، عرش ولي الله في الأرض ، وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل ، فاذا هو بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين اثم ووزر ، وبلاء وشر ، وباطل ومنكر . وما أحسب الا ان هذه الحال السيئة قد بعثت خاطره في اودية الفكر وشعاب الظن ، ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلى لسانه ، ولا أسلمها وجدانه إلى بيانه . لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدىً ولا حقاً . ولكن ما له

ولذاك ؟ وانّى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالماً ويقلب دنيا ؟ حقاً ان لمثل هذا العمل لانساناً غيره أعظم قدراً واكبر خطراً . وحسب لوثر ان يوفقه الله الى هداه ، ويسدد الى خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه في خفية وغموض ، فاما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء ، ولله في خلقه شؤون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية وشأنها وعاد الى بلاده . نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها الا بعد ان تعرضت له . ولم ينقضّ عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته . ومن اكبر فضل الله انها هاجته واستثارته واستدعته بذلك الى شن الغارة عليها والايقاع بها . اذ ماذا كانت الحال تكون ، والى اي شيء كانت تصير الأمور ، لو لم يثر لوثر ثورة الاسد المخدر في وجه الباطل فيرد عرامه ويفل غربه ، ويكف منه عن العالم شراً مستطيراً كان يؤذن بالويل العظيم والخطب الجسيم والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الامر لو قد استمرت تلك السيطرة تضرب في سنن غوايتها وتمعن في طريق عمايتها ، من غير ان تعترض لوثر في سبيله وتصادفه في منهاجه فتضطره الى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لي أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها . وإنما يجعل الامر في ذلك لله ، شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذي لا يرى من شأنه ان يستطيل بالتسفيه على ذوي الامر ، من غير ان يكون ثمة موجب او علة . بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير ، ان ينصح لنفسه ويبغي بها جادة الحق ومنهج السداد . ولكن روما لم يكفها ما أتت في سائر الجهات والامصار من التضليل والتغرير ، حتى هجمت على لوثر في قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى . وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال : « لا » بملء فيه ، وبيان ذلك ان البابا « ليو » العاشر احتاج المال ، وكان مبذراً متلافاً ، فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، اذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج الى شفاعة بابا ولا

بطريق . وما هو بالسلعة تباع في السوق بالذهب والورق . وانما هي بضاعة لا ثمن لها الا الاخلاص الصريح والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبابتيه . فان كان لا بد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشياً في الناس ، فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الأوراق المدلسة المرذولة ، وكان يسميها صكوك الغفران ، ومع كل راهب صندوق فيقول للناس :

« من كان له في الجحيم صاحب او قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله الى الجنة فلينبذ في هذا الصندوق قرشاً ، فانه لا يكاد يصل قعره حتى يطير الروح المعذب من مثواه في النار الى انضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تتزل » على بضعة فراسخ من بلدة « وتنبرغ » حيث كان لوثر فأصغى اليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره أن بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من أوامره ، اتكالاً منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود . فقدح ذلك في احشاء لوثر ورأى انه قد آن له أن يثور في وجه البابوية ، ولم يخش الراهب « تتزل » بل قال :

« ان يشأ ربي وربكم فلأصدعنّ مروته ولأنختن اثلته . »

ثم كتب رسالة ابطل فيها عمل البابا وطعن في خطته ، وأرسل صورة منها الى بطريق مدينة « ماجدبرج » شيخ النصرانية بالمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة « وتنبرغ » ، فهب هذا النبأ مهبّ الريح في كل وجهة وطار في انحاء العالم الاوروبي مطير البرق .

وادبر الراهب « تتزل » فنزل بلدة فرانكفورت ، الواقعة على ضفة نهر « اودار » ، فكتب ردوداً على أقوال لوثر ونشرها ، فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة « وتنبرغ » ، وسمع البابا بذلك فقال متهكماً :

« لأخال ان لوثر هذا من نوابغ العالم » .

واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها ، ويجيئه زعماء البابوية وأنصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ، ويحمى به وبهم رطيس الجدال ، فيدمغ بالحق باطلهم ، ويدفع باليقين شبهاتهم . وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفد صبر البابا ، وذهب عنه ما ابقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة ، فنشر لائحة كفّر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة ، وأمر بكتاباته ان تُحرق ، وبه ان يرسل مكبلاً في الاغلال الى روما لعله ليحرق ايضاً ، فيلقى من الجزاء ما لقي القسيس « هاس » من قبله . ونعم المناظرة النار ... ما اخصر وما اسرع وما اقرب الى الغاية وحسم النزاع ! يا للظلم ويا للعجب ! يستدعي البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه ان لا يمسه بسوء ولا يناله بأذى ، ويحضر « هاس » رجلاً لا مشاغباً شديد الخصومة ، ولا مشاكساً الدّ الجدال ، وانما رجلاً سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان ، فيودعونه سجناً أضيق من بياض الميم ، ثلاث اذرع في مثلها ، ثم يضرمون عليه ناراً فيقطعون بصوارم اللهب صوتاً ما رفع الا في طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

انا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر في قيامه الآن ضد البابا ، فان ذلك البابا المترف الانيق الثوب السائغ الطعمة ، لما اوقد ناره لحريق مكتوبات لوثر ، اجج بها حنقاً وسعر بها غيظاً وحرداً في اشجع فؤاد كان اذ ذاك في العالم ، اشجع فؤاد واضرعه لله واشده تواضعاً . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين اطفاء . وكأني بلوثر يقول في نفسه حينذاك : « اتحرق يا هذا الرجل كتاباتي هذه وما أريدُ بها الا الحق والهدى ، ولم يُعمد بها الى غير الله ، وتسمي نفسك بعد ذلك إمام الناس وخليفة المسيح في الارض ؟ اتجعل الجواب على هذه الاوراق احراقها وما فيها الا عظة لك وحكمة ، وتريد ان تحرق كاتبها ؟ أأنت خليفة الله في ارضه ؟ كلا !

واني لأشهد على لائحتك تلك التي اصدرتها نقمة علي بالكذب والجور، وليس لها لدي الا النار ، ولتفعل بعد ذلك ما تشاء . »

ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره جمعاً ، ورفعوا ناراً فاحرقوا فيها لائحة البابا ، واكثروا عليها الهتاف والصياح ، بمرأى من مدينة « وتنبرغ » بل بمرأى من العالم اجمع . لك الله ايها البابا ! لبئسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة ، فانها صيحة استيقاظ الامم وانتباه العالم . لقد طالما اوغرت صدر المانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم، وحتى طفح ذاك الاناء ولم يبق في قوس الصبر منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال ، وتراخت مدة الباطل ، وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان ، وقد آن للحق أن يُميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمي الاصنام ومرجعي الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال ، وتلك وظيفة العظماء عامة . أولم يقل محمد « عليه السلام » للناس : « انما أصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ؟ » وهل كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له : « ما هذه الاوراق التي تسميها صكوك الغفران الا أكذوبة واضلولة ، وما انت والغفران للناس انما ذلك بيد الله . » الا كمقالة محمد ؟ لله انت يا لوثر أي كاشف غمة ، ومنقذ امة ، واي مرجم شياطين ، وسيف على رقاب الظالمين انت ! وبأبي انت اذ تقول ولا تبالي نيران البابا ولا جيوش السلطان : « إنما الغفران بيد الله والامر لله وحده . وان ما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور ، وكيف وما اراها الا اثواباً مرقوشة واوراقاً منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكوّن زعامة دينية ورعاية روحانية . وما دين الله وفردوسه وجحيمه بأباطيل كتلك ولا اكاذيب . فبهذا وحده اؤمن ، وبه اعتصم ، وعليه اقوم ، وفيه اضرب اوتادي وأرسي اطوادي ، واني اذ افعل ذلك لاقوى منكم جميعاً ، وعصمة الله امنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعاقل، وبأس الله من بأسكم اشد، وكيده من كيدكم اقوى . وانا وانتم

ينصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فازهقت ما دبروا احدى هناتك ايما ازهـاق

انا في وحدتي بهدي الله قوي ، وانتم في جموعكم بالضلال والكذب ضعاف . انا من طاعة الله مدجج في أكمل سلاح واحصن جنة ، وانتم من معصية الله في اسمال رثاث واطمار رعابيل ، منكشفو العورات حاسرو المقاتل . وانا من تقوى الله على صخرة اصلها تحت الثرى وفرعها في السماء ، وانتم في باطلكم كالمتكيء على الهواء والمعتمد على الماء ! »

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك ، ولعل هذا كان اجلّ مشهد في تاريخ اوربا ، والمنبع الذي منه فاض تاريخ المدنية الحديثة والذي كان من امر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما اعيته الحيل في لوثر ، ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر في شؤون الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده ، ولينتهي معه عند حال . وكان المجلس حافلاً بجميع الوجوه والأشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك . والى هذا الجمع الحاشد استدعي لوثر من قريته ليُسأل الا يزال مصرّاً على رأيه ؟ فيجيب نعم او لا . خصمان متواجهان، وقرنان متبارزان : احدهما قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الارض ، وثانيهما رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز لوثر » قائماً في نصرة الحق . وقد نصح اليه الاخوان أن لا يذهب ، وذكّروه بنبأ القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة ومزدجر ، فأغلق دون كلامهم أذنيه ومضى على عزيمته في الذهاب وصمم . وقال :

« تالله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى . »

وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها ، وهو سائر الغداة إلى الحفلة ، ان أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك ، واياك والانخذال والهزيمة ، وجعلوا يتمثلون له آية من الانجيل في ذلك المعنى . ذلك ما طلبه

اليه اهل وطنه ، وهل هو في الحقيقة إلا طلب العالم اجمع ، طلب العالم الذي جهدته أغلال الباطل ، وشفته ظلمات الضلال ، واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقي ، طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا ادركنا يا بطل الابطال ، فان مدار امرنا عليك وأرواحنا في يديك !

ولم يخذلهم لوثر ولا خيّب فيه آمالهم ، وقام في المجلس خطيباً ، فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ، ولحمته الاخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن ، وان كتاباته بعضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات خاطره فذاك مليء بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر ، واما ما كان مأخوذاً من قول الله فأساسه الحق ، وليس يبرأ منه يد الدهر . ثم سألهم ان يناضلوه بالحجة والدليل ، فاذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار الى ما يحبون ، الى ان قال :

« انا لا اخالف ما يأمرني به العقل والنهى ، ويوحي الي به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما في وسعي وطاقتي ، وليس لي عنه محيد ، ولا دونه مذهب ، وعلى الله اتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل . »

ألا ترون ايها الاخوان ان هذه كانت اخطر ساعة في التاريخ الحديث ، وان عليها قامت دعائم الدستور الانكليزي وبرلماناته ، والحرية الاميركية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها في انحاء الارض ؟ نعم في هذه الساعة غُرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر في تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب اخرى ! وكأنما العالم الاوربي كان ساعتئذ ماثلاً أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا ازال في محنة وبلاء يهوي بي النحس الى مساقط الجهل والشقاء ، ام يرزقني الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبطَ بنعاعم الراحة والصفاء ، بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يُمدح به لوثر أنه ثار في وجه الدين ثورته ، وأحـدث ذلك الانقلاب العظيم ، من غير ان يُهيج زوابع الفتنة او يُسعّر نيران الهيجاء ، بل حقن الدماء في الابدان والسيوف في الاجفان ، ولم يحوّل اليراع حساماً والقراطيس اعلاماً ، ولا استبدل من صرير القلم في الطروس صليل السيف في الرؤوس ، ولا من التناضل بالاقـوال التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم [1] موضع الكلام ، والجلاد بدل الجدال والخصام . وقلما نجد رجـلاً احدث امراً جللاً وهاج حركة هائلة ، الا غاله مما احدث غائلات ، والتهمه مما اثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الاوضاع المألوفة ومروق . وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما اوتيه من الحزم والبصيرة ، والحزم رأس بوارع الخصال وكرائم الخلال ، وداعيـة الصلاح وسائقة الفلاح .

ومن اكرم ما امتـاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الاساسي الجوهري من غيره ، فجاءه ذات يوم عن بعـض قسوس المذهب الجـديد انـه يعظ الناس في قلنسوتـه ، وكانت هذه سنة المذهـب الكاثـوليكي ، ومخالفـة لمبادىء الملة الجـديدة ، فلم يعبأ لوثر بتلـك الشكوى ، بل قال : « واي ضرر في القلنسـوة ، دعوه يلبس قلنسـوة او ثلاثاً اذا شاء ؟ »

وقد ذكر « ريشتار » لوثر فقال : « لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية ، وما اخطأ في قوله ، ولعل اهم صفـات لوثر هو انه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ويقاتل فينتصر ، وانه كان قطعة من الشجاعة وفلذة من المروءة ، ولا نعلم قط في التاريخ الحـديث والغابر انساناً اشجع قلباً من لوثر ، ولما قال في مدينة « ورمز » كلمته المأثورة وهي : « لو ان في ورمز من الشيـاطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتيه كما يكون في مثل

---

[1] الكلوم : جمع كلم ، وهو الجرح .

تلك المواطن، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله في مسالكهم بالشر والأذى . ومن يذهب إلى الغرفة التي كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل يرى على أحد حيطانهـا بقعة سوداء ، أثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن . وأصل ذلك ان لوثر كان جالساً في تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد واعياه الجهد ، وبلـغ منه المرض والصوم . وكان من أثر ذلك ان تراءى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة ، فحسبه ابليس أتاه ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار واخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد أملس ! واثر الدواة في الحائط باق الى الآن آية ودليلاً على امور شتى . وان في قدرة اي تلميذ بمدارس الطب ان يكشف لنا القنـــاع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها . ولكن اعتقاد لوثر ان الشبح القائم امامه هو إبليس ، ثم نهضته في وجه ابليس وقذفه اياه بالدواة ، دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غـايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم ، فهو أحرى ان لا يهاب ملوك الارض وجبابرتها . وقد كتب مرة العبارة الآتية « الشيطان يعلم أن عملي هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة ، فلقد طالمـــا رأيت الشياطين ونابذتها ، والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً . وأين هو من سطوة الشياطين ! فليعلم هذا الدوق أني لو شئت ان أدخل بلدة « ليبزيغ » لدخلتها قسراً وعنوة وجست خلالها ، ولو ان سماءها تمطر امثاله من الدوقات تسعة ايام وليال . » لك الله يا لوثر أي طوفان وسيل من الدوقات تريد ان تقتحم !..

وشد مـا يخطىء الذين يحسبـون ان شجـاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش والفتك ، وصنفاً من العناء والعصيان والخشونة والعجرفة ، وما أبعدها عن ذلك ، وانا لا انكر ان هناك ضرباً من قلة الخوف مصدره قلة العطف او قلة التفكير ، وربما كان منشأه وجود البغضاء والحنق الاعمى ، كشجـــاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ اما لوثر فكان غير ذلك البتة ، ولم ار تهمة اكذب من نسبة الفتك والقسوة اليه ، وكيف وما كان قلبه قط مجـــالاً لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذي مروءة وبر . والنمر إن صادف قرناً اشد منه

بطشاً فر هارباً ، فما هذه بشجاعة وإنمــا فتك وقسوة . ولست اعلم شيئاً أرق وألطف ممـــا كان يصدر عن فؤاد لوثر من انفاس المودة والعطف ، تلك التي كانت ارق من انفاس العاشق في الهجر، وانفاس النسيم في السحر . لله ما كان أرق هاتيك الانفاس ، وأعني بها كلمات الرجل ، وما كان اصفاها واخلصها من شوائب الرياء والكلفة ، واشبهها بالعـذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صبـــاه ، إلا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة ، مما يكون عـادة في القلوب الرقيقة والنفوس الحديـــدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهي حالة يصاب بهـا ذوو الرقة من الشعراء ، وقد اصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر . بل لقد بلغ من رقـــة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلاً ضعيفاً هيابة ، وعندي ان أكرم الشجاعة وأسماها بل اشدها واقواهـا ، هي المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا في كتاب لوثر المسمى « حديث المـائدة » ذلك الذي جمعه أصحابه بعد وفاته من اقواله وكلماته ، من الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله ! فمن ذلك ما ابداه عند وفاة حفيدة له من جلد في رقة وصبر في حرقة، وقوله انه استودع الصبية عند الله ولكنه لا يملك مع ذلك وجداً عليهـا حتى اوقد لوعته وهاج غلته ، كمداً والتياعاً وحنيناً ونزاعاً . ثم جعل وهو مشدوه حائر ينظر في اعقاب روحها الصاعدة الى الله قد غابت في اثنــاء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، ينظر دهشاً حائراً . وحسبكم ذلك دليلاً على صدق الرجل واخلاصه ، وعلمه انه رغماً من اختلاف الملـل وافتراق النحل . فاننّا معشر الآدميين لا نعلم شيئاً ولن نعلم ، وكل ما يدرك ازاء حادث الموت الذي اخترم حفيدته هو انها ستصبح عند الله ، وان الله ارأف بها وارحم ، وان خير الأمور له ان يسلم الأمر لله ، فالاسلام دينه ومذهبه !

ومن آيات عظمته انه اطـــل من نافذته مرة في جوف الليل ، فقال في نفسه : « عجباً لهذه القبة الزرقاء ، وهذا الفلك الدوار، وهذا السحاب الركام !

يا لله ما أروع وما اجل ! على أي دعامة تقوم هذه السماء ? لا دعـامة الا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد ، وأمطر من السماء ماء فاخرج به نباتـاً ، وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . ولما كان عائداً ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغارس القمح ، فقال : « ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء ، كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد . بركة تفطرت عنها احشاء الارض ، ونعمة سلتها يد الله من اغماد الثرى ».

ومن آياته ايضاً انه أبصر ذات مساء عصفوراً قد خيم في وكره على شجرة باحدى البساتين ، فقال : « عجباً لهذا العصفور ، ما راعه هول مـا فوقه من هذي السموات ، أن يطمئن في عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضاً امره للخـــالق الذي مهد له في جنابه ووطأ له في كنفه » هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفـكاهة تزين ديباجة كلمه ، وكذلك من كان قلبه امين النواحي رقيق الحواشي ، غزير مادة الحنان والحب ، وقدماً كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وامارة المروءة والبر !

ثم أما ترون في حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، وبجمع تفاريق هذه النزعات العالية ، وكم من معنى لطيف يعيـــا به البيان ، ووجدان شريف يعجز عن تأديته اللسان ، أداه الينا لسان مزماره وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول : « ان الشيــاطين لتفر من نغماته ، وتفقد عند وجود ألحانه ونبراته . » فلله انت ايها البطل من جامع الضدين ، ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وابالستهـــا ، ورقة جذبت بلبك نحو الانغـام ومطرباتها ، والالحان ومرقصاتها ، لهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال !

وأرى في وجه لوثر عنواناً على خُلقه ، فهو وجه خشن المـلامح تعرف في نتوء عظامه ووعورة أركانه معاني البأس والقوة والنشاط والهمة ، وفي العينين

حزن في صبر ووجد في سكينة ، وكآبة لا تكيّف ، ورقة لا توصف ، وتلك اصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبل. وقد قلنا ان الضحك كان مغروساً في طينة الرجل، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا ، وكان فيها ينابيع الدمع وبحاره، وخلجه وأنهاره . وكان اساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد . ولقد قال في اخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته انه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وان له عند الله امنية هي ان يريحه من متاعب الوجود ويقبضه اليه . ومن عابه بكلمته هذه واعتدها عليه فقد اخطأ ! وما احسب الا ان لوثر كان رجلاً كبيراً: كبير القلب، كبير العقل، كبير النفس ،رجلا من خيرة رجالنا وصفوتهم. ولا اراه الا كالجبل الأشم اصم الصخور صلد الصفا ، وفي نقره وثغبانه الماء الزلال، العذب السلسال، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة وترف بهجة وغضارة، الى زهر وريحان وفاكهة ألوان . وقصارى القول انه بطل ونبي ، ونتيج الطبيعة ، وسليل الحقيقة ، والجدير ان يحمد الله عليه هذه الاجيال ، ومن سوف يدرج على هذه الارض من غابر الناس ويدب .

ثم ان مذهب لوثر تفرق شعباً ، فأكرم شعبه واطيب فروعه ذلك الذي نبت في انكلترا اعني الملة البيوريتانية ، فاما في جرمانيا ذاتها فان البروتستانتية اخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الاديان الى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب إلى اللسان ، وعن العقيدة الى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت الى تلك المباحثات الجدلية التي كانت أيام الثورة الفرنسية . أما في بلادنا بريطانيا فقد اخذت البروتستانتية صورة اخرى هي البيوريتانية ، ثم غولي بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة « البريزباتيريانية » وهي الكنيسة القومية لاهالي اسكوتلاندة ، وهي ملة حق صريحة وعقيدة محضة صادقة ، مغرسها القلب وثمارها جمة في انحاء العالم البريطاني وحقيق بنا ان نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام « نوكس » ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها

البروتستانتية في انكلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية مذهب القسيس نوكس

●

في عام ١٥٢٥ رحل القسيس الانكليزي وليم تينداال الى بلدة لوثر «وتنبرنغ» منجذباً اليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه ، وكان القسيس تينداال شديد التدين والتقى ناقماً على الكاثوليكية ، فرحب بمذهب لوثر اي ترحيب ، وكان قبل رحلته الى جرمانيا بطويل قال لاحد القسوس الجدليين : « إن يطل الله مدتي لأتركن راعي الغنم وهو اعلم بكتاب الله منك » . ولما ذهب الى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال ، قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة ، قد أخلصوا لله وتفانوا في حبه ، وكانوا اذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسروراً .

وهنالك ترجم تينداال الانجيل وارسل ستة الاف نسخة منه الى انكلترا ، ولم يك هذا الكتاب قاصراً على ترجمة الانجيل بل كان بما ضمن من اقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الانكليزية بأشد المقت والانكار ، وامرت بعدد كبير من نسخه ان تحرق فاحرقت في مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزي . ولكن ذلك لم يمنع ارباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ، ومن الرسائل المهيجة التي كان يكتبها لوثر وأنصاره الى الاقطار الانكليزية ، ونشرها بين طبقات القراء من العمال والصناع والباعة . وكان المتولي لذلك جمعية اسمها « الاخوان النصارى » مؤلفة من بعض تجار لندن واهلها ، مركزها لندن ولكن رسلها تنتشر في سائر البقاع البريطانية . فوجدت هذه النسخ سبيلها الى الجامعتين كامبرج واكسفورد ، حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح الى المسائل الدينية ، وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والالهية . وكانت كامبريج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى الى اختها اكسفورد ، وكان من امر ذلك الهياج الذي اعقب انتشار النسخ المذكورة ما ألجأ الوزير ولزي الى مؤاخذة الهائجين ، فزج عدة من قسوس اكسفورد في السجن واحرقت كتبهم ، ولكن

ولزي لم يتجاوز في عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق ، وانما صرفته شؤون السياسة عن مسائل الدين !

وكان لانتشار الانجيل بين سكان بريطانيا من التغير الاخلاقي ما لم يسبق له مثال في تاريخ البشر ، اذ أصبحت انكلترا امة كتاب ، وهذا الكتاب هو الانجيل . نعم اصبح الانجيل كتاب كل انكليزي ، يتلى في الكنائس وفي المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذاناً لم تخلقها كثرة الاعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ما حركت ، وهزت من كل جنان أريحيته ، وهاجت من كل قلب غيرته في الله وصبوته .

وحب الامة للانجيل راجع الى علة خلاف السبب الديني ، وذلك انه كاد يكون اول كتاب ادبي نظر فيه الشعب الانكليزي ، وتنزه في رياضه وجناته ، وجنى ازهاره وثمراته . ولم يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانكليز من اسفار الادب الا ما كان كتبه « ويكليف » وكاد ان يُنسى ، والا ما نظمه الشاعر « تشوسار » وكان لا يعرفه الا الاقلون . نعم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل في اللسان الانكليزي تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار . فلا غرو ان اصبح الشعب الانكليزي يرهف الآذان لاستماع عبارات الانجيل ، فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص واغاني الحرب واناشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل ومزاجر الانبياء ، وحكايات الاسفار البرية والاخطار البحرية ، وجولات القسوس في بلاد الوثنية ، وفي المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة . فقد كان اذ ذاك نهضتان : علمية احدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ، ودينية احدثها كشف خبايا الكتاب المقدس ، والثانية أبعد اشواطاً وأمد انفاساً ، واعمق غوراً واطول اغراساً ، من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام ، في حين انحصار الاولى في دوائر العلية المتأدبين . وذلك انه لما لم يك في طاقة الترجمة ان تنقل الى الانكليزية براعات اللسان اليوناني ، تُركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة في خدورها فلم يستطع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم

قليل . ولكن آيات الكتاب المقدس كانت اسمح ما يكون قيــاداً في عنان الترجمة ، حتى أصبحت في ثوب الانكليزية مثلها في حلتها الاصلية حسناً وبهاء وبهجة ورواء . بل اصبحت أشرف ما لدينا من تحف اليراع الانكليزي وأكرم نفائسه . واسلوبها ميزان الاساليب في الانشاء ، ونظامهـــا معيار النظم في الكتابة ، بل ان أثره في نفوسهم ككتاب ادبي . واذا تذكرنا ما هو مبثوث في عرض كلامنا العادي من كلمات كبار مؤلفينـــا ، اعني تلك الشذور التي تسربت الى احاديثنا من دواوين شكسبير وملتون وصحائف دكنز وثكري ، أدركنا كيف كان اللسان الانكليزي في تلك الاوقات يأخذ من ترجمة الانجيل زخارفه وحليه .

واعظم من اثر الانجيل في الادب ولغة المحاورة ، أثره في اخـلاق القوم . لقد كان الانجيل يفعل بالالباب اذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحـــاضرات والخطب والمواعظ . وكان من اثره انه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة واحوال الانسان ، وبعث في جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحاً جديدة اخلاقية واخرى دينية ، ونفض الدين صبغته على الكتابة فما من رسالة تصدر الا وبها عرق زاخر بالورع والتقى. وهكذا خلفت الكتابات الدينية في ذاك الوقت ، ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية . وقد قـال جروشاس وذكر انكلترا : « اصبحت السيادة فيهـــا للدين » وقصارى القول ان البلاد أمست وهي كنيسة كبيرة ، ومسألة الموت وما وراء الموت ، تلك المعضلة التي اعتاصت على ذوي الالبــاب واولي النهى في عصر شكسبير فما عرفوا لها حلاً ، عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها . ولم تك البيوريتانية في اول امرها تقشفاً وتعصبا ، ولم تتعد الى ملاهي اربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها ، وانما كان البيوريتاني في اول الامر كما قيل :

فلله مني جانب لا أضيعه   وللهو مني والخلاعة جانبُ

فمن ادلة ذلك ان احدى السيدات لما صورت زوجها القائد تشنسون وكان

بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها الى ابراز جماله كما كان ايام صباه ، ولو كان أمر التقشف والورع امكن في نفوسهم اذ ذاك من امر الزخرف والزينة ، لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك . ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الوضاح كاللآلىء النسق والاقاح ، وجبين كأنه المصباح او فلق الأصباح ، ولمة حالكة مدلهمة فهي كما قيل :

وجاء بها ثور ترف كأنهـــا سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحـــة تقواه ، مولعاً بالصيد والقنص ، مغرماً بالمسابقـة والرقص ، كلفاً بالفنون الجميلة ، ما تزال تستخفه قصيدة وتستفزه صورة ، وتستبيه نغمـــة ، وتطبيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل ، وغرس واستـأصل ، واصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتاني بعد عزوفاً عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال ، وعدل بصباباته عن مراتع الوخـامة والوبال الى مقامات الشرف والكمال ، فكان اباً رحيماً ، وخلاً حمياً ، وزوجاً شفيقاً ، وأخاً رفيقاً ، ولم يك قط في فتنة النساء مـــا يحرك شهوته بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب ، شامس العطف عن المغريات ، تجده الفتنة باصعب مرام وأوعر ملتمس ، عفيف النفس عفيف الطرف ، طيب معقد الازار ، يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر ، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتـاني حسن القصد في أموره قليل السرف ، يباكر شؤونه والبركة في البكور ، لا ونية عنده ولا فتور ، مشمراً من ذيله منكمشاً في عمله . وكان احسن مـا وفق اليه من المحـامد فضيـلة المســاواة ، وذلك ان أخاهم في الله أنســاهم ما كان قبـلُ راسخاً في نفـوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل المقامـات ، حتى كان احقر فلاح يعتقد ان الله قد شرّفه وقدسه ، وحتى صار اكبر الوجوه والأعيان يوقّر مساكين الأبرار وصعاليك الأتقياء الأخيـــار ولكن افراطهم ذلك في حب الفضيلة

والتقى ، وان عاد بالقوة على أخلاقهم ، فأنه ضيّق دائرة رحمتهم وفهمهم . وقد ظهر اثر ذلك في الشاعر الكبير البيوريتـاني ملتون : في احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » ، وعزوفه عما يحيط به من اساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه شكسبير لا يظهر ارتياحاً الى مجون ذلك الشاعر الاكبر ومزاحه . واذا كانت هذه حال ملتون وهو يُعدّ سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت الحال مع من هم اقل أدباً وعلماً ، وأجمد قريحة واكثف فهماً .

نعم لقد آل ذلك التشدد في التدين والافراط في التورع بهؤلاء القوم الى أجمد اساليب الحياة وأمرها واكرهها ، وأبعدها من الالفة وحسن العشرة . وأصبح البيوريتـاني وليست الرابطة بينه وبين الغير هي رابطة الانسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين اصفياء الله واوليائه . وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وانما هم منه براء . وان نفور البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشي الفعال . وهذا كروموبل تراه بينما قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر في واقعة « بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزاً كخائب وظافراً كمنهزم ، تراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع امضاءه على الأمر الصادر باعدام الملك « شارل الأول » ، وما ذلك الا لاعتقاده ان ذلك الامير المنكود الحظ من المعشر الضالين ، وليس هو لغلظ في كبده او فظاظة في طبعه .

وكان من اثر تفانيهم في الله ان ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى في اصغر الأشياء ، وهكذا تحولت حقائر الامور — في حرارة التدين ووهج الغيرة — جسائم وعظائم ، واصبح احدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد او كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق . وباتت الحياة وهي عبء من الاعباء وسخرة خالية من اللذة ، وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباهج

العهد الاليصاباتي ومفارحه ومآنسه وممــارحه ، مرارة البيوريتانية وجدها وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتاني مصاباً فوق كل ذلك بمخــافة عذاب النار وهول القيامة ، ويقضي الكثير من وقته نهب هـاتيك الوساوس وتلك الهواجس ، وكان في شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل اليهم ان حياة الناس العادية نوع من الاثم والخطيئة . ولقد قال احد كبار البيوريتانية اوليفر كروموبل : « لشد ما غويت وضللت أيام الشباب » وما ادراك ما هذا الضلال ومـا تلك الغواية ، هي انه كان يبـاشر الطيّب الحـلال من ملاهي الشباب ولذاته ، ويعوزه ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ، ولا بأس على الشاب في ان لا يكون كذلك .

ثم انظر الى جون بانيان صاحب الكتاب الجليـل « سيرة الحاج » كيف حدث عن نفسه ، فقال : « لما كنت صبيـاً في التاسعة من عمري ، كانت تحضرني خواطر الموت ، وهواجس النـار والحشر والجنة وما أشبه ذلك ، فـكانت مبعث رعب لي ، ومثار قلق وكرب تعتريني أثناء لعبي مع الصبية ، عظةً من الله ومزجرة ، ولكني كنت اهملهـا وآبى الا اقامةً على ذنوبي ومآثمي . » أفتدري ما هي تلك الذنوب التي أبى الا الاقامة عليهـا ؟ هي نوع من لعب الاطفال وصنف من الرقص ، فأما عيبه الحقيقي ، وهو الاكثار من الحلف ، فقد كان أقلع عنه عملاً بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فأنكرته ، وكان له ولوع شديد بسماع الاجراس تقرع ، وكان يحسب ذلك مـأثماً ، فـكان لا يزال يذهب الى موضع تلـك الأجراس من الكنيسـة ، فيقف تحتها وهي تقرع ، حتى يخيل اليه ان الله سيرميه بإحداها ، فيفر هارباً . وانصرف حيناً عن الرقص والالعاب ، ثم عاد اليها ، وفي ذلك يقول : « لقد صرفتني عظة رجل من القسوس عن الألعـاب ، ثم ما لبثت ان استهوتني بلذاتها . فاني ذات يـوم لألاعب قطتي ، وقـد لطمتها لطمة وهممت ان ألطمهـا الثانية ، واذا بصوت من السماء قد نفذ الى صميم قلبي ، وكأنما يقول : « أيها

تفضل وتختار : ترك الذنوب ونعيم الجنــة ، أم الاقامة عليها وعذاب النار ؟ فأصابتني لذلك دهشة ، وأطلقت القطـة ، ورفعت طرفي الى السماء ، وكأنما رأيت بعينيْ ذهني السيد المسيح ينظر اليّ كالغاضب عليّ ، وكأنه يتهـددني بعقوبة صارمة ، إن انا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام . »

كذلك كانت البيوريتانية مزيجاً من النقص والفضل ، وخليطـــاً من السخف والنبل . ولنا ان نذم من تلك عيوبها ما شئنا ، ولكنه لا يسعنـا مع ذلك ، الا الاعتراف بأنه لا يزال فيهـا ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعدُ غرسٌ غرسته الطبيعة ، وما أن تزال تتفقده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت ان الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق ، وما خاب وانهزم فهو باطل ، فالقوة مقياس الفضل . خذ مثلاً عظمة امريكا الحالية ، وانظر ماذا كان اصلها ومنشأها . الله يعلم ان منشأها لم يك الا فئة ضعيفة بيوريتانية من اهالي هولاندة أضرّ بهم جورُ السلطان ، وشفهم ظلم الحكومة ، فخرجوا من ديارهم ، وهاجروا منذ قرنين الى امريكا في تلك السفينـــة الصغيرة المسماة « زهرة الربيع » ! ولو كان لنـا خيـال اليونان وشاعريتهم لقلنا في ذلك الحادث القصيد المحبر ، ولكن حسبنـا ان الطبيعة كتبت في الحادث المذكور ، قصيدتها الغراء ، بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العـــالم . ولقد كان بأميركا قبل تلك الفئة البيوريتانية ، جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولكنهم لم يكـونوا الا كجسم ميت ، فلما نزلت تلك الفئـة فيهم كانت كأنها الروح دبت في الجثة الهامدة فأحيتها . نعم لقـــد ضاقت بهؤلاء القـــوم بلادهم فعزموا على انتجاع امريكا ، وما ادراك مـا هي امريكا اذ ذاك : غابات خضر ، وآجام سود مسـدودة ، عذراء لم تفترعها قدم ، ولا فتحت اغلاقها يدان ، مستبهمة العالم طامسة الأعلام ، وامم همج وحشية . ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمـــة ، والملوك الغاشمة ، وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبـة جانب الطبيعة هنالك ، فان في الرياضة ما يذلل انفها ويلين عطفها ، ويستغزر درهـا ويستدر خيرها ،

وانهم سيجدون من الارض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ، ويستقرون في حيث تنام عنهم الحادثات ، وتلهو صروف الدهر ، فيقضون اعمارهم بالعبادة والتقى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم ، اخذوا عددهم وشحنوا امتعتهم ، واستأجروا مركباً - السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع - واستقبلوا به عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة اقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ، ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً ، وان تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك اخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعاً الى رازق النسر في السماء ، والحوت في بطن الماء ، أن ينظر اليهم بعين عنايته ، ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلهم بجناح رعايته ، ويكون لهم في بلاد الغربة وديار الوحشة ، حرزاً منيعاً وروضاً مريعاً ، وكنا دفيئاً ، ودثاراً وطيئاً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على ايديهم نفاذ أمر من أجل اموره ، وان كان قدرهم اذ ذاك لم يك الا صغيراً ، فأول النار شرر ، وأول الغيث قطر ، وكل شيء حق فيها ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ما ضخماً جسيماً :

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى أقمرا

والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفاً ، فلا يستطيعون ان يسخروا منها الآن ، وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها ، وحملت الحذق واللباقة في أصابعها العشر ، والبطش والقوة في قوائمها الاربع ، واصبح في وسعها نزف البحار ، ونسف الجبال ، وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام ، فهي الآن من أشد قوى العالم !

●

ولست أرى في تاريخ اسكوتلندة عصراً جديرا بالذكر ، الا ذلك

الذي حدثت فيه بيوريتانية « نوكس » ، وما ظنك ببلاد قفرة لا تغبها المشاحنات من اهلها والمشاغبات والفتن والمذابح ، ناس في ادنى حضيض الغلظة والسقوط ، احسن بقليل من أهالي ايرلندة الحاليين ، طوائف من جياع الامراء والسادة ، أبى عليهم جهلهم وحماقتهم ان يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التي سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم . ولكنهم كالجمهوريات الكولومبية الحالية ، لا يستطيعون ان يحدثوا تغييراً ما حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون الى تبديل الوزارة سبيلاً الا شنق أفراد تلك الوزارة . أشجاعة هذه ؟ نعم ، ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الوثنيين من سكان الشمال ، اولئك الذين لا نجد في مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئاً يذكر . أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسماً بلا روح ، حتى نفخ الله فيها من نهضة نوكس روحاً ، فاصبح كل فرد بها براً صالحاً تقياً ، وان تشأ فقل بطلا ورسولاً ونبياً .

ومما يقال في مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ولا بلغها بوسيلة ، وإنما أتته من تلقاء نفسها ، وذلك بعد أن أوفى على عقد الاربعين ، وكان من امره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، فقضى أيام صباه في المدارس ، ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد : مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل في شؤون الغير بالاقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم ، وكان يكتسب بالقاء الدروس في الأسرات الكريمة ، يشرح مبادىء مذهبه إذا سئل ، ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب انه يستطيع أكثر من ذلك . وعلى هذه الصورة قضى اربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم ، وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين ، وكان نوكس بينهم ، وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ، ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم . قال فيما قال « أنه لا بأس ان يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وانه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ، ولساناً ناطقاً ، ان

يكد في نشر الحق لسانه ، ويبح في الارشاد الى الصواب ؛ وان جون نوكس هو ذلكم الرجل ! » ثم التفت الى القـــوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ، اذن فما قعوده عن الارشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقالته وقالوا إنه عمل غير صالح ، فاضطر نوكس الى الوقوف للكلام ، ولكنــه ارتج عليه ، فلبث برهة صامتاً حائراً ثم اجهش بالبكاء ، وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً !

ومن ذلك الوقت فصاعداً ثار ثورته ، وأشعل المذهب البيوريتـاني في قلوب الناس اشعالاً ، حتى عادت الامة الاسكوتلندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنيسة ، وبدأ الناس يحيون . واعتقادي ان كل ما جاء بعـد ذلك من آداب اسكوتلاندة وافـكارها وصنـاعاتها ، اثر من آثار تلك النهضة ، بل ان من آثارها ايضاً ونتائجها اولئك الرجال الذين هم فخر الامة الاسكوتلاندية : جيمس وات ودافيد هيوم ووالتر سكوت وروبرت بارنز . واني لأجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهمـــا في قلب كل واحد من اولئك الابطال وهاتيك العوارض . وأرى انها ما كانت تكون قـط لولا البيوريتانية . نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع انحاء الدولة البريطانية ، وذلك انها شبت جمرة في كنيسة ادنبرغ « عاصمة اسكوتلاندة » ، فاذا هي قد صـارت حريقاً اسرع في كل جانب من جوانب بريطانيا . بعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاماً ، زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل في ذلـك للذين جاهدوا لنا وكافحوا ، ولم ينعموا بثمرة كدهم ونعمنا بها دونهم . وما تلك بالقسمة العدل ان يصطلوا نار الجحيم ، ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل وهم يكابدون لذع أبرها . وتلك حال هي كما قلت ، أشبه بحـــال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخنـدق المحفور فتسدها بجثثها ، لكي يجوز الباقون على تلك الاجسام ، كأنها قنطرة فيفتحون القلعة ويملكونها ، فسبحان قاسم الحظوظ : لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك

الموت الاحمر ! وكم من رجال كنوكس وكرومويل كافحوا وجاهدوا ، وقاسوا وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب والبلاء ، بل اللوم والتفنيد ، والهجو والتنديد ، قبل ان يسوق الله للبلاد الحرية ، ترفل في الاوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وانه لمن افحش الجور ان تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيبٌ وعار ان لا تزال الاجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه للمحاكمة ، كأنه بعض الجناة المجرمين ، ولا جرم له الا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ، والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، والا انه كان يحمل تحت ضلوعه اشجع فؤاد في الاقطار البريطانية ، وانه كان ولا مشاحة انبل ابناء جلدته وانجدهم . ولو كان متقاعس الهم ، متقاعد العزم ، للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تُنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء ، وراح هو بعرض بريء الساحة املس الجانب ، ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم ، فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم الجليلة على العالم اجمع . فواعجباً ان يحمل ذلك البطل على ان يستغفر لنفسه من ذنب المروءة واثم الجد ، وان يسأل اسكوتلاندة العفو ، لأنه كان انفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا ذنبه ، فهم في مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفي غير حاجة الى مثل ما يقدمه من الاعذار ! وهل في العدل ان يحل ذلك برجل باع اللذة في سوق الحق بالالم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعترك بلا درع ولا جنة ، وأهدف للسهام صدره ، واحتمل في الله النفي والأسر ، يسام العذاب الوانا ، ويعرض للرعود القواصف ، والرياح العواصف ، الى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء . ولكن ليقل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم ، وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون ، وان كان يعنينا نحن ان

ندفع الظلم عن رجل لا نزال نرتع في غرس يديه ، وان نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وارى ان اول شروطنا في البطولة ، اعني الاخلاص ، ينطبق تماماً على نوكس ، وليس احد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته ، فقد كان من اشد الناس اخلاصاً . وكيف وانما كان بالحق لا غيره يتشبث ، وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحاً باطلاً فيدعه . ولما نفي اسيراً مع اصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا ، بعد سقوط حصنهم إثر حصار طويل : جاءهم احد السجانين يوماً بصورة مريم وسألهم ان يركعوا لها ، فقال نوكس : «اتزعم هذه أم المسيح؟ كلا ما هذه الا قطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها ان تطفو على مياه هذا النهر . » ثم تناولها فالقى بها في اليم . ولم يكن مثل هذا المزح بالشيء الرخيص إذ ذاك ، ولكن نوكس لا يبالي في سبيل الحق ما يبذل .

وكان يسلي صحبه في النكراء ، ويعزيهم في المحنة السوداء ، ويقول لهم : « سيظهر الله الحقّ مهما لجّ به الخفاء ، والحق ابلج ، والباطل لجلج ، وأخو الباطل على الايام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور ، والحق سنة الديان ، والباطل مسلك الشيطان ، ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق . » فمثل هذا البطل ممن لا حياة له الا في عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق في أطراف الصخرة الركود ، وما احسب إلا ان الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء ، فهو نبي القلب ، وان لم يكن نبي اللسان ، وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه انسان » . وهو اشبه المحدثين بالانبياء الاولين ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته والتفاني في الله ، وتضحية كل شيء في تلك السبيل ، وشدة الانحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوي والخطة المثلى ، فيا له من نبي عتيق في ثياب قسيس محدث ، وما ينبغي لنا الا ان نعده كذلك ، ولا

نأسف انه كان كذلك .

وقد انكر الناس سيرته مع الملكة ماري ، وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه . هكذا يزعم الناس ، ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف ما يزعمون ، ولم يرَ لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب اليها . بل اني لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال اذ ذاك ! ولم يمثُل نوكس امام الملكة ليعطيها ملق الحاشية ، وانما لامر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم يرَ فيها الا قحة سوقي لأميرة أخطأ وجه الحقيقة وأشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل إذ ذاك ان يجمع جامع بين التأدب في حضرة الأميرة ، وبين مصلحة الامة الاسكوتلندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ ان يحمي البلاد من ايدي الاجانب من امراء فرنسا ، ويربأ بها عن ان تكون مدبّاً لمكايد أمثال « دي غيز » ومسرحاً لمطامعهم ، ويعزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطىء الاقدام ، ومواطن الكذب والضلال ، فغير مليء ان يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الاطراء إلى الحظوة لدى الاميرة والحال عندها . وما أصدق قول « مورتون » حيث يقول : « لأن تبكي النساء خير من ان تخضلّ اللحى بدموع الرجال . »

وماذا كان نوكس يفعل وقد رأى الاوطان قد خانها الاعوان ، ونام عنها الانصار ، وتواكل من اشرافها وتخاذل من عيونها واعلامها من كان يُرجّى للكريهة ، ويُدّخر للجُلى ؟ أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ، ويخنس فيمن تقاعس ، ويتركها نهباً لايدي الحوادث ، وغرضاً لسهام الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال ، وتلك سجية الابطال ، وهذا امر دونه خرط القتاد ، وضرب الاجياد . وقالت له الأميرة ماري حين جاء ينصحها : « من هذا الذي قد بلغ من جرأته انه تكلف نصيحة وجود هذه المملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : « سيدتي ! رجل من رعايا هذه المملكة وابنائها . » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا انكر ان التسامح محمود بشرط ان لا يتجاوز الصغائر الى الكبائر ، والقشور الى الجوهر ، وانما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، وان لا يكون المرء لئيم القدرة . فامـــا التسامح مطلقاً بلا حد فهذا من المنكر الذي من حق النبــلاء ان يترفعوا عنه .
وما ارسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ، ويهزموا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح في جرائم الكذب والسرقة والظلم اذا اصابتنا ، وانما نخاطبها بقولنا : « انت اكذوبة ، وانت سرقة ، وانت ظلامة ، لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك ! » وانما نحن في هذا العـــالم لنخمد الاكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشدداً النكير على طريقة استئصال الباطل ، وان شابها العيب ، فحسبها ان بلغتنا الغرض من ازالة الشر ومحو الباطل . ومن هذه الوجهة ، اعني من وجهة محو الضلال ، ولو بواسطة معيبة – بالواسطة التي لم يمكن غيرها – كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفي الى بلاد الغربـــة اسيراً سجيناً ، ليكون في معظم اوقاته إلا مرّ الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط أن نوكس كان في طبعه عذوبة ، وفي جانبه لين ودماثة ، ولا انه كان سيء الخلق شرس الشيمة ، ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هـذا ولقد كان في جرأته على الملكـــة باللوم ، وفي رجاحة وزنه عند اشراف اسكوتلاندة ، اولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح – واستطـاعته ان يقبض على زمام النفوذ في تلك البلاد الوحشية العاتية زمناً طويلاً – لقد كان في كل ذلك دليل على ان الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وانما كان رجلاً حمالاً للعبء ، نهاضاً بالفادح من الامر ، مضطلعاً بالباهظ من الخطب ، ولا يكون ذلك الا لمن أوتي بسطة في الحلم وفضلاً في الذكاء والعقل . وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثورياً مخرباً ، وانما امره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الا الزور والفساد وغسل القلوب من كل دنس ورجس ، نعم ولا كان ديدنه الثورة بل النظام التام . وانما كان من سوء حظه ان الجيءَ الى الثورة في سبيل امضاء

عزمه . وما كان مثل هـذا الرجل ليكون الا عدواً للثورة والفوضى . ولكن مـــاذا يصنع اذا لم يجد بداً من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها والرجل المضطر يركب الصعب وهو عالم بركوبه ، هـذا وانه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر ان نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة ، وكان بصيراً بمواضع الضحك في كل شيء ، وصفحة تاريخـه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلي من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسس بباب كنيسة « غلاسكو » على الاولية في الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما ، وعلا الضجيج ، وتخابطا بعصويهما ، كان لنوكس في هذا المنظر مضحك فيه اي مضحك ، ضحك مع التهكم والازدراء والمرارة شيء من الرحمة والرثاء والعطف ، لا قهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقـــاً ! ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبني آدم ، اخ للقـــوي واخ للضعيف ، صاحب للوضيع ، صاحب للشريف ، وكان يتناول الكأس في حان الخمار بمدينة ادنبرغ — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وانه لم يك كما يزعم النـاس بالشرس النكد ، الجعد الاخلاق ، الجهم الطلعة ، المكفهر الجبين ، المتعصب الصخـاب . كلا انه كان من اثبت الناس امراً وارسخهم حـالاً ، حازم بصير جلد صبور ، طويل الإغضاء عن الامر الذي لا يفسد عليه امره ، فـــان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على اقدم ، فهو كما قيل :

صفوح اذا ما الذنب لم يعد حده   الى الوتر تبّاع قفـا الوتر أرقم

وكما قيل :

له سورة مكتنـّة في سكينة   كما اكتن في الغمد الجراز المهند

لقد جاهد هذا البطل في الله حق جهـاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ، ينافح الامراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تفل من حده الخطوب النوازل ، وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه   يريك الهوينا والامور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول في صفحتيه رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وان كان بضربيه فلول وثلم . وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره،فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه سألوه : « هل عندك امل ؟ » فرفع اصبعه يشير بها نحو السماء ، ثم فاض له المجد والشرف وسقى عهده الغمام !

كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ، ورئاسة القسوس على الملوك . او بعبارة اخرى حاول ان يجعل على اسكوتلانـدة حكومة دينية . وهذه في نظر الناس جريمته . وحقاً لقد حاول ان يسير الناس جميعاً على كتاب الله ملوكاً وسوقة ، وان يعلموا ان هذا قانونهم الذي ليس فوقه قانون . وشد ما ساءه اغتصاب جياع الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول ان هذه ليست ملكاً مدنيـاً وانها ملك ديني ، وحقها ان توقف على منفعة الكنيسة : على التعليم والمدارس والعبادة . فأجابه الوصي « موران » مستهزئاً : « هـذه احلام تقيـة ! »

ذلك مذهب « نوكس » الذي سعى في تحقيقه ، وإنه وان يك أخفق في بلوغ ذلك ، ولكنه لم يخفق في احياء الدين وبعث الامة من طول رقادهـا ، مبعثاً كان اصل رقيها ونهضتها ومجدها وعظمتها . وكيف ينعى النـاس عليه مذهبه ، كيف ينكرون منه محاولته ان يجعل الحكومة لله وتلك ما لا نزال نحاول ونرجو ! وما جاءت الرسل والقسوس الا لذلك. وقد ارادها «هلدبراند» وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » ! او لم تزل امنية كل غيور مخلص وكل ولي تقي ، وكل رسول نبي ! ولا يسعنـا الا شكر ذاك القسيس البطل الذي حاول جهده تحقيق هذه الأمنية ، وأفنى في طلبهـا أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحبس والاسر .

البطل في صورة كاتب

جونسون - روسّو - بارنز

الآلهة والانبيـاء والشعراء والقسوس هي صور بطلية تتعلق بالازمان الماضية وتظهر في العصور الخالية ، وقد اصبح ظهور بعضها في العـالم ضرباً من المحال . فأما البطل الكاتب الذي سنتكلم عنه الآن ، فـانه من نتائج هذه الاعصر الحديثة ، وسيدوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة : الكتابة ، وهاتيك الحرفة الحديثة : الطباعة . وهذا الصنف من الابطال بعدُ إحدى نوادر الدهر .

اقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له في الوجود مائة عام . ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهـذا الاساوب العجيب ، ينفث وحي ضميره في صفحات الكتب ، ويطيرها في انحاء الارض باجنحة الأوراق ، فينال معاشاً ومنزلة مما يسخو له به أهل هذا العـالم جزاء عمله ذاك . وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحي ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك في الاسواق هـذا العرض المبين . ويا له من منظر عجب ، منظر الكاتب في أسماله البالية وحجرته الخـاوية ، يسوس من وراء قبره بعد مماته ، من أمم العالم وأجيال الارض ، من ضنوا عليه اثنـاء حياته بالقوت الضروري . بلى عجب وربكم وأي عجب ! ولم أر في ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك .

ويا أسفاه ان البطل ما برح من قديم الأزل يلبس للناس ازياء شتى واشكالاً مستغربة ، ومـا برحت الدنيا تحار في كنهه لغرابة منظره فلا تدري ما تصنع به ! ونحن ننكر من القدماء ان يحملهم فرط الاعجاب بالبطل على ان يعدّوه الهاً أو نبياً . واولى بالانكار ان يرسل الله لخلقه بطـلاً مثل جونسون او روسو

او بارنز ، فتقتحمهم عيون الناس ولا يرونهم الا عجزة ومكاسيل ، لا فضل لهم الا بضع كلمات اكثر ما فيها انها ملهاة القوم ومدفعة لآناء السأم والملل ، ينبذ اليه في ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق . أليس هذا اولى بالانكار والنقمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة ، وجب علينا ان نجعل البطل الكاتب امامنا وقائدنا ، وان لا نقدم عليه مخلوقاً مهما عظم ، فهو روح العالم في اي صورة برز واي زي لبس ، وما يقوله كان حتماً على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجبه ، وهيئة استقبال الدنيا اياه ومعاملتها له هي عنوان رفعتها أو ضعتها ، دليل سموها او انحطاطها ، مقياس قيمتها وفضلها . ونظرتنا في سيرته نظرة في لباب حياة تلك العصور التي هو ثمرتها والتي نعيش فيها نحن .

والكاتب صنفان جيد ورديء شأن كل شيء في هذا الوجود ، فاذا دل بلفظة بطل على الجودة ، فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفة كأشرف ما يكون وأعلى . فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه ، وهذا اكثر ما يستطيع امرؤ ان يفعله . وهو قبضة من طينة الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدي . وكذلك حياة كل امرىء ، ولكن الضعاف الاكثرين لا يعلمون عن انفسهم ذلك ، ولا يخلصون لتلك الحقيقة ، والاقوياء الاقلون اقوياء ابطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب اعينهم . والكاتب البطل مرسل الى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهي عين الوظيفة التي كان القدماء يسمون صاحبها إلهاً أو نبياً او قسيساً ، وهي التي ما ارسل بطل الى العالم الا لكي يؤديها .

وقد القى الفيلسوف الالماني « فيختـه » منذ اربعين عاماً سلسلة خطب في موضوع « طبيعـة الرجل الكاتب » ، فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانيـة التي كان هو احـد اساتذتها : « ان جميع ما نبصر من الأشياء ، ولاسيما نحن وسائر الآدميين ، انما هي اثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » ، وتلك هي الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر . واغلب الناس في عمى عن هذا المعنى ، وانما يعيشون بين الظواهر

و القشور والماديات ، غير خاطر بباهم ان تحت ذلك شيئاً مقدساً . ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . » هذا كلام فيخته ولا حاجة بنا الى معارضته ، وإنما هو اسلوبه في بيان ما انا باذل الجهد عبثاً في بيانه ، وتسمية ما لا أستطيع ان اسميه ، وليس له حتى اللحظة اسم – أعني الحقيقة الالهية ، التي كلها رونق وعجب وروعة ، والكامنة في كيان كل امرىء وكل شيء : وجود الاله الذي خلق كل امرىء وكل شيء . وقد علم محمد هذا الدرس باسلوبه ، وألقاه اودين باسلوبه . وهو الدرس الذي ما زال كل ذي قلب حي يلقن الناس بهذه الطريقة او تلك .

ولذلك يسمي « فيخته » الكاتب نبياً او قسيساً لا يزال يجلو لابصار العالم المعاني المقدسة ، والكتاب كنيسة مستمرة تعلم الناس ان الله موجود ، وان جميع الظواهر وكل ما نراه في الكون انما هي ثوب « لمعنى الدنيا المقدس » : ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » فما من كاتب صادق الا وفيه سر الهي ، سواء اعترف بذلك الناس ام لم يعترفوا . فهو سراج يستضاء به ، وقسيس ينصح ويعظ ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم ومسلكهم المبهم ، في معامي الوقت وقفار الدهر ، كأنه عمود من النور . ويشدد فيخته جداً في التمييز بين الكاتب الصادق الذي نسميه هنا الكاتب البطل وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الابطال . فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس » على جميع نفسه ، او اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول ان يدخل البقية في طي ذلك المعنى ، فهو دعي وأفاك ومزور ، بل هو لا شيء ، مهما اكتسى من رونق الابهة ، وفخامة الجاه والمنزلة . ومثل هذا غير حقيق ان ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأي فيخته في الكاتب ، وهو في اسلوبه عين ما نرمي اليه نحن في اسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن اكبر الكتاب اثناء القرن السالف هو الالماني الكبير « غوته » ، فقد قدر الله لذلك الرجل ان يشتمل عليه « المعنى

بالقدس » ، ويوهب البصر النافذ الى اعماق السر المقدس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال مؤلفاته عليها جلال الله ، ورونق القدس ، تشهد انها من صنع الخالق ، وانها هيكل الله ، يحفها نور لين سماري . ولست أرى هذه إلا نبوة في عصور ساد فيها الكفر والالحاد ، وعملاً من أجل أعمال تلك العصور ، وان كان من اسكنها واسكتها . ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو « غوته » هذا . وما كنت الى شيء اشوق مني الى الخوض في حديث بطولته ، وموضوع عظمته ، لأني اراه بطلاً صادقاً ، وعظيماً جليلاً : بطلا وعظيماً فيما قال وفعل ، وربما كان اشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل . وهو في نظري آية من آيات الله ، وبطل عظيم قديم اشبه في كلامه وصمته ، بنبي غابر في ثياب اديب حديث يلبس اجد ازياء التهذيب والمدنية ، وما رأينا منذ مائة وخمسين عاماً منظراً كهذا !

ولكن ضلة الجيل الحاضر في أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته ، وسوء قدرهم لقيمته ، يجعل التعرض لتقديسه واجلاله ضرباً من العبث الباطل . ومهما أقل فيه ، فسيبقى لمعظمكم لغزاً من الالغاز ، ولن تدركوا من أمره الا خلاف الواقع . وانما أمره دفينة سيثيرها المستقبل . وحسب الساعة الحاضرة ان توقف على ثلاثة من اكبر ابطال القرن السالف : جونسون وبارنز وروسو . ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال ، بعكس ما فيه « غوته » اليوم من الرفه والنعمة هؤلاء لم يظفروا ظفر « غوته » ، ولكنهم حاربوا فصرعوا . ولم يكونوا من جالبي الضياء ، وانما من طالبيه . ولقد كانوا من عيشهم في أبرح برح ، وآلم قرح ، كأنما يعانون من أيامهم سلاسل واغلالاً ، ويحملون من فوادح دهرهم هضاباً وجبالاً . فلا بدع إن تعذر عليهم ان يبرزوا من كوامن افكارهم كل خفية ، او يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك « المعنى المقدس » ! والذي اعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم ، فان الكثبان الاثرية التي يثوي تحتها ثلاثة من اضخم جبابرة القلم : مشهد محزن ولكنه لذيذ ممتع ، فقفوا بنا على

تلك القبور ملياً !..

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع ، وكيف ان كثيراً من العوامل الاجتماعية تسيء اداء وظائفها ، وكيف ان كثيراً من القوى العمرانية الشديدة تكدح في غير مكدح ، وتكد في غير مكد. وتلك شكوى لا شك في صحتها ، ولكن من نظر في جهة الكتاب والكتب وجدها اشد الجميع اختلالاً وفساداً ، بل اصل كل اختلال وفساد : وجدها كأنها قلب يصدر عنه ، ويرجع اليه كل اختلاط وتشويش في العالم ! ولست أرى حالاً انكر من سوء ما يُجزى به الكتّاب ، على جليل ما يسدونه الى الملأ . ولو غمسنا القلم في هذا المبحث ، غمسناه في بحر لا قرار له ، ولكن لا بد لنا ان نمس شاطىء الموضوع ، اذ كنا غير خائضين عبابه ، اتماماً للفائدة . واسوأ ما كان من امر هؤلاء الثلاثة الكتّاب ، انهم وجدوا عملهم في هذه الحياة ومركزهم ، ضرباً من الفوضى ، والسائح اذا صادف طريقاً مذللا ، ومنهجاً واضحاً ، مضى في سننه وأمعن في قصده ، فاذا أصاب عقبة لا تُقتحم ، وسداً لا يُفتح ، فجعل يطعن فيه يبغي نفاذاً فأحر به ان يظل من عمله هذا في مصاب جلل ، وأوشك ان تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

ادرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى في خطاب الرجل للرجال ، وعظة المرء لاخوانه ، فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة في العالم المتمدين الا بها منبر يستطيع منه الرجل ان يعظ باللسان اخوانه في الله . وكانوا يرون ذلك من اهم الامور ، وانه لا خير في الحياة من دونه . ولله ما كان اتقاه عملاً واجمله مشهداً ! فأما الآن ، وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة ، فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الامر . اوليس الكاتب الذي يضع كتاباً خطيباً ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة او تلك ، رهينة بذلك اليوم او ذاك ، ولكنها خطبة لكل انسان في كل زمان ومكان ؟ وحقاً انه من يخطىء في عمله فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب

أن يتوخى الصواب والسداد .

والخطب العظيم والطامة الكبرى ان الناس لا يحفلون البتة أصاب كتاب الكتب أم اخطأوا ، وجد كتّاب الكتب ام فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الأهمية عند طابع الكتب الذي يرجو ان يربح مبلغاً من وراء مؤلفه ، فأما عند خلافه فلا . كلا ولا يعبأ الناس من أين جاء ذلك الكاتب ، وأين يذهب وكيف وصل ، وكيف يمكن أن تسهل له طرق التقدم والاستمرار ، وانما يراه المجتمع كأنما هو احدى الشواذ ، فيتركونه يهيم كالذي لا يدري أين هو :

انا في أمة تداركها اللـه غريب كصالح في ثمود

وصناعة الكتابة ، لا شك أكثر الفنون اعجازاً واعجب ما أبدع الانسان ، و « حروف » أودين كانت اول عمل أتاه اول أبطال العالم . وليست الكتب في هذه الأوقات ، إلا من قبيل « حروف » أودين . والكتب حرسكم الله ، مستودع حكمة الغابرين ، وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية ، والحقب الخالية ، بعد ان فنيت اجساماً ، وأصبحت أوهاماً واحلاماً . ولا ننكر ان الجيش اللهام ، والاسطول الضخم الجسام ، والمرافيء والثغور ، والمدائن والقصور ، أشياء رائعة جليلة . ولكن ماذا مآلها ؟ وأين مصيرها ؟ وإذا سألت اليوم عن اغاممنون وبيركليس ويونانهم ، رأيتها عهوداً تبكى وتُذكر ، بعد ان كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها الا دمناً عافيات ، وطلولاً دارسات ، ورسوماً داثرات ، ومعاهد خربات ، كأنها صحف باليات تنشرها ايدي السحب السواكب ، وتطويها أكف الرياح الغرائب ، اذا نقشتها أقلام هاطلات ، مسحتها أنامل السافيات :

لايدي البلى فيها سطور مبينة عبارتها أن كل بيت سيهجر

ولكن ماذا كان من امر مؤلفات اليونان ؟ هي اليوم عينها بالامس ، لم يغيرها الزمان ولم ينكرها الحدثان ولا ابلتها العصور ولا اخلقتها الدهور ،

هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصحفها، وأحياها في سطورها وحروفها، فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن، واصبحت في تلك الاسفار ودائع ودفائن. والكتاب، رعاكم الله، فؤاد العالم يعي كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار، وخواطر وافكار، ووجدانات ومشاعر، وفعال ومآثر، ومشاهد ومناظر، فنعم تراث الاوائل للاواخر، وتحفة الغابر للحاضر!

أو ما زالت الكتب تأتي بالمعجزات كالتي زعموا أن «حروف أودين» كانت تأتيها؟ بلى حسبها ان فيها للنـــاس دوافع ومحركات، وبواعث ومحرضات. ولن تعدم احقر قصة وأسخفها، أثرها الحميد في قارئاتها ذوات الخرق والحمق من بنات الريف، تفيدها بعد الزواج في ترتيب بيتها وتنظيمه. ثم انظروا ما الذي شاد كنيسة سانت بول؟ هو الكتاب المقدس! نعم، لقد أقامت الكتابة في العالم دولة المعجزات، وضمت الماضي والحاضر بأوثق العقد وأوكد الصلات، ولاصقت بين الشرق والغرب، وصاقبت بين القطب والقطب، وجمعت بين طنجة وبكين في قرن، وألفت بين نوح ونابليون في زمن، وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الاعمال، وجددت شأناً بعد شأن وحالاً بعد حال.

فانظروا مثلاً إلى التعليم وما احدثت فيه الكتب من الاثر الجميل، وحسن التغيير والتبديل. لقد كانت الجامعات قبل الكتب هي الطريقة الوحيــدة لاقتناء العلوم واكتســاب المعارف. نشـأت الجامعـة حين لا كتب تذيـع وتنشر، وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد. وكان ذو العلم اذا أراد ان يعطي من علمه، لم يجـد بداً من جمع الطلاب حوله، فيلقنهم العلم فماً لفم، فاذا كنت في ذلك الوقت، فأحببت ان تعرف من العلم مـــا يعرفه «ابلادرد»، لم يكن أمامك الا ان تذهب الى «ابلادرد»، حتى لقد بلغ قصاد ابلادرد وحجاجه نحواً من ثلاثين الفاً، يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته، واذ وجد بهذا المكان هذا العديد الجمهر من طلاب العلم، رآهــا العلمــاء الآخرون فرصــة يحسن اغتنــامها، فمن وجد في نفســه الكفاءة

لتدريس علم ، رأى ذلك المكان احق الامكنة بأن يذهب اليه ، فيعرض في سوقه سلعة علمه ، وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين ، زاد عليه الاقبال من الطلاب والمعلمين معاً . وبعد ذلك اصبح المكان لا يحتاج الا الى التفات السلطان اليه ، ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ، ثم يمنحها المباني والميز والمنح ، ويسميها جامعة . وهذا هو في نظري منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها ، قلب الأمر قدماً لرأس ، رذروة لأس ، ومتى أوجدتَ الطباعة نسختَ أمر الجامعات ، وعلَوْتَها علواً مبيناً ؛ اذ لا يصبح المعلم في حاجة الى ان يَجمع الطلاب حوله ليسمعوا منه ، وما هو إلا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله مَن بأقاصي الأرض غنيمة بلا عناء ، ويرتشفه شربة بلا رشاء ، هنيئاً مريئاً ، وهو متكيء على أريكته ، مرتفق فوق وسادته ، ليقلب فيه البصر ، وينعم في معانيه النظر ! ولا شك أن في الخطبة لمزية خاصة ، حتى لقد يحسن احياناً بكتّاب الكتب ان يخطبوا طلابهم ايضاً . وأرى انه ما دام المرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا يُنكر ، وقيمة لا تُحقر ، ومنطقة للكلام خلاف منطقة الاقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة . ولم توجد بعد تلك الجامعة التي يفرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها ، ولا عُرف بعدُ كيف تكون تلك الجامعة ، وما معالمها وحدودها . فاذا كنا مفكرين في ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون الا كأقدم جامعة ، أعني ان يكون من شأنها تعليم القراءة — القراءة في مختلف اللغات والعلوم — اي تعليم مبادىء كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب اعينها ! ومبلغنا في العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون ، وأجاد المدرسون. نخرج من ذلك على ان خير جامعة في هذه الأوقات هي مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغيير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير

تام ، والكنيسة هي جماعة القسوس والأنبياء ذوي الهداية والارشاد ممن يهدون بعظاتهم عباد الله الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة ، هو الأداة الوحيدة لبث النور والهدى . فأما وقد ذاعت الكتب ، فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ، ويأخذ بزمامها نحو الحق ، فذلك بطريق أمته وإمامها . وطالما قلت ان كتّاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب ، هم في الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة في الامم الحاضرة . وليست الكتب خطباً لنا فقط ، بل هي ايضاً ضرب من ضروب العبادة ، وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسبيح ! أو ليس المعنى الشريف يزفه اليك البليغ ، في رونق اللفظ المصقول ، يختال من صفاء السبك واشراق الديباجة ، في أكرم حلة وابهج خلعة ، فيمتزج باجزاء النفس ويجري مع الروح حتى :

يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة ؟ ولعل الكثيرين لا يعرفون في هذه الأوقات الفاسدة من اساليب العبادة الا هذا الاسلوب . والشاعر الذي يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائباً عنك ، أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته ، وشعبة من ينبوع الجمال الالهي الشامل ، وعلى سطر خطه القلم العلوي في صحيفة الكون ، فبدا مبيناً ناصعاً ، جلياً ساطعاً ، وكأنما غنى لنا نشيداً قدسياً فصدحنا معاً . واذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض ، فكيف الذي يتغنى لنا بمكارم أولي العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوي الفضل ومفاخرهم . مثل هذا كأنما يمس اكبادنا بجذوة من مجامر المحراب ، ولعلها اشرف طرق العبادة !

وما الادب الا كشف وجلاء لاسرار بدائع الله ، او ما يسمونه « السر الجلي » ، وقد عرّف الادبَ « فيخته » بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار الله في الاشياء الأرضية العادية . فان اسرار الله ما برحت كائنة في كل شيء ، وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذاك من يبرزها في هذه الصورة

او تلك ، في مقادير مختلفة من الوضوح ، ودرجات متفاضلة من البيان ، كل حسب ما وهبه الله من الفضل .

هذا هو الذي ما زال ذوو المواهب اللدنية ، من الشعراء والكتّاب والخطباء والمتكلمين ، يصنعونه عمداً وعفواً . حتى لقد تجد أن شعر بيرون لا يخلو من تلك الاسرار ، برغم ما قد امتلأ به من زوابع الحنق ، وصواعق القذف والانتقام ، ومعاسف الغل والحقد ، والضغينة على بني البشر . وهذه الأسرار ايضاً كائنة في متواضع شعر بارنز ، ذلك الفلاح الذي كان يختلس القوافي من خلال حركات الفأس والمحراث ، صاحب القصائد التي كأنها أغاريد القنبرة ، صاعدة في اديم التراب ، الى أعلى ذوائب السحاب .

والحقيقة ان كل غناء صادق هو عبادة ، كما أن كل شغل صادق هو ايضاً عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت ، الا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقي مطرب . ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعاً جمة من الأناشيد الكنسية والصلوات الدينية ، طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذي يسمونه بحر الادب . . . فالكتب ايضاً كنيستنا !

●

ننتقل الآن الى تأثير الأدب في الحكومة : لقد كان البرلمان قوة عظمى ، تبرم أمور الرعية وتنقض ، وتعقد شؤون الامة وتحل ، وتصرف أعنة البلاد وتدبر ، وتقطع أحكامها وتقرر ، بعد طول الروية والنظر ، وادمان التأمل والفكر ، واطالة المناقشة والمحاورة ، وادامة المجادلة والمناظرة ، ولكن انظروا الآن ، أما ترون ان عمل البرلمان هذا يُعمل الآن خارج البرلمان ، في طول البلاد وعرضها ، بواسطة المطبوعات ، من جرائد ومجلات ، ورسائل ومؤلفات ، وان كان البرلمان لما يزل باقياً .

ولقد قال بيرك : ان البرلمان ثلاثة اركان ، ولكن بمجلس مخبري الجرائد

ركناً رابعاً أهم من تلك الأركان الثلاثة . ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة، ولكنها عين الحقيقة . وقد اصبحت خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك ، فالأدب هو برلماننا ايضاً .

والديموقراطية ، ايدكم الله ، رهن الطباعة ، التي هي من نتائج الكتابة ، وما هو الا ان تخترع الكتابة حتى تنبع الديموقراطيـة . فالكتابة تنتج الطباعة ، الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم ، فيصبح كل ذي لسان بوقاً يسمع الشعب ، وقوة وفرعاً من أفرع الحكومة ، راجح الميزان عنـد وضع الشرائع والقوانين ، وجميـع تصاريف السلطـة ، لا يُنظر اليه من أي طبقة هو ، وماذا يملك وماذا يلبس ؟ وانمـا الامر الجوهري هو أصاحب لسان وأخو بيان ، فيُصغى اليه ، ويُقبل عليه ؟ هـذا لا غيره الأمر الاساسي ، فالامة محكومة بكل ذي لسـان من أبنائها . وهناك الديموقراطية ولا مشاحة .

ضف الى ذلك انه ما من قوة موجودة في الكون ، الا وسيريكها الدهر يوماً ما ، فعالةً معترفاً بسلطانها ، فهي لا تزال تعمـل في خفاء ، وتكد تحت غطاء ، تدافع العوائق والعوائق تدافعها ، وتصارع الموانع والموانـع تصارعها ، حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات ، وتطلقها يد النصر من سلاسل العقبات ، فتذهب في شعاب الحق كل مذهب ، وتضرب في مناصي الاصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديموقراطية حتى تبرز للعيان ، ويصطلي شمسها كل انسان .

أو مـا يزال في كل شيء دليل على ان خير ما في طاقـة امرىء ان يصنع ، وأعجب الاشياء طراً ، وأثقلها في النفوس وزناً ، واخفهـا على الاسماع حسناً ، وألطفها في النفوس مكاناً ، وأقلها في العقول رجحاناً ، هو كتاب !

لله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الاسود ، أي جليل من الامر لم تأتِ ، وأي شيء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ! ولا غرو ، فهل

كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها ، الا اشرف نتائج الذهن البشري ؟ هي فكر الانسان : الفضيلة الحرة التي بها يصنع كل شيء . وجميع ما يفعل الانسان ويحدث ، انما هو ثوب فكرة . وجسم روحهُ رأي من آرائه . فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور ، وحلل وقصور ، وعدد وآلات ، وكنائس وبيعات ، وحركة وصخب ، وجلبة ولجب ، ما كل هذه إلا فكرة ، أو مليون فكرة ألفٌ شملها نظامٌ فصارت واحدة . ما هي الا روح فكرة جسيمة ، قد تجسدت في الطوب والحديد والخشب والتراب والدخان والقصور والبرلمانات والمركبات والمصانع ، وسائر ما تنظر من الاشياء ! وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها . وما نسميه قطعاً من الورق عليها لمع من الحبر ، انما هو أطيب مظهر للفكر البشري ، فلا عجب ان يكون أنشطها وأكرمها !

وقد طالما اقر الناس بفضل الكتّاب ، وخطارة شأنهم في العصور الحديثة ، واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها ، ولكنه اقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة ، وعسى ان يكون قد آن للعواطف أن تخلي مكانها للامدادات المادية . واذ كنا نقر ونعترف بأن للكتّاب على المجتمع النعم الغراء والمنن البيضاء ، وانهم يحدون به في سبيل التقدم ويسمون به في مراقي المدنية ، فما بالنا اذن نتركهم في اسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش ، من امرهم في حيرة عشواء ، وضلالة عمياء ؟ ويقيني أن كل شيء فيه فضيلة قوة خفية ، فسيحسر يوماً ما لثامه ، ويميط قناعه ، ويسفر لنا ناصع الصورة ، واضح الغرة ، بيّن الاشارة ، جهير الصوت . فأما ان يلبس أناس زي الادب والكتابة ويقبضون أجرها ، ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقي ، صاحب الخير والمنفعة ، فما ذلك بعدل ، وإنما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وآ أسفاه ، الا بعد الجهد الجهيد ، والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات ، الله وحده

المعين على حلها .

فاذا سألتموني ما هو أحسن نظام تجعل عليه حالة الكتّاب في العصور الحديثة ، وما هي خير طريقة لتنظيم شؤونهم واستمرارها ، لتكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع ؟ استقلت من الاجابة على هذا السؤال لقصور مبلغ عقلي عنه . وانها لمعضلة ، لوتتابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلاً تقريبياً ، فكيف بعقل واحد ؟ نعم ، ولا أحب ان احداً يقدر ان يقول ما هو احسن نظام لأمر الكتّاب . فأما اذا سأل سائل : ما هو شر نظام وأخبثه ؟ قلت : هذا الذي هو كائن اليوم ، هذا الخلط السائد والفوضى المستحكمة ... وما أبعد ما بيننا وبين نظام صالح طيب !

وثمة شيء لا يفوتني ذكره ، وهو ان هناك غير امر العطايا المالية ، أمر اهم واعظم ، ألا وهو اجلال الكتّاب وتقديسهم ، وهو امر كان معدوماً في القرن الثامن عشر ، قرن الجحود والكفر فأما هبة العطايا وترتيب الرسوم ، فهي على ضرورتها في بعض الاحيان ، قلما تقربنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتّاب . واني لأحد الذين اسأمهم كثرة ما يُلغط به من سلطان المال وفضله على كل شيء . بل إني احد القائلين بأنه لا ضير على الحر ان يكون فقيراً . وانه يجب ان يكون من الفقر محك لاذهان الكتاب ، ومعيار لقيمهم وأقدارهم ، وقد اوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال ابرار ، قدرت لهم الشحذ والتسول ، ورأت الكنيسة ان ذلك من أسباب نشر روح الدين وتأييده . وهل اسست النصرانية نفسها الا على الفقر والحزن ، والاضطهاد والصلب ، وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ ولنا ان نقول ان من لم يعرف هذه الاشياء ، فيتعلم منها درسها الذي لا تقدر قيمته ، فقد فاته من فرص التعليم أثمنها ، ومن اسباب التقويم والتثقيف امتنها ، ومن فوائد التربية والتهذيب اكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح ، وشد الحبال في الاوساط ، بالشيء

الجميل او الجليل في اعين الناس ، حتى جمله وشرفه مزاولة الكرام له ، واتيان الجلّة الاشراف اياه !

وليس موضوع الشحاذة من اغراض هذا الكتاب ، ولكن من ذا الذي لا يقول ان كاتباً كجونسون ، لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديراً ان يعلم ان المال او النجاح كيفما كان ، لم يكن الغرض الذي يسعى ليدركه . وكان ملياً ان يعرف ان فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب ، من الكبرياء وحب الذات ، بجميع شعبه وفروعه . وانه من اوجب الواجب اقتلاع هذه الاغراس اللئيمة من تربة النفس . ثم اذكروا ان بيرون ، مع غناه وشرف نسبه ، كان اقل فائدة ، وأصغر مأثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه اذا وجد في المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود ، وكان الفقر لا يزال ركناً من أهم اركانه ، وكان الكتاب — ابطالنا الروحانيون — لا يزالون طائفة من الشحاذين ، متاحاً لهم العوز والتكفف ، حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثمرات ، وينتفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر ان الطيب الكثير يبلغ بالمال ، ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر ، وانما علينا ان نعرف حد المال فنقف عنده ، ونعلم ان ما زاد على ذلك فضولٌ حقهُ الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الامدادات المادية ، والرسوم المالية ، فانى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذي يستحقها ؟ انه لا بد قد منع من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى ان الحياة الادبية ، تلك التي كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجها ، هي نوع من الامتحان . وما زال هناك عنصر من الحق في قولهم ان الجهاد في سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى الى ذرى الطبقات العليا ، هو من الامور التي لا بد من بقائها ، لما يترتب عليها من استمرار رقي العالم . اذ انه ما زال يولد في الطبقات السفلى ، من ينبغي ان يكون في ارفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل ، فأما ان يترك هذا الجهاد ، كما هو الآن رهناً بمحاسن الصدف ،

فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون ، أو نجا واحد من ألف هلك في الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون ، ويترك مثل بارنز يجود بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ، ومثل جونسون يزجي الوقت بين الثؤباء والمطواء في حجرته ينطبق عليه قول القائل :

تلوم على تبلدها قلوباً   تلاقي في معيشتها جهاداً
اذا ما النار لم تطعم وقودا   فأوشك ان تمر بها رمادا

حتى اذا شرع يكتب ، راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البخس والوكس ، كأنه في مضمار ، أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيـــار . ويُترك مثل روسو ، عـــلى جمر الاعسار والاحتقار ، يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع ، فيؤجج الثورات الفرنسية — هذا وايم الله شر النظام واسوأه . فاما النظام الأحسن فهيهات منه نحن ، وانى لنا به الآن !

بيد انه لا شك هناك في ان ذلك النظام آت ، يحمله المستقبل البعيد في جوفه جنيناً في رحم الزمان الآجل . وهذا ما أجرأ على ان أتنبأ به ، لانه لا يكاد الناس يرون فضل الشيء ، حتى يأخذوا في تسهيله وترجيته ، وتنظيمه وترقيته ، ثم لا يستريحون او يروه قد أبلغ منتهى ما يستطيعون أن يبلغوا به . وقد قلت انه ليس في سلطات الكنيسة والحكومـــات بأنواعها سلطة تستحق ان تقارن بدولة الاقلام . وقد قال الوزير « بيت » وقد سئل ان يكتتب بشيء من المال للشاعر الاكبر بارنز : « الاديب سيد نفسه ، يدبر زمامها ويسوسها ، وليس في حاجة الى الناس . » قال المستر سوذي : « نعم ، هو ســـيد نفسه ، يسوسها ويـــدبر زمامها ، وهو ايضـــاً سيدك ، يسوسك ويأخذ بخطام انفك ، إذا أنت لم تلتفت اليه ، وتعرف له قدره ! »

وما معظم الضرر بواقع على الكتاب ، فانهم أفراد وجزء ضئيل جداً من الجسم الكلي ، وفي جهدهم أن يجـــاهدوا ويكابدوا ، حتى يظفروا أو يموتوا فيعذروا . ولكنه يهم المجتمع ان يضع شهبه ومصابيحـــه في

الذرى والغـــوارب ، وحيث تُرى فتهدي ، أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شرراً يستطير في حيث لا مقتبس ولا متنور ، ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق ، وقـــد حدث . والنور ، هداكم الله ، هو رأس المنافع ، وأصل الحياة ، وأول حاجات المجتمع وآخرها ، وان دنيا يتقدمها النور ، لجديرة ان تظفر في حربها مع الدهر ، وتكون للانسان احسن دنيا . وعندي ان مرض الفوضى الكتابية ، هو أصل سائر الامراض ، فداوه تشف المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدا ، في آفاق الادب ، بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقـــابلها بالاستبشار والهتاف ، لانها بشيرٌ بأن ما قد حدث في هذين البلدين ، خليق أن يحدث في غيرهما .

●

ان أهم ما سمعت عن الصين ، امر فيه علينا لبس وإبهام ، ولكنه يحرك فينا أعظم الشوق على لبسه وإشكاله ، وهو محاولتهم ان يختاروا ملوكهم من بين كتابهم وادبائهم . وأرى انه من الخطل والخبط ، ان يتكلف احدنا فهم هـــذا الامر ، فضـلاً عن شرحه وبيانه . ومـــا أحسب الا ان مثل هذه الامور ، لن يكون الا عديم النجح ، غير ان في مجرد محاولتها فضلاً كبيراً !

ويظهر ان في جميع انحاء الصين عناية شديدة ، بالبحث عن اولي الالباب في كل جيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة ، فمن اظهر براعة في دنيا المدارس ، رفع الى اعلى منها درجة ، وهكذا حتى يفضي الى اشرفها منزلة ، ومن ثَمّ ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها ، وربما قُلِّد عملاً او ولاية . وتلك هي الطائفة التي منها يُختار الولاة والحكام ، مع الامل والرجاء ، ففيهم وليس في غيرهم ظهرت آيات الفضـــل ، وامارات اللب والذكاء . نعم فليجرب هؤلاء ، وان كانوا لما يزاولوا الحكم والادارة ، وقد يعجزون عنها ويعيون بها ، ولكن لهم عـــلى كل حال فهم وعقل ، ذاك

الذي لا يُستطاع الحكم والادارة إلا به . وليس العقـــل بآلة كما جرت العادة بتشبيهه ، ولكنه يد يمكنها ان تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ، ذوو الالباب ، فانهم احق النــاس بالتجربة . ولا احسب ان هناك شيئاً أسر لطلاب الاصلاح ، ذوي الاخلاص والغيرة ، من إسنــاد الرئاسة الى ذوي العقل ، لأنهم في الحقيقة ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة : قلدوهم أموركم تظفروا بكل شيء ، دعوا توليتهم تخسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريباً ، مما لا يجري في محاورات الناس ، ولا يدور في مذاكراتهم . وليس العيب في المســـائل ، وانما في الجيل والعصر . وانمـا الواجـب ان تطرح هذه المســائل على بساط البحـث والمناقشة ، حتى تنضج فتخرج الى حـــيز العقل . ويسلينا بعد ، أنا أينما ألقينا البصر ، وجدنا دليلا بيّناً وبرهاناً ناطقاً ، على أن دولة القديم قد زالت ، وان طول عمر العادة ليس في هذا الزمن حجة على وجوب بقـــائها ، وان الأشياء التي كانت قبل اليوم ، قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها ، وان الالوف المؤلفة من الأوروبيـين قد اصبحوا لا يطيقـــون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . واذا عادت الملايين من خلق الله ، وهم لا يستطيعون احراز المطعم ، ويظـل ثلث الناس لا يطيقون الحصول على أردأ انـواع البطاطس مدة ثلاثة أرباع العام ، فقد آن ولا شك للأمور ان تتغير وللأحوال ان تتبدل . هذا وحسبنا ذلـك في الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتّاب !

وان عدم ذلك النظام ، وان كان من آفات كتابنا الثلاثة ، فلم يك بعد اشد الآفات ، بل كان ثمة آفة هي أصل عدم النظام ، وأصل كل آفـة اخرى ، وهي إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام ، فقد كان على مضضه يمكن احتماله . وقد كان الكاتب البطل يطيق الصـبر على وعوثة الطريق ووعورته ، وعلى وحـــدة السفر ووحشته ، ويثقب بعقله النافذ في السدود المعترضة ، والعقبات القائمـة ، لولا ان ذلك العقل

قد فلل من حده تأثيرُ ما كان حوله من الكفر والالحاد . نعم لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ، وما ساد في تلك الازمان من شلل الارواح ، وموت النفوس ، ولم يعدم ذلك الوسط السيء ، والجو الفاسد ، اثره الخبيث في قلوب ابطالنا الثلاثة ، وحسبي ان أقول عن القرن الثامن عشر ، انه كان عصر الحاد ، وقد نعته بكل خسيسة ، ووصفته بكل دنيئة وخبيثة . والكفر ، وقاكم الله ، جملة المحن والبلايا ، وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الالحاد هو موت الاذهان فقط ، بل موت الاخلاق كذلك ، وفيه كافة انواع الكذب وعدم الاخلاص وخمود الارواح كما قلت . ومثل ذلك العصر ، أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الابطال ، وجوه سام لهم ، والبطولة روح لا تنتعش الا بنسيم الايمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محي من كل خاطر وبال ، وأمسى يراه كل انسان حديث خرافة ، وضرباً من المحال ، وأصبح قد سار به القارظان ، وبات في خبر كان ، وطارت به العنقاء ، وتبدد في رياح الكفر تبدد الهباء ، وذاب في موج الجحود ذوب الجفاء ، او ذوب السراب المرقوق في أكناف القفرة الملساء ، وقام بدل معنى البطولة معاني الشك والاستخفاف ، والرسوم الميتة والاصطلاحات الجامدة ، وأصبح الناس في عالم لا رعاه الله من عالم ، خلو من الروعة والعجب والعظمة ، عالم خلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وأفرخ !

وما كان اخبث الأفكار اذ ذاك وأخسها واسفلها ، اذا قورنت بأفكار قدماء الوثنيين المتوحشين ، لا بأفكار الاتقياء دانتي وشكسبير وملتون ! وكيف ، وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الانسانية والطبيعية بشجرة جذورها في عالم الموت ، وفروعها في الجنان ، وهي فينانة غيداء ، وحفة غناء ، كثيفة الورق ، ملتفة الاغصان ، غير محصية الفنون والالوان ، ممدودة الظلال ، منفسحة الافياء ، قد ضربت في جميع الارجاء والانحاء ، وغصت بها كافة الآفاق والاجواء . فنسي كفار المدنية الحديثة ، أهل القرن

الثامن عشر ، هذا التشبيه ، وشبهوا الحيـاة والكون بمكينة تصلّ صليـل الحديد ، وترن رنين النحاس !

يا لله اي فرق بين الشجرة والمكينة ! قارنوا ، أصلحكم الله ، بين هاتين . اما انا فلست بقائل قط ان العالم مكينة ، لست بقائل انهـا تدور بلولب وعجل ، وبما يقوله الاقتصاديون من العوامـل والمصالح والموانع والموازين والمقاييس . ولكني صائح بملء فمي أن هنالك اسراراً خلاف رنين آلات المصـانع ، وضجيـج صراخ البرلمـانات . وان العـالم ، على كل حال ليس بمكينة !

أفلا ترون بعد ، فضل آراء الوثنيين المتوحشـين على آراء اولئك الجهـلة المتمدنين ، أصحاب المذهب « المكيني [1] » . ولا عجب ، فقـد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصة مؤمنة . ولكن هـؤلاء الكفرة الاشقياء لا اخلاص لهم ولا صدق ولا مروءة ولا شعور . وكان الحق عندهم هو ما اجمع الناس على استحسانه ، لا ينظرون الى لب الشيء وحقيقتـه ، بل الى أقوال الناس فيه . فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم ان الاخلاص قد يكون في هذه الدنيـا ، وانه لم يصر بعد من المستحيلات ، بل جهلوا معنى الاخـلاص بالمرة ، وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سـؤال مندهش غير متصنع : « ألا تروني رجلاً مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك ايها اللئيم الدقيق رجلاً مخلصاً ، لشد ما اخطأت معنى الاخلاص .

وجملة القول أنه كان عصر موت لا حياة ، اللهم الا حيـاة كحياة المكينات ، حركة بلا روح ، وكان الرجـل العامي حينذاك ، لا ينجيه من الغرق في عباب ذلك الكفر الا ركوبه خشبة صلبة من حطام المذهب القديم

---

١) نسبة الى مكينة ، يقولها كارليل تهكماً بالقوم لانهم كانوا يزعمون ان الكون مكينة .

والدين القويم ، ملة القرن السالف الذي عفا الدهر رسمه ، وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث ، الذي كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد ، وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر ، وغوالب لجه ، وغوامر موجه ، وهو هالك لا محالة ، الا ان يكون صارم العزم ، ماضي الجنان ، شديد الأيد . فاذا كان ذلك ، لم تك حياته بعد الا حياة يحفها الموت ، ولم يستحق من الاسماء الا لقب « نصف بطل » .

كل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك ، وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم في ذلك المضمار ، لا غتال شأوه ما ليس يحصى من الساعات ، ولكن في قليل الكلم غنية عن كثيره ، وقد يجتزأ عن طول المقال بقصيره . وان كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام ، وسم الحياة الذي اليه وجهت جيوش الهجاء ، ونثلت كنائن القذف منذ بدء الخليقة ، وحرب الشك واليقين هي الحرب التي لا تنتهي !

ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشاك ، ان نحاسبهم حساب المجرم ، وانما هي سنة الدهر ، وتصرفات الحال ، واضمحلال المذاهب القديمة ، وبلى الآراء العتيقة ، والاعداد والتجهيز لمذاهب سيجيء بها المستقبل البعيد خير من القديم وأسمى . فكيف نأخذ القوم بذلك ، وانما هو قضاء محتوم ، وقدر محموم ، وفي الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلهم وتأنيبهم لو نفقه . ولنعرف بعد ان اعدام الصور القديمة والأوضاع العتيقة ، ليس اعداماً للحقائق الخالدة ، وان الشك او الالحاد على شره ونكره ، ليس بخاتمة وانما هو فاتحة .

ولقد انكرت في بعض كلماتي مذهب بنتام – مذهب الماديين – وما انكاري له بطعن على مؤسسه واتباعه . واذا كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله ، واليقين الصراح بأن الكون خال من كل معنى إلهي ، وليس هو الا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه . أقول اذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض ، فهو عندي خير من مذهب

الشك ، بما انه استقرار وثبات في ذلك الموضع الذي يحوم حوله اهل الشك في حيرة وتردد . ورأيي ان الاقامة على شر الطرفين ، اشرف من الحيرة بين بين . ولأن يرزق المريض الشفاء او الموت خيرٌ له من ان يظل وهو لا حي فيرجى ، ولا ميت فيبكى . نعم ورأيي ان هذه المادية المكينية [1] هي اقتراب من المذهب الايماني الجديد ، بما انها كانت اطراحاً للتصنع والسفسطة . وكانت كقول الانسان لنفسه : « لا شك في ان هذا الكون انما هو مكينة ميتة من الحديد ، وما إلهها الا الجاذبية ، وإلا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج أكرم نتائجها ، بحسن ادارة العجلات ، ودقة تحريك اللوالب ! »

أفلا ترون بعد ذلك في جرأة المادية على التمسك بما تعتقد ، معنى من توفر القوة والرجولة والشجـــاعة ، حتى ليمكنك ان تسميها نوعاً من البطولة ، وان كانت بعد بطولة قلعت عيناها ! هي كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذي اخذ بخناق القرن الثامن عشر ، بلغها أصحابها بفضـــل الصراحة والصرامة ، والجرأة والشجاعـة . ويظهر لي ان جميع الـكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب ، سيصيرون يوماً مـا الى المادية لو ساعدتهم جرأة وصدق نية . والماديـــة كما قلت بطولة عمياء ، وانما أشبه النوع الانساني في المادية بجالوت في طاحون بيت المقدس يدور مفقوء العينين ، ثم لا يلبث أن ينشب يديه في اعمدة الطاحون ، فينهار فوقه البناء خراباً ، ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكني مع ذلك أقول وارجو أن اصادف قلوباً واعية ، ان كل من لم يجد في ذلك الكون الا آلة جامدة ، فقد اضل سر الكون شر إضـلال . ولست أرى سقطةً أشنع من ان يتجرد رأي الانسان في هذه الخليقـــة من كل معنى إلهي . فان ذلـك كذب وباطل ، كذب في سويداء لبـه

---

[1]) المادية اعني مذهب الماديين ، والمكينية نسبة الى مكينة وقد مر تفسيرها .

وصميم كبده . ومن كانت هذه عقيدته فأحر به ان يخطيء الصواب في كل شيء . وأن لا يقع على سداد قط ، فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلطة الجوهرية ، فهي جديرة ان تعد في نظرنا شر اضلولة غير مستثنين اضلولة السحر نفسها . وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حي ، والمادية تحمل اهلها على عبادة شيطان حديدي ميت . عجباً لها : أإذا جردت الكون من آلهة ، أفلا أقل من ان تترك فيه شيطاناً ؟ تباً لها : لقد عرّت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس ، وتركته جثة بلا روح ، وهيكلاً بلا حياة ، فانّى للانسان بعد ذلك بمساعي الابطال ، ومآثر ذري الهمم والمروءات من الرجال . وانما الذي يستفيده من ذلك المذهب الكاذب هو ان ليس في الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ، ومخافة الهم والألم ، وان الحقيقة القصوى في حياة المرء هي الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات ، او بالاختصار هي الكفر ، والكفر عقوبة نفسه .

أما الايمان فهو عندي صنع العقل الراجح ، ونتيجة الذهن الصحيح ، وهو عملية خفية مبهمة لا توصف ، شأن كل عملية حية جوهرية . ولم نُعطَ العقل لنعارض به ونسفسط ، ونجادل ونلغط ، ولكن لنرى به حقائق الأشياء ، فنفهم ونوقن ، ثم نجعل اليقين أساساً نبني عليه الفعال ، ومبدأ نستهل منه فواتح الاعمال . وليس الشك نفسه بجريمة . وكيف ، وما كان قط للانسان في مسائل المذاهب والعقائد ، أن يقع على اول ما يصادف فيحتضنه ويعتقده ، ولا من العقل ان يركب الرجل رأسه في الرأي وينخرط في الامر من غير تدبير ولا روية ، وانما العاقل من بات يقسم رأيه ويشاور نفسه ولا يُمضي الرأيَ حتى ينضج ويختمر :

لا كأمضاء جاهل عجرفي يركب الامر قبل شد الحزام

فاذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار ، محصد الحبل ، حصيف العقيدة ، جديراً أن يجلي ليل الخطوب والأتراح ، ويخلص بين الماء والراح ،

ويكشف معالم الحق الصراح . والشــك والبحث والتنقيب غريزية في نفس كل عاقــل ، وهي جولة العقــل في الأمر الذي يحاول ان يعرف معتقــده ، وتنبت شجرة اليقــين ، كما ينبت غصن الشجرة مــن مستسر الجذور . ولكنه لما كان الواجب على المرء ، في عــادي الامور ، أن يسر شكوكه ، حتى يؤول بها طول النظر والتقليب ، اما قبولاً او رفضاً ، فما بالكم بأسمى الامور وأعلاها ، التي يعجز عن صفة كنهها اللسان ؟ فأما ان يبرز المرء شكوكه ، ويحسب ان المجادلة والمناظرة هي أقصى مبلغ قــوة العقل وأكرم مآثره ، فهذا مثل ان تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض عــلى الأبصار منظر جذورها القبيح ، بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر ، وفينان الافرع الخضر ، فنريهم منظر الموت والشقاء ، موضع الحياة والنماء !

والشك كما قلت ليس في العقل فقط ، بل هو في النفس والأخلاق ايضاً ، وهو مرض الروح كافة . وانما يحيا المرء باعتقاده شيئاً من الاشيــاء . لا بالمناظرة والمجادلة في جملة اشياء . ولن ترى حالاً أسوأ من ان يظل الانسان وهو لا يؤمن الا بالشيء الذي يزر عليه جيبــه ، ويلتهمه باحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطة ، ليس دونهــا وأبيكم مهبط ولا منحدر . وإنما نسمي الأعصر التي يهوي بها الانســان هذا الدرك ، امرض العصــور وأخسها ، وأحقها بالحزن والبكاء ، وفي مثلها تشل يمين الدهر ، وتقرح كبد الدنيا ، ويجمد نبض الحياة ؟ وفي مثلها تغيض عيون الخير ، وتطمس معالم البر ، وينقطع العمل الصادق الحر . ويقوم بدله الحذق بالتقليــد والمحاكاة وهو عنوان رق الانفس ، واسرار الاذهان ، وعمه البصائر والقلوب ، وهنالك تنتهب أموال الدنيا ، وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها ، لا تؤدى حقوقها ، ولا تصلــح شؤونها . وكيف وقد ذهبــت الابطال ، وجــاء كل كاذب دجال .

والحقيقة أنه لم يأتِ منذ العهد الاخير من دولة الرومان ، قرن هو

أحفل بأهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا ، رعاكم الله ، رجال ذاك القرن ، وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل ، وذم الرذائل . وهل رأيتم عندهم الا قولاً بلا فعل ، ومنطقاً بلا عمل ، شقشقة هادرة ، وهمماً فاترة ، وألسنة خالبة ، وقلوباً كاذبة ، وأعيناً تندى ، وأفئدة كالصخر او أقسى ، ونفوساً وسنى ، وجعجعة ولا طحناً . وكأني بهم قد حسبوا أن الغش والنفاق والكذب هي من عناصر الحق التي لا يقوم الا بها .

ولقد بلغ من ذلك أن الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة ، يتصنع المرض ، ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الاعضاء في الخرق ، كأنه مكسر العظم مجبره ، ويشيع عن نفسه أنه في أشد برحاء الداء ، وانه لولا حقوق الشرف والمروءة ، وحرمة الأوطان ، لما خرج يتحامل قطيع الخطو ، مبهور الانفاس . حتى اذا انطلقت به أشواط البيان في ميادين المناظرة ، وطارت به اجنحة البلاغة في آفاق المناقشة والمحاورة ، نسي ما قد تكلفه من التمارض ، فاستل ذراعه من لفافته ، استلال الصارم الجراز من غمده ، وجعل يهزه ويطوحه ، فعل الخطيب المصقع ، والمنطيق المفوّه !

وكذلك ما انفك شاتام هذا ، منذ قرع أبواب السياسة ، الى ان قرع عليه الحمام أبواب الحياة ، وهو يمزج بين الصدق والكذب ، والحق والباطل : نصفه للشرف ونصفه للخسة ، وشطره لله وشطره للشيطان . ولعل حجته في ذلك ان الدنيا لا تنال بارضاء الناس ، والناس معظمهم بله مخاديع ، فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته . فكيف والحال هذه تؤدى حقوق العالم ? وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء ، والمحن والارزاء . وكأني بك قد وقعت على أصل ادواء العالم ، حينما تسميه عالماً كافراً ، عالماً عديم الاخلاص ، عالم كذب وباطل ، عالماً شيطانياً ! وهذا هو ما أراه منبع كل آفة اجتماعية : منبع الثورات

الفرنسية !

وأرى انه لا بد من تغير هذه الحال ، ولست أتوقع للعالم خيراً ونفعاً حتى يحدث ذلك التغير . وان املي الوحيد في حسن المآل ، وعزائي مما أراه من شقاء العيش ، وبؤس الحال ، هو اني أرى ذلك التغيير قد بدأ وانه مستمر . واني قد أجد من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذي يعرف ان هذا العالم حق ، وما هو بأكذوبة ولعبة ، وانه هو نفسه حي وليس بميت ولا مفلوج ، وان العالم حي يخفق فيه روح الله ويجول في ارجائه رونق الجمال والجلال ، وانه كحالته في أوائل الزمن وبكرة الدهر !

وعندي أنه متى عرف احد الناس ذلك ، عرفه الكثيرون ، بل عرفه الجميع على مدى الايام . أوكيف وانه جلي واضح ، لو كشف الغبي على قلبه الغطاء ، وضرح عن إنسانِ عينه الاقذاء ! وكأني بذلكم الرجل المؤمن ، وهو ينظر من دولة الكفر ، في اعقاب نجم آفل ، وبقية ظل زائل ، ويستقبل من دولة الايمان تباشير صبح اغر ، ونفحات روض عاطر ، ولا يرى الرسوم القديمة ، على متانتها الا خيالات تهم بالزوال ، واشباحاً تشد للرحيل الرحال وكأني بذلك المؤمن يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله : « ما أنت بحق وانما خيال زور ، فاذهبي وعليك العفاء ! » نعم ، ستذهب دولة الالحاد بحواشيها ، من ماديات وكفريات ورسوم كاذبات ، وما ذلك القرن الثامن عشر بعد ، الا فلتة من فلتات الدهر ، لا تجيء حتى تنصرف . واني لأتفاءل للعالم بإقبال السعد والنجاح ، والخير والفلاح ، ودولة الايمان يقوم عمودها ، ويخضر عودها ، ويضرب رواقها ، وترف أوراقها ، وعند ذلك يروح العالم بقدح رابح ، وسهم راجح .

بل ما لنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته ، وانما يجب على كل رجل ان يعرف ان له حياة تعنيه شؤونها ، وتوءوده اعباؤها ، مهما يكن من امر الدنيا ، وسواء أفلح العالم او أخفق ،

وان عمره انما هو لمحة بين ابدين . وما للانســان بعد الموت الى هذه الحياة من كرة . فجدير بنا ان لا نعيش عيشة النوكي الاصفار من كل فضل ومكرمة ، ولكن عيشة النبلاء العامري النفوس بالحق والهدى . ومــا لنا والاهتمام بالدنيا ، وما في نجاحها ربح لنا ، ولا في خيبتها خســارة . وانما همّ العاقل أن يُعنى بأمر نفسه ، وفي ذلك مندوحة له عن غــيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات الى هذه النصيحة ، قوم أولعوا بالتطواف في انحاء الارض قصد ترقية الامم والشعوب ، وللأمم والشعوب إله أرحم بهم من كل مخلوق ، وامــلاً بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذه من نتائج تصنع القرن السالف وكذبه ، فليتجنبها اهل هذا القرن ، وليكن لهم في اصلاح شؤون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

●

في تلك الاحوال ، وهاتيك الازمان ، كان يعيش كتّابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروســو ، في أزمان أصفرت الحياة اثناءها من كل اثر للحق والصدق ، فأما الحقائق القديمــة فكانت قد هد ركنها ، وخرس لسانها ، وأما الجديدة فكانت اجنة في بطن المستقبل ، لا جرس لها ولا نبس . ولم يك لاح في ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين ، وصديع الايمان ، ولم يك نبع في قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق . كلا ، ولا الثورة الفرنسية نفسها التي هي على علاتها نوع من الحق ، وان كان يُعدّ حقاً ملتفعاً برداء من نار جهنم !

وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض ، التي عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق ، فأحرقها وأخلى من عقباتها سبيله . ولكن أباطيل زمن جونسون ما كانت مما يحرق بالنار ، فبقيت في طريقه . وما برح كل قوي من الرجال يجد الحياة ملأى من الاعمال ، أعني من الصعائب والآلام ، بما يستفرغ جهده ، فأما ان يظفر المرء مبين الظفر ،

في عصر كعصر جونسون ، فذلك أصعب المصائب . فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقر الذي حبس رزقه عند قرشين في اليوم ، بل لقد كان جونسون قد سُلب نور روحه ، فلا معالم تهديه في الارض . وأبرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! فلا غرو انه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة احد . وحسبهم أن جاهدوا فأبلوا ولذلك اقول عرجوا بنا على معاهد أولئك الابطال لا كأبطال فازوا وظفروا ، بل كأبطال جاهدوا فصُرعوا وقد مهدوا لنا السبيل : ثلاثة جبابرة قاتلوا في حرب الكفر والايمان ، فنسفوا من جبال الباطل ما بات اثراً جسيماً على قبورهم ، فقفوا بنا على تلك الاحداث فان فيها عبرة وتذكرة !

لقد سبق لي الكتابة عن هؤلاء الابطال قصداً أو عرضاً ، ولا اراكم إلا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا الى ذكره ، وانما نتكلم عنهم الآن كانبياء ذلك العصر العجيب ، وان في الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة ، أي من وجهة انهم انبياء ، مجال لجملة آراء . واني أراهم الثلاثة رجالاً ذوي صدق يحاولون في اخلاص ان يبلغوا غاية الصدق ، ويثبتون أقدامهم في أرسى قواعد الحق ، فكانت طبائعهم من أكبر البواعث على ميلهم الى سنة الحق ، اذ كان لهم من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه ان يقيموا على الباطل ، وقد جعلت سحب الاضاليل والأكاذيب تنهال تحت اقدامهم ، فلم يكن لهم الا على اديم الارض معتمد ، والا فلا مستقر لهم ولا مطمأن . وقصارى القول أنهم كانوا ابناء طبيعة في عصر كلفة وتصنع ، كانوا رجالاً مخلصين في حين لا اخلاص ولا صدق ، وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة .

فاما جونسون فما زلت اراه رجلاً من اعاظم رجالنا ، قوي النفس متين الخلق شريف الطبع ، مفعم الفؤاد من كوامن الكرم ، بما عجز عن استثارته جمود العصر الذي عاش فيه ، ولو صادف من ايمان جيله جواً أكثر نوراً

وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ، ولجاز ان يصبح ملكاً جليلاً او اماماً كبيراً او شاعراً فحلاً . وعندي بعد ، أنه ليس من العقل ان يشكو المرء عصره وقدمه ودهره ، ولا فائدة في ذلك ولا ثمرة ، وهب عصره عصر خبث فما باله لا يطيّبه ، وجيله رديء فماله لا يحسنه . وكان جونسون في شبابه معسراً رث الحال عاثر الامل منفرداً، ولا تحسبوا ان سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلي عن عيشه سحب الهم لو أنها اتفقت له ، وذلك أنه كان مصاباً بالسوداء والألم الجثماني والروحاني الناشيء من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر ، فكان كما حدّث اليونان في خرافاتهم عن هرقل اله القوة ، إذ قالوا إنه كان يلبس قميصاً من نار فهو منه في عذاب أليم وبلاء مقيم ، ثم لا سبيل الى نزعه وكيف وانما هو بشرته وجلدته ! وعلى هذه الحال كان لا بد أن يعيش يائساً من الخلاص والنجاة .

يا ابن بوران لا مفر من الله ولا من قضائه المحتوم

وكأني به يمشي بين القوم قد قصّر خطوه المرض ، وتركته الوحشة غريباً في الاقربين ، يحمل بين جنبيه فؤاداً ضخماً شرهاً الى المكارم منهوماً بالعلى ، وروحاً غاصاً بخليط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر ، يلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية ، وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من اقوال الكتاب والشعراء .

وحقاً لقد كان سيد أهل زمانه ونابغة قومه الذي كان يجزيه على تلك العظمة والنبوغ درهمين في كل يوم ، ولكن ماذا يؤثر ذلك في نفس جبارة لا تنهزم ، وعزم ماض لا يكل ، وفؤاد صارم لا يفل . ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه — حكاية الحذاء — وذلك ان جونسون كان قد بلي حذاؤه وبصر به بعض الكرماء في نعليه الباليتين فرحمه ، ثم عمد الى حذاء جديد فاشتراه له ووضعه على باب داره في خفية ، حتى اذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد اليهما النظر من عينين كليلتين، اخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماهما من النافذة، ومعاذ الله ان يتدلى البطل العظيم الى مهابط الشحاذة، ويسف الى محاط

السؤال ، وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليد للأخمصين . فاما الشحاذة فلا .

فانظروا هداكم الله اي قوة كانت في ذلك الرجل المعوز البائس ، وأي اباء وعزة ، وأي توكل على الله واعتماد على النفس . اني ارى في جوف هذا الرجل عالماً من القوة والخشونة والبؤس والفاقة ، ولكنه بؤس أبيٌّ عفيف ، وفاقة عزوف انوف . وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلاً حراً جديد الديباجة ، وليس بأخي باطل خلق الاديم ، ولا ذليلاً ولا شحاذاً . وأولى بكل ذي مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ، ولو كان الوحل والترب لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب !

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الاباء ، ومرارة الكبرياء ، وشدة الانفة ، أكان قط رجل أرق حشاً منه ، وأسلس انقياداً نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ? وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو اشرف منها ، وأسنى قوداً نحو كل شيء انبل منها واسمى . وانما صغار النفوس ودقاقها هي التي لا تفعل ذلك ، وجونسون في ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن آية المخلص انه حسن الطاعة ، وانك لا ترى الخضوع والخشوع لمعاني البطولة الا في عصر كله ابطال .

وقد قلت ان جوهر الفضل والكرم ليس في انه جديد مبتدع ، فلقد كان جونسون فاضلاً وكريماً مع اقامته على قديم الآراء. ووجد في ذلك القديم حاجته وبغيته ، فعاش به عيشة شريف حر وماجد بطل ، وشأنه في ذلك غريب لأنه مع اقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من اهل الاكاذيب والظواهر ، وانما اخا حقائق واصول ، وذلك ان الرسوم القديمة التي اقام عليها كانت تحمل في اجوافها عنصراً من الحق .

وعجيب والله من هذا الرجل ابصاره اسرار الكون المقدسة وحقيقة الحياة الكبرى في ذلك العصر الورقي [1] المحل الجدب ، المشحون بالكلفة

---

١) نسبة الى الورق اعني ان موضوعات الكتابة كانت كلها مادية فهي مثل الورق الذي تكتب عليه .

والغش والتصنع ، ولا نعلم كيف وفق مـا بين مذهبه ومذهب ذلك العصر ، بل كيف اطردت له عيشة فيه . وحقاً انه لامر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والاجـلال . والله اشهد ان من اعجب الامكنة عندي واقدسها تلك الكنيسة – كنيسة سانت كلمنت – التي كان جونسون يعبد الله بهـا في زمن فولتير ، في زمن الكفر !

وانما عد جونسون نبيـاً لانه كان ينطق عن ضمير الطبيعة ، وان كان بالاسلوب الاعتيادي المتصنع . او ليس في كل اسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع باكذوبة . بل كل شيء متصنع كان في مبدأ امره حقاً ، وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة ، لم تك في اوائل امرها بمنكرات ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات الا طرق واساليب وعوائد توجد حيث يوجـد الانسان ، وانما تتكون الرسوم كما تتكون السبل وتنهج مفضية الى غاية شريفة يؤمها الجم العديد من أخيار الناس . واصلها ان رجلاً عالي الهمة شديد الاخلاص يجد السبيل الى فعلة من الفعال ، قل مثلا بث شكره لله ، او تأدية السلام لرجل من النـاس . اقول مثل هذا العمل او ذاك على ما ترون من صغره ، هو في الحقيقة جسيم ، وانما صغرته في انظـاركم العادة . وما كان ليوجد في هذا العالم لو لم يقدّر له الله مبدعاً ومبتكراً هو اول من نطق به وأوجده ، فهو لذلك بطل وشاعر بما انه قد اعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وبافئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله . فهذه طريقته في التعبير عن ذلك المعنى ، هذه اثار خطاه ، هذه مبادىء المنهج . ثم يجيء رجـل آخر فيترسم آثار الاول ، وتلك خطـة أسهل . يترسم آثار الاول مع اصـلاح وتصحيح وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركاب الطريق اتسعت اقطاره وانفسحت نواحيه ، حتى يؤول منهجاً واضحاً وسبيلاً مضروباً يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة ، ونهاية محمودة ، فهو مألوف للناس مرضي لديهم ، حتى اذا ضاعت الغاية هجر الطريق .

فالرسوم رعاكم الله تكون في اوائل امرها مملوءة بالمعاني الجليلة ، ولكم ان

تسموها جلوداً وأجساماً تسكنها حقائق حرة صحيحة ، ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الاصنام نفسها انهـــا لا تكون باطلة حتى تعتورها الشبهة في نظر عابدها ويضعف ايمانه بها . وما احسب ان كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم مُنسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها ، وانها كانت وسوف تكون ألزم ما نحتاجه في سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا ايضاً كيف كان ذلك البطل يتحــدث أيام صغره باخلاصه ، اذ لم يكن يشك في أنه من اكثر الناس اخلاصاً ، ومن اكفئهم للقيام بأي جليل من العمل . ولقد كان فتى شديد الجد والاجتهاد ، يستنزل الرزق من شاهق ، ويستدر به صخرة صماء ، ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر ، ولكنه رجل حق لا يقيم الا عليه ، ولا مضطرب له من دونه . أما ترون في ذلك لزوماً لمنهاج الحق من غير افتخار ولا اعلان ، لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » حتى يظل الناس ولا شأن لهم الا التحــدث به واطراؤه ، وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتيه به ويعجب !

كان جونسون نبي قومه ، وكان كلامه لهم انجيلاً ، شأن أمثاله من الابطال واضرابه ، وكان أنفس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم ، وما أعظم ذلك الموضوع وأجله في هذه الدنيا التي قلت فيها معلومات الانسان ، وكثرت واجباته ، وكان فحوى ما علمه القوم هو :

« قبيح بكم أيها النـــاس ان تغمسوا أنفسكم في غمار الشك ، وأعماق الكفر ، في عالم قصرت فيه المدارك ، وحسرت البصائر ، وثقلت أعبـــاء الفروض وموازين الحقــوق . انكم ان تفعــلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤساً ، وتكونوا كالذي تخبطه الشيطان وأنـّى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش . »

هذا هو الجيل جونسون الذي لقنه الناس وعلمه وشفعه بانجيله الآخر الذي فحواه :

« خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ، ودوسوا على الثلج والجليد في

نعالكم البالية ، لا في احذيــة الغير ، ذلكم خــير لكم ، كما كان يقول محمد [1] . »

وعندي ان هذا انجيل حكيم ، أحكم ما تيسر في هذه الأوقات .

أما كتابات جونسون فهي وان نفقت سوقها قديماً ، فقد اصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة . ولا أنكر ان كثيراً من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ، ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى عــالي القيمة ، جديد الرونق يد الدهر . وإني لأرى في كتب جونسون من أبــين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل ، ما لا يُدفع ولا يفل ، وما هو جدير ان يرحب به على علاته مهما كانت ، لانه كلام حر صريح أريد بــه أغراض سامية وأمور جليلة . أما اسلوبه ففيه جفاء وصلابة – خير ما وفق اليه إذ ذاك – اسلوب ضخم البناء يابس المفاصل ، كأنما يسير الهوينا في ارجح رزانة ووقار ، قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستطرف ، وربما سمعت له طنينــــاً وجلجلة لا يوازيها ما ضمن من المعنى .

ولكن هذه كلها مغتفرة في جانب ما اودع كلام الرجــل من الحكم والآيات ، وانما العبرة بالمعاني دون الالفاظ ، وبالارواح لا الابدان ، وكم من أسلوب حلو مونق خلو من المعنى ، كالقشرة العجيبــة النقش لا لب فيها ، والصدفة المصقولة ولا درة . وما كانت أرباب تلك الاســاليب الــكاذبة الا جناة مجرمين ، خليق بكل ذي دين ومروءة ان لا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم ، وجدير بكل قارىء ان يتحامى كتبهم ويجتنب أقوالهم .

ولو ان جونسون لم يترك لنــا الا معجمه لــكان حسبنا دليلاً على رجاحة عقله وحدة ذكائه ، ومن اطلع على وضوح تعريفاته ، وحدوده ، ومتــــانة مبانيه ، وصحة معانيه ، وحسن مذهبه ، كان خليقاً ان نعده احسن المعاجم جميعها . ولني لانظر اليه فأراه في جمال تنسيقه ، وفخامة صنعتــه ، كالقصر

---

[1]) يشير الى الآية القرآنية ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون .

المشيد متشاكل الاطراف ، متشابه الجوانب ، يطرد فيه روح النظام ويجول في حجرتيه رونق الاتقان والصناعة .

ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل ، ذلك الذي جاوز الحد في اجلاله وتقديسه لجونسون ، وقد بالغ الناس في تفنيده على ذلك ، وغلوا في احتقاره واصغاره ، ورغماً من أن لهم بعض الحق في ذلك ، فانهم بعد جائرون وظالمون ، وعندي ان إجلال بوزويل لجونسون ما زال من أجل الآثار ، وأعجب الاخبار ، وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين : اللورد الاسكوتلاندي الابله المغرور يدنو حاني الرأس خاشع البصر اجلالاً وهيبة نحو الاستاذ الجسيم في أطماره الرثة الترِبة وغرفته الحقيرة الخاوية . هذا والله صريح الاجلال لنفس كبيرة وروح شريف ، وهذه هي عبادة الابطال في زمن أقفر فيه العالم من الابطال والعبادة ، بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة في هذين الرجلين !

ولعل الوجود ما خلا طرفة عين من الابطال وعبادة الابطال . ولا جناح علينا ان ننكر ما قاله القائد الفرنسي « دي كونده » من ان الالفة تذهب الاجلال ، حتى ان البطل الكبير لا يكون بطلاً في عين خادم مرقده ، وان نرى ان البطولة أشرق من ان تطمس الالفة شمسها ، فاذا وجد الخادم الذي لا يرى عظمة سيده ، فالذنب عليه في ذلك لا على السيد العظيم . ولعل الخادم حسب ان البطولة هي حلة موشاة ، وتاج واكليل ، وأبواق تسجع ، واذيال ترفع . وإذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان أولى بالقائد الفرنسي ان يجعل كلمته هكذا : « لا ملك يكون سلطاناً فاخر المظهر في عين خادم مرقده . » ولو عمد انسان إلى الملك المهيب لويس الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عرياناً ، اذن لرأيت شخصاً حقيراً لا موضع فيه لاجلال خادمه ، والخادم الذي يحمل في جوفه روح خادم ، اي روحاً وضيعة ، ليس خليقاً ان يفهم بطولة البطل ، وانما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة !

أفلا ترون بعد ان اجلال بوزويل لجونسون لم يعدُ موضعه ، وانه ما كان ليجد في بريطانيا نفساً أحق بحنو الهامة وثني الركبة من تلك النفس الكبيرة ؟ وهل كان جونسون الا رجلاً عظيماً أُركب من عيشته ظهر صعبة شموس ، فراض جهده من صعوبتها وذلل من شماسها ، وخُلق في مضطرب فوضى الاقلام ومختلط فوضى الاديان والسياسات ، فمهد لنفسه منهجاً واضحاً وسط تلك العناصر المتصادمة المتنافرة . واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعثه ، ان يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته . وذلك بهدي الله وبكوكب ارشاد لاح له في سماء عالم الاسرار ، فوكل به عيناً كلؤاً وعقد به لحظاً علوقاً ، وجعله قبلة سفينتـــه في بحر الحياة العجاج ، صافحاً عن كل مغرية ومغوية ، ومال عن حزب ابليس ، ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه .

●

اما روسو فلم يبلغ في البطولة الدرجة العليا ، وليس بمصيب من اطرائي قسط جونسون ولا نصيب بارنز ، ومـــا هو عندي بالرجل القوي ، وانما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير النوبات العصبية . ولم يكن أوتي فضيلة الصمت — وأي فضيلة ومزية هما قصر عن غايتهما معظم الفرنسيين بل معظم اهل هذا العصر .

والرجل القوي هو في مذهبي من كتم مصيبته ، واخفى عن النـــاس دخان نيران احشائه . وقد كان يعوز روسو الجـــلد والصبر على الشدائد ، وهما أول شروط البطولة . وانه لمن الخطأ ان يُسمي النـــاس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الاعصاب ليس جديراً ان يسمى قويـــاً ، وان عجز ستة رجال عن إمساكه حين تثور به النوبة الشديدة ، وانما القوي من استقل بالحمل الفـــادح ثابت الوطأة قائم الصلب . وخليق بنا في هذه الاوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ان لا نزال نذكر ذلك . والرجل الذي يعييه ان يسكت حـــين يحين وقت الكلام والعمل ، هو رجل عاثر الرأي جائر عن القصد .

واری في وجه روسو عنواناً على خلقه : حاجبين مشرفين وعينين غائرتين ، تجول فيهما حيرة وقلق ، ويضطرب فيهما نزاع ولهف ، ووجهاً حافلاً بآيات الشقاء الوضيع ومعنى السوقية والحطة - عيوب لا يعوض منها في ذلك الوجه إلا آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول أنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه ، وانما نذكره هنا لأن فيه على علاته وهي كثيرة ، أولى صفات البطولة وهي الاخلاص . ولست مخطئاً ان قلت انه لم يكتظ في الابطال من هو أشد اخلاصاً منه . حتى لقد كان له من شدة الاخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد - الضعيف لولا هذا الاخلاص - طبعه الذي بلغ به اخيراً من المناقضات المنكرة ما يوشك ان يكون جنوناً . بل لقد أصابه بالفعل في آخر أمره صنف من الجنون . وذلك أن أفكاره ركبته كما تركب الشياطين الانس وساقته اعنف السوق الى كل قحمة ومهواة !

وكان منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه ، هو ما يعبر عنه بهذه اللفظة المفردة « الاثرة » اي حب الذات . وهو منشأ كل عيب ومصدر كل شقوة . ولم يرضْ روسو نفسه على قدع النفس ، والنفس طلعة ان لم يزعها الانسان نزعت به الى شر غاية . ولم يشحذ عزيمته لقهر جيوش الاهواء والشهوات ، وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة ، واخشى انه كان رجلاً كثير الغرور والزهو ، به غلة الى مدح الناس ، وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك أنها سارت به الى دار التمثيل بعد ان اشترط عليها ان يخفي نفسه عن أعين شهود التمثيل ، ويجلس بحيث لا يراه انسان قائلاً : « أنا لا اود ان يراني الناس هناك ولو ان لي الدنيا بما فيها » ولكنه اتفق رغماً من ذلك أن أرخي الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيراً . فاظهر اشد الغضب وقضى ليله آسفاً مكتئباً ، ولم يفه الا بمر الكلام ومضيض القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم اياه ، وانما لقلة احتفالهم به حينما رأوه .

والأسفاه على ذلكم البطل ، لقد خالط دمه سم الاثانية ، وتقسّم فؤاده الريبة

والوحشة والتبرم بالناس ، والاكتئاب والاطراق والهم ، حتى اصبح لا يطيق عشرة انسان. وكان رجل من سادة الريف يتردد اليه ويجالسه فرحاً به ، مسروراً بحديثه ، مبدياً له اصدق آيات الوداد والولاء ، فجاءه ذات يوم فوجده في اسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر. وبينما الرجل في حيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضباً:

« سيدي لا يدر بخلدك انك تستطيع ان تموه علي سبب زيارتك هذه فاني أعلم به منك لقد جئت الآن لتفاجئني وسط مصائبي وآلامي ، وتنظر أي عيش نكد اكابد ، وأي حال شديدة اقاسي ، وكيف اتحرق واتوجع ، وماذا اذوق واتجرع. فليكن ذلك يا سيدي ، وهاك مرجلي على النـــار فانظر بها عنوان الفاقة ، واستمع من ازيزها قصة البؤس. انظر سيدي في تلك القـدر هل ترى بها الا رطلاً من اللحم وكراثة وثلاث بصلات. وانت بعـد ذلك في حل ان تقول ذلك لكل من لقيت ! »

فمثل هذا الرجـل قد جاوز مصابه كل مصاب ، وعدا في الشذوذ كل مقدار ، واصبحت اعماله تلك نوادر حديث الناس وفكاهات سمرهم ، يلهون بها ويضحكون منها ، وما هي بلهو له ولا ضحك ، وكذلك رجفات المصارع المتخبط في دمائه وافته سكرة الموت هي مصيبة له وعذاب وهي فرحة الجمع المشاهد ولذته !

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الالم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا الا القول بأن روسو هذا قد عمد نحو الحقيقة في عصور الباطل بتلك الكتب - التي كتبها - العقد الاجتماعي ، واشادته بذكر الطبيعة ، والحياة الهمجية الطبيعيـــة ، وكان يؤدي بذلك لقومه رسـالة نبي حسب طاقته وطاقـة الوقت ! ومن العجب أنه كان في فـؤاد روسو هذا ، وسط هـذه العورات والخسائس والحمق الذي كاد يكون جنوناً ، جـذوة من النور الالهي . وما ذلك الا ان الله قد اثار بعد تقادم عهد ، من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق ، شعوراً قوياً في فؤاد ذلك

الرجل يوحي اليه أن هذه الحياة حق ، وانها ليست بكفرية ، ولا نظرية من النظريات ، وانما حقيقة عظيمة هائلة . بـذلك اوحت اليه الطبيعة وأمرته ان يصدع فصدع ، فـاذا لم يأت قوله محكماً بليغاً ، فانه جهد المجتهد . بل أن خطاياه وشواذه ، وسرقته الأقمشة ، وشروده في الآفاق ، وبؤسه وشقوته ، كل هذه آيات الحيرة والدهشة والترنح التي تبهر رجلاً حمل من الامر ما لا طاقة له به ، وتُرك في مجهل طامس الاعلام لا يعرف كيف يهتدي فيه .

أما مكانه في الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندي ان كتاباته كعقله مريضة ، وليست من النوع الذي أسميه صالحاً . وانما يمتاز روسو في كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية ، وتلك هي التي تعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف الجذاب ، ولكنها صور خلاف كرائم الصور الشعرية مما ابدعه عقل شكسبير أو غوته . كلا ! ولا كتصويرات والتر سكوت . وكل من نظر في بدائع هؤلاء ففهمها ، عرف الفرق بينها وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله : عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب ، وظل جديراً ان يفرق بين هذا وذاك ما عاش ، فانه فرق كالذي بين نور الشمس ونور المراسح الصناعي .

لقد تبينا في جونسون ماذا يستطيع البطل ان يقدم الى العالم من الخير ، رغماً من كل ما يحفه من المكاره والآفات ، أما في روسو فلنتبين أي شر وضر وبلاء قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أنّا لو ننظر الى موقع روسو من التاريخ ، لرأينا مشهداً جللاً ، ومنظراً هائلاً . ولشد ما أساء العالم الى نفسه باساءته إلى ذلك البطل . وماذا أفادهم أن شردوه ، وتركوه يأوي من الفاقة الى اسطحة المنازل ، يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ، ويطيف به من العوز والكربة أنحس خليط ، شريداً طريداً يلجأ من غار الى كهف كأنه الريح الهوجاء حيرى مولهة « حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد » ! بلى ، ماذا أفادهم انهم

ألحوا عليه بالضر والأذى ، وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ ، وجن جنونه ، وحتى جعل يعتقد أن العالم شر ، والمدنية سوأة وجريمة ، وان الدنيا اكبر اعدائه ، وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم . وكان أولى بالعالم أن لا يعادي مثل هذا الرجل ، ويستنزل عقابه ونقمته ، فيصبح معه كما قيل :

حداك اليّ الحين حتى استثرتني عليك واني في عريني لمخدر

لقد قدر العالم على إلجاء ذلك البطل الى الاسطحة ، وعلى اتخاذه اضحوكة يسخرون منه كما يُسخر بالبله والمجانين ، وعلى اجاعته وتركه يتضور من السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من اضرام الثورة وإشعال الأرض ناراً تلظى ؟ لقد وجدت الثورة الفرنسية انجيلها في كتابات روسو ، وقد احدثت آراؤه الشبيهة بالجنون في آفات المدنية ، وتفضيله عيشة المتوحشين على عيش المتمدينين ، جنوناً فاض في انحاء فرنسا وغمرها . ولنا بعد ان نسأل ماذا عسى العالم وملوك العالم ان يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به ؟ هذا سؤال نعيا ويعيا العالم وتعيا ملوك الأرض بجوابه ، فأما ما يستطيع روسو أن يصنع بالعالم وملوكه فذلك يا للاسف ، واضح بين : يضرب اعناقهم !

●

كان من أعجب العجائب أن ظهر في القرن الثامن عشر – قرن الكفر والضعف – بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تماثيل الخشب وعرائس الورق ، بطل كبير في زي فلاح حقير يحمل الفأس ويسحب المحراث ، الا وهو روبرت بارنز الاسكوتلندي ، الذي جاء في ذلك العصر القفر كالينبوع الشبم الفرات ، وسط البسابس الملس ، او كالفتقة الزرقاء في الغيم المتلبد ، أو كمنظر السماء وزينتها من خلال سقف القصر المزخرف . اذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها الا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر ،

أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية [١] ، فبينما هم في وسط تلك الصور والأكاذيب انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب ، فدهشوا وتملكتهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طالت بهم الحيرة ، أجمع رأيهم على ان هذه السماء ونجومها الباهرة ما هي الا من قبيل تلك الصور والاشكال التي اعتادوا رؤيتها ، جهلا منهم وضلة وعماية .

وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون ، وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون . فوا أسفاه ! لبئسما تلقى بـه القوم هدية الله اليهم – ذلك البطل الجليل – وبئس منزلته بينهم وجواره فيهم . ولا أعلم رجـلا لقي من الغبن والوكس ، والتعس والنكس ، ما لقي روبرت بارنز . فيا لله أي جوهرة كريمة نُبذت بأكنـاف صحراء ، وأي درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء ، وأي بلبل صداح تقاذفته ايدي الاطفال ، وحر كريم تناشبته أظفار السفلة الانذال :

اضاعوني وأي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسـداد ثغر

وكان أبوه صانعاً فقيراً وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها جميعاً ، وما زال من عيشه في عذاب دائم وبرح مستمر . وقد حدثنا بارنز فقال :

« كانت ترد على أبي طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم ، فكانت تنخب أفئدتنا وتستذيب دموعنا . »

انها دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعـذب ، وزوجه الجلدة الصبور ، وصبيتها وفيهم بارنز . كان لهم الله ، لقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وحرمتهم مشارعها العذبة وهي حل مبـاح للوراد ، ومنعتهم مراتعها الخصبة وهي طلق حلال لكل مرتاد تأمـلوا رحمكم الله في قوله : « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أي مشهد حزن ومنظر ألم ! واني

---

١) التي يسمونها بالعامية « الصواريخ » .

ما زلت أرى في والد بارنز بطلا صامتاً وشاعراً مفحماً ، ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير . ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول :

« لقد جئت مدينة لندن ، وحضرت بها نوادي السراة والأعيان ، فلا والله ما لذ أذني كحديث والد بارنز ، ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التي امتعتني مدةً ، حول مائدة ذلك الصانع المسكين » .

وقد كان في الحقيقة مسكيناً منغص الحياة ، مرنق موارد العيش ، جامد اخلاف الرزق . لم يصادف نجحاً في السبعة الفدادين التي رزقه الله ، ولا في أي شيء غيرها ، فكان بينه وبين الدهر حرب لا تنتهي ، كان المغلوب فيها أبداً ، وسوق لا تفض ، كان الخاسر فيها دائماً . ولكنه ثبت في تلك الحرب طول عمره ، وما كان منه قط حيصة ولا فرة . فيا له من كريم باسل أيد الركن ثابت الاس ، لا تهيل من جانبيه الحوادث ، ولا تتخون من قطريه الكوارب والكوارث ، حمول يغضي على الأقذاء ، ويرد أنفاس الصعداء ، وتضيفه النوازل والكرب ، فيقريها الصمت والسكون ، وتهم المصائب ان تلتهمه ، فيلتهمها ويجعل لها من صدره الرحب قبراً لا تنبش دفينته ولا ترد وديعته .

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقانب

●

حليم اذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب في صدره الرحب

يا له من بطل يناضل كتائب الدهر مستوراً عن الأعين ، لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية ، ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية ، ولا تقيد نوادر مجده مصايد الشعر ، ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر . ولكنه لم يذهب عمله سدى : ولا شيء في العالم يذهب سدى . نعم لم يضع مَنْ هذا ولده ! وان يذهب فهذا روبرت بارنز سليله ، وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز الى هذه الدنيا محفوفاً بالمكاره والشدائد ، بين سوء حال ، وسوء تعليم ، وكد ونصب . يختلس النظم من ساعات الكدح اختلاساً ، ويسترق النظر في كتب الفحول استراقاً ، ويكتب بلغة ريفية مجهولة الا لاقليم صغير من البلد الذي ولد فيه ، ولو كتب ما كتب باللغة الانكليزية الشائعة لما شككت في أنه كان ينال اجماع الناس على انه من اعاظم رجالنا ، وان كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح اغلاقها عما اودعت ، وفض اختامها عما ضمنت ، دليل قاطع على أن هنالك جوهراً مكنوناً وسراً مصوناً .

وبعد فقد أحرز اقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق ، وما تزال دائرة ذكره في اتساع ، وصوت صيته في ارتفاع . وقد شرع الناس في جميع انحاء العالم السكسوني ، حيثما طارت الريح بلفظة انكليزية ، يدركون ان من خير ما أنجبت التربة البريطانية ، رجلاً فلاحاً اسكوتلاندياً اسمه روبرت بارنز .

نعم ، ولا حرج عليّ ان قلت اني أرى في بارنز هذا ، جوهرة كريمة بريطانية ، أبدى الله صفحتها ، وجلا رواءها وبهجتها ، على حين لا عهد للناس بالجوهر . نعم جوهرة هي على لألائها ووقدتها أمتن الأشياء وأصلبها ، كالحجر الكامن في احشاء الارض ، كالحجر ولكنه المطوي على آبار الرأفة والرحمة ، وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة ، وعلى حلو النغم ومطرب الغناء . طبع شريف خشن ، وسذاجة قوة وعظمة ، فيها بوارق الحدة وفيها أنداء الرأفة ، فهي كإلـه الرعد « تور » ، إلـه المزارع والريف !

ولقد حدثني أخو بارنز ، وهو المستر جلبرت — رجل فاضل عاقل — فقال لي إن بارنز كان في صباه شديد الفرح ، مستعذب الحديث ، جذل الكلام ، اخا لعب وضحك ومراح ، شريف الوجدان ، وفير العقل . وكان يوم هو غلام ينثر الحب ، ويحصد الزرع ، أفرح حديثاً ، وأعذب

اشـارة ، وأبعث لسرور الجليس بمراحه وجـذله وانطلاق فـكاهته ، منه في سائر أطوار حياته . وهذا كلام جـــدير بالتصديق . ومراح بارنز الغريزي ، وجذله الفطري - ذلك الخلق الذي لا أشبهه الا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك في رونـق الربيـع الجـديد - ذلك الخـلق ممزوجاً بمرارة جده ، وحرارة حدتـه ، وذوب رحمته ورقتـه ، كان من أخلب صفات بارنز .

وكان ذلك البطل جم عتـاد الامل ، غزير مـادة الرجاء . ولم يكن بالمطرق الحزين ، أخي الشكوى والانين ، رغماً من شدة مصابه ، وطول عذابه . وانما كان ينفض الاحزان عن كبده ، نفض الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبده . وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقعة السلاح ، بقهقهة الصهيل ، ويرقص على صدح الابواق ، وقرع الطبول ، ويهز الاعطاف والاوصال ، كهز الكماة القنا المسال ، ويضرم الشد أيما اضرام ، كتضريم المهند الحسام ، نيران الموت الزؤام ، في الجيش الكثيف اللهـام . ولا أرى مراح بارنز ونشاطه وفرحه وأمله ، الا نتائج ما أوتي من عواطف الحنان والرأفة ، أصل كل فضيلة واساس كل مكرمة .

وربما أخذك العجب ان قلت ان بارنز هذا اكبر نوابغ البريطان في القرن الثامن عشر ، ولكني أوقن انه سيجيء اليوم الذي لا يعجب الناس فيه من قولي هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفحولة ، ما هو الا حفنة طفيفة من كنوز فضله ، وثمرة فجة من بستان عقله . وقد قال عنه الاستاذ « ستوارت » كلمة تقال في كل شاعر ذي قيمة ، وهي ان شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه ، وانما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع بدا له ان يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر .

هذا ولقد كان حديث بارنز المرتجل العادي ابدع من شعره ، وابدع من حديث كل مخلوق ، فكان اعجوبة القوم ونادرة العصر ، وكان :

شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقـــله المستوفز

ان طال لم يملل وفي ايجازه   يهوى المحدث انه لم يوجز

وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الالحان ، من اخفض جرس التحية وألين عبارة الملاطفة الى ارفع صوت الغضب واشد صيحة الوجد . وفيه ضحك الجذلان ، وزفير الولهان ، ورنة الثكلان ، وايجاز المجتزىء باشارته ، واطناب المسهب في بلاغته .

❁

وقد شهره الاميرات البارعات الادب بأنه كان يخلبهن بحديثه ، ويستخفهن حتى يكدن يطرن في الهواء . فهذا والله عجيب . ولكن أعجب منه ما رواه النقادة النابغة المستر لوكهارت من ان خدمة الفنادق كانوا اذا رقدوا في فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم ، وثبوا من مضاجعهم فالتفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . خدمة الفنادق ! وما لي أعجب من ذلك ؟ أليسوا رجالاً ينصتون الى رجل ؟

ولقد قرأت وسمعت كثيراً في صفة حديث بارنز ، ولكن اجلّ ما بلغني عن ذلك هو ما حدّثني به العام الماضي شيخ ممن كان من أخص اصدقاء بارنز ، وهو ان بارنز ما فتح فاه قط الا ألقى منه حكمة . قال ذلك الشيخ : « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت ، فاذا تكلم جلى من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته . » ولا ادري لماذا يتعرض المرء للكلام في الموضوع اذا لم يفعل كذلك !

وجملة القول اذا نظرنا الى قوة نفس ذلك البطل وفحولته في كل ما نطق وكتب وصنع ، وشدة صراحته ، وسمو همته ، وكمال مروءته ، ونفاذ بصيرته ، ووفرة رجولته ، تعذر علينا ان نجد له في القرن الثامن عشر نظيراً :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ   دد والمجد والمكارم مثلا

ولكنا اذا أجلنا النظر في عظماء القرن الثامن عشر ، وجدنا بينهم رجلاً فيه مشابه من بارنز ، وهذا هو ميرابو . فهما في الجوهر متشابهان ، وان

تباينا زياً وتخالفا ظاهراً . نعم انهما سواء في قوة البدن وقوة الروح ، كلاهما غليظ الرقبة ، شديد الكدنة [1] ، كبير النفس ، ضخم الفؤاد . ولكن ميرابو أكثر صخباً ، وأشد دفعة وقلقاً ، بالفطرة والنشأة والشبه القومي . ومزية ميرابو بعد هي الصدق والعقل ، ونفاذ الرأي ، وحدة الجنان ، وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمتثل ، وما كلمته الا طعنة الرأي في حشا المشكل ، ولمحة برق اليقين في دجى الشك :

ألمعي موفق بهدى الله لدى الخطة العياء العقام
وإذا باده الحوادث بالرأ ي أصاب الصواب بالالهام

●

ألمعي يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

●

وكذلك كان بارنز . وكلاهما كان جياش الصدر بمراجل الأهواء والشهوات ، طوراً تعصف عصف الجنائب ، وتارة تخطر مر النسيم . وفي كليهما العارضة والبديهة ، والمزح والضحك ، والفكاهة والقلق ، والنشاط والتوقد ، والعزم والهمة ، والصدق والصراحة ، والجد والاخلاص . فهما من محتد واحد في الكرم ، وان تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال ، ومن جوهر بعينه في النبل ، وان تنوعت بعد بهما الاعراض والاحوال . فلو أن بارنز شغل مكان ميرابو في الحكومة والسياسة لأجاد مثله في كليهما ، ولكن شجاعته العتيدة كانت يا للأسف تُصرف في اسر مهربي البضائع في خليج سولواي بتلك البحار الشمالية ، وفي السكوت عن كثير من المغضبات حيث كان لا يجدي الكلام ، وانما الحنق الاخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لألجمت اللد الخصام في المناظرة ، واستحقت قول القائل :

---

١) الكدنة : القوة .

كم حومـة للخطاب فرجها والقوم عجم في مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عـن كأنها منه طعنة خلس

ولبدت تلك الشجاعة لعيون المـــلأ طراً في تدبير الدول ، وتنظيم الممالك ، واصلاح شـؤون العالم . ولكن القوم ، أعني الحكومة ، قالت لبارنز قول موبخ : « لست للتفكير ، إنمـــا أنت للعمل ! » فكأنها قالت له ضمناً : « لا حاجة بنا الى قوتك المفكرة – أكبر قوى البلاد في هذا القرن – وانما نريد منـك أن تمسح الاراضي ، ولسنا لغير ذلك نريدك ! »

حسن والله هذا وجميل ! حتى لكأن قوة التفكير ليست في كل آن ومـكان أهم ما تحتاجـه الدنيا . أوليـس شر الناس هو الرجـل الذي لا رأي له ولا تفكير عنـــده ، الذي لا يفكر ولا يرى ، وإنما يتجسس ويعيث ، ويتخبـط ويهذي ، ويخطىء حقيقـة الشيء الذي يزاوله ، ويظـل حـائراً مضللاً لا خـير فيه ولا ثمرة . هذا هـو شر الناس ، وهو الآفـة والبليـة .

وعسى قائل يقول : « ما بالك تعلن شكواك وندمك عـــلى ذلك ؟ أما تعلم ان ذا القوة قدماً ممنوع من مجال أظهار قوته ؟ » نعم ، وذلك أضر بما نعيـــه وأبرح . واذا كانت الشكوى قليـلة الجداء ، فما ذكر الحقـائق بقليـلة . ولا يسعني الا القول بأن استغناء العالم الأوروبي عن مثل بارنز ، والثورة الفرنسية على الابواب ، لا يدعوني إلا الى الحزن والاسف !

وبعد فأهم صفات بارنز الاخلاص ، وهو ايضاً أكبر مزايا شعره وعيشته . وما قصيده الذي يتغنى به ، بمجرد تصورات وتوهمات ، وانما احساسات تجيش بخاطره وتثور بوجدانه ، وسر ذلك وسر فضله في جميع اركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هي ما يمكن ان نسميه روايـــة محزنة سداها الحق ، ولحمتها الاخلاص : الاخلاص المر الوعر ليس القاسي ، ولكنه اخلاص

جريء ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها ، ومن ثم ترى في جميع الابطال روح التوحش والسطوة !

•

لقد يعزينا عن شقاء اولئك الكتاب الابطال ، انهم لم يخلوا من اجلال بعض الناس اياهم . ولكن أي حالة عجيبة وصل اليها ذلك الاجلال ! اما أن في ازدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس يرهفون الآذان لاستراق كلمة من كلام بارنز ، لاجلالاً منهم لذلك البطـــل ، وان كانوا بذلك لا يشعرون . هذا وقد أوتي جونسون في اللورد بوزويل اخشع محترِم ومعظّم . وسخر الله لروسو أشراف الدولة وامراء بيت الملك يزورونه في غرفتــه الحقيرة ، ويجلّون منه رجلاً تقاسمته النوائب فشطره للبؤس وشطره للمس والخبل . تناقض وايم الله عجيب ، وحياة لا يلتئم طرفاها ، وينكر أسفلها أعلاها . فبينا هو يجالس العيون والسراة ، ويؤاكل الرؤساء والقضاة ، إذا هو ينسخ بيده سطور الغناء لينال من القوت مسكة الذماء [1] . ومن مأثور قوله في هذا الصدد :

« لقد حملت نفسي بالتغدي في منازل الامراء ، على خطر الهلاك جوعاً في منزلي ! »

وفي ذلك على عاشقيه ومعظميه من العار ما فيه !..

وعلى كل حال ، سواء نال الكتّاب الابطال حقهم من الاجلال أو لم ينالوا ، فهم اساتذة العالم يؤدبونه ويحكمونه ويعظونـــه ، وما نافذ فيه الا كلمهم لا مرد لها ، ولا ملغى لحكمها . فعلى الـكاتب البطل ان يفكر ويرى ، وعلى الملأ أن يذعن ويخضع . وعلى الـكاتب ان يأمر ، وعلى العالم ان يصدع . وللعالم بعد ان يختار طريقة الاذعان والطاعة ، فاما قهراً واما اختياراً ، واما حسبة واما اضطراراً ، اما صحو خريف فينان الظلال ، ناعم الآصال ،

---

١) الرمق .

طيب اردان الصبا ، مصقول رونق الضحى ، واما سحب صواعق تمطر الحين والبوار ، ونكباء تنسف الدور وتقتلع الاشجار. طريقان متعاكسان مفضاهما واحد ، وصورتان متباينتان والجوهر فرد ، فاما نور مقيـد ، واما برق مبيد.

وليس الامر الهام هو ماذا نسمي البطل وبماذا نعامله ، وانما هو أنصدق كلمته ونصدع بأمره أم لا. واذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق ، فسنعتقدها ونعمل بها طوعاً او قسراً ، وان لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا. فاما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له فذلك من شؤوننا وراجع الينـا ، وأما كلمته فتلك رسالة الله الى العالم ، ولا بد من ان ترغمنا على تصديقها وتستولي على نفوسنا.

وآخر أقوالي في هذا المبحث ، كلمـة عن أهم حوادث حياة بارنز ، أعني وفدته على ادنبرغ. وطالما رأيت انه قد كان في رباط جأشه هنالك وثبات جنانه ، اوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله.

لقد كان في انتقاله من اسفل حضيض البؤس والكرب والخمول ، الى اشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ، ما هو جدير ان يطير بلب اي امرىء ويذهب بعقل اي إنسان. فبينا روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزأه النحس اجرته الزهيدة – سبعة جنيهات في العام – فعادت الدنيا في عينه اضيق من بياض الميم ، وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى امريكا ، إذا به قد ولج زمرة الاشراف والامراء فافسحوا له بينهم اكرم مقام ، وبوأوه صـدور المحافل ، وخاصرته ربات القدود يسايرنه مزهوات بمسايرته ، رانيات اليه بأعين الجآذر ، عاطفات سوالف الآرام[1] وتلمت نحوه الاعناق ، وازدحمت فيـه العيون فعليه من حدق نطاق. والضراء ثقيلة على كاهل الرجل ، ولكن السراء اثقل ، وفي كل الف من الناهضين بعبء البؤس واحد ينهض بثقـل النعمة ،

---

١) سوالف : جمع سالفة ، وهي صفحة العنق. والآرام : جمع رئم ، وهو الظبي.

ونادر في الناس من له ان يقول :

كل بلوت فلا النعماء تبطرني   ولا تخشعت من لأوائه جزعا

ولا نعلم في الناس من فوجيء من النعمة بمثل ما فوجيء به بارنز ، ولا نظن ان رجلاً غيره كان يبدي ما أبداه من الرزانـــة والوقار . فلقد لقي ذلك الحادث الجليـل لا حائراً ولا وجلاً ، ولا هائبـاً ولا خجـلاً . ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء ، ولا من نخوة ولا غلواء . وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر ، انه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع ، وأن هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس الا من قبيل النقش في صفحة الدينار لا ينقص من قيمته ولا يزيد ، وأن الشهرة ما هي الا ضياء يرسل على الرجل فيريك أي رجل هو ، ولكنه لا يجمل منه ولا يقبح ، ولا يشوه من صورتـــه ولا ينقـح ، غير انـه ربما قبح وشـوه بما يملأ الرجـل كبراً وغروراً ، ويصعر خده ، ويصلف جانبه ، وبما ينفخه حتى يتصدع ، فيعود كالأســد الميت خير منه كلب حي . فبارنز في هذا الأمر قـد برع وفاق ، وجاء غرة زهراء في جبهة السبق .

ولكنّ هؤلاء الجماعة – عشاقه المعجبين به – هم كانوا سبب شقوتـه وموته . هم الذين حرموه لذة العيش ، وحرموا عليـــه طيب الحياة ! هم كانوا يلتفون به في حقـــله ، ويحولون بينه وبين عمله ، لا يقعدهم عنه بعد الدار ولا شطط المزار :

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم   رأوها مكان السوق أو هي أقربا

لقد أعيا عليه مع صدق الجهد والمحاولة ، أن يمحو ذكر نفسه من اذهان الجماعة . وكم أراد يفصم عروة ما بينـه وبينهم فما أفلح . وهكذا تقلب عليه الدهر بالاكدار والمحن والخطايا ، وادبرت عنه الدنيا ، وزايله الأمن والعافية ، والغبطة وحسن السمعة . وأصبح إلا من الهموم والاشجان منفرداً ، وأن في ذكراه والله لحزناً وبثاً . وفيم كانت زيارات

القوم اياه اذا لم يكونوا يقيلون عثرته ، ويسدون خصاصته [1] . بلى انه ما من رحمة كانت زيارتهم وإنما للهو والتفكهة . وذهبت حياة البطل ضحية ذاك !

قال ريشتار ان في جزيرة « صوماطرة » ضرباً من جسيم الذباب براق الاجنحة ، يستصبح به سراة القوم ، فيجعلونه في أطراف العصي كالذبال ويسيرون في ضوئه . وهكذا ينعم سراة القوم بأمثال النجوم الطوالع والشهب اللوامع . فسلام الاله وريحانه على تلك الذباب ! ولكن !..

---

١) الخصاصة : الفقر .

البطل في صورة ملك

كرومويل - نابليون

نذكر الآن آخر اشكال البطولة ، ذاك الذي نسميه الامـــارة . وامير الناس وقـــائدهم ، الذى عن رأيه يصدرون، ولأمره يذعنون ، وبه في جميع الامور يقتدون ، واجدين في ذلك الخير والفلاح والفـائدة ، لجدير ان يبوأ من ديوان الابطال صدره ويحمل في دولة العظماء اللواء . وانمـا هو في الحقيقة جملة البطولة على اختلاف اصنافها ، وهو الخـلاصة والزبدة والعصارة ، وقد جمع الله في ذاته سائر ضروب الابطال ، وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومبـــاحث معضلة يمنعنا من طروقها ضيق المجال . وانما نذكر كلمة شبيهة بكلمة « بيرك » حيث يقول :

« اسنـاد القضاء الى نخبة من القضاة يشتركون في اصدار الاحكام هو روح الحكومة ».

فكذلك نقول نحن ان خلاصة اعمـال المجتمع الانساني ، سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد ، هو الاهتداء الى أعقل رجال بلدك وافضلهم واحزمهم ، ثم تقليده الحكومة والسلطة واعطاؤه الخضوع والطـاعة ، حتى يستطيع بذلك ان يهدي النـاس حسبما يلهمه عقله ويوحي اليه فؤاده . وانما الى ذلك قصدت البرلمانات وخطبهـــا ، ولوائح الاصلاح والثورات فرنسية ، وغير فرنسية .

اهتدِ الى أعقل رجال بلدك واكفئهم ، وارفعه الى المكان الاعلى وبجّله واكبره تحرز لبلادك خير حكومة . وانك ان تفعل هذا فقد بلغت المدى ، وكل شيء بعد ذلك فضول ولغو . فان اعقل الرجال هو ايضاً اكرمهم وابرهم وارحمهم ، وليس فوق نصحه نصح . وقول الامام امام القول . وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك أحكم

واليق وأعلى ما نستطيع ان نجده تحت قبة الفلك ،هو ما يجب علينـا ان نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هي الضالة المنشودة والغـاية القصوى .

اقول الغاية القصوى والله يعلم ان الغايات تبلغ بالامل ، ولا تنـال بالفعل . وللاماني جياد سابحات تسبق وفد الرياح ، يرسلها الفكر في مضمار الوهم فتطير باجنحة الرجاء الى كل غاية ابعد منالاً من الثريا فاذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل في ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والآفات ، وسقطت الجياد اثناء المضمار طلحا انضاء ، حسرى الجهد والاعيـاء ، دامية السنابك من الحفا ، مهزولة الاعطاف من الأين والوجى . وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى ، سخرة الواقع ، كالخيال في المرآة يبيح العين ما يمنع الكف .

أو كالسماء وكل ما زينت به وكبعدها وكقربها من لاق

وانـّا وان استحال علينا ان نبلغ الغايات ، فحسبنا ان نأخذ في سمتها أو نقع منها على مسافة ترضي وتسر ! ولا يفعل احد من الناس ما نهى عنه الشاعر الالماني « شلر » اذ قال :

« المرء تلقـاء الحوادث ضعيف ، فلا يقس احد منكم مجهوده النزر القليل بمقياس الكمال ! »

ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط ، مأفون الرأي ، مصدوداً عن الحق . ولكن لا ينس المرء مع ذلك ان يجعل الغاية نصب العين ، فانه لا يقوم عمود صلاح الدين والدنيا على اساسه ويستقر في نصابه ، حتى ينزل الانسان قريباً من الغاية . فاذا لم يتم له ذلك انهـارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه .

ونحن نعلم انه ليس في العالم بنـّاء يمكنه أن يشيد جـداراً فيجعله في أقصى درجة العمودية ،اي ان يجعل الزاوية الحادة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط ، لا تنقص درجة ولا تزيد درجة . كلا ! فهذا مستحيل علمياً فكيف باستحالته عملياً !ولكن اذا لم يدن البنـّاء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو ،فأحر

بجداره ان تنهار أركانه وينهدم جثمانه . نعم اذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره ، وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض ، بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق ، فاجدر به ان تسوء عقبـاه ويشقى ، فانه قد اغفل امره ونسي نفسه . ولكن قانون التوازن – ناموس الطبيعة – لم ينس ان يسري عليه وعلى بنائه ، وما هي الا برهة حتى يسقط هو وبنـاؤه فيرتد كثيباً مشوشاً ومعهداً خرباً !

وهذا هو أصل كل فتنة ، وتاريخ كل ثورة ، وحديث كل انفجار اجتماعي ، في الازمان القديمة والحديثة ، اجل انما سببها هو انك وليت الرجل العاجز ، وجعلت غير الكفؤ على رؤوس الأعمال : الرجـل الخسيس السافل الدنيء الكاذب ، ونسيت ان هنالك قانوناً او ضرورة طبيعية تستدعي تولية القادر الكفوء . وظننت انه لا بأس عليك ان تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق بلا قاعدة ولا حساب .

والرجل الكاذب اذا وليته كان جديراً ان يتخذ كل كاذب خبيث مثله ، ومن ثم يروح امر النـاس مختل النظام مبدد الشمل ، تأكل جوفه الخيبة ويهدم اركانه الشقاء والبؤس ، وترى الملايـين من خلق الله قد اضطربت عليهم أمور دينهم ودنياهم ، واسودت في عيونهم ظلمات اللبس والحـيرة ، فهم يمدون الايدي استهداء ولا هادي ولا مرشد ، ويبسطون الاكف استعطـاء ولا مانح ولا رافد . حينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه وتسري نواميس الطبيعة ، وهي التي مـا غفلت عن العمل طرفة عين ، فتثور الملايين ويجن جنونهم ويسقط البِناء والبنّاء .

●

ان من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة،يلق بها أسفاراً ضخاماً ومؤلفات جساماً ، تفيض في موضوع « حقوق الملوك المقدسة » ومعناه ان كل ملك مهما كان ، هو خليفة الله في الأرض ، قد ولاه الملك القدوس زعـامة خلقه بعقد مقدس خفي ، فعقد في رقاب العباد بيعته ، ووجبت عليهم طاعته ، واستحكمت

في نفوسهم مهابته وخشيته . تلك هي عقيدة القرون الغابرة ورأي آبائنا الاول . عقيدة دفنت معهم في قبورهم ، ورأي بان ببنيهم ، ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر اعلامه ، ومجلدات كالقبور تبلى فيها افكارها ، وتنخر في اجوافها عظام محتوياتها ، لا يزورها انسان ولا يعوج بها مخلوق ، وباطل لاح في ظلم الجهل فمحا آيته نور اليقين ، ودولة زور استقل نجمها ثم خوى ، واشمخر طودها ثم هوى ، وأكذوبة اديل منها الحق .

واني مع ذلك لا ارى من كرم الطبع وشرف الشيمة ان نتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا ونلحقه أهاجينا وشتائمنا ، فحسبه هزيمته وكفاه خزيه وفضيحته ، بل ارى – ولا يعجب القارىء ولا يرع – أنه لا يحسن بنا ان نترك هذا الزور والمحال يمضي من غير ان نفتش أجزاءه ، ونفحص انحاءه وارجاءه ، ونقلبه بطناً لظهر ، علنا نجد في ثناياه معنى من الحق ، وان فيه لحقاً يجدر بنا وبسائر الناس ذكره !

أما قول هذه المؤلفات أن اي انسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك ، فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد وتسميه ملكاً ، يرسل الله عليه في الحال شعبة من نوره ويمده بروح من عنده ، ويعمر فؤاده باسراره القدسية ، ويؤهله في التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضي مشيئته ، فذلك حمق وخرافة ، وحسبه منا ان نتركه يبلى ويعفن في اجواف كتبه ، أو بعبارة أصدق اجواف قبوره .

ولكني أقول – وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب «حقوق الملوك المقدسة» وهو انه يوجد في الملوك وفي جميع العلائق والمسؤوليات والسلطات التي تكون بين الولاة والرعية إما حق مقدس او منكر شيطاني ، لا بد من احد هذين ! اذ أنه من افحش الخطأ والكذب ، ما قاله القرن السالف الكافر من أن هذه الدنيا آلة ومكينة . بل ان في الكون لالهاً وكل ما يجري بهذا العالم من حكومة وطاعة رعية ، بل كل عمل وحركة ، لا بد أن يبوء إما برضى وإما بغضب من الله . وأشرف ما يجري بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة

والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس ما لا يستحق ، ولمن يأبى ان يؤدي من الطاعة ما أوجبه الله عليه ، لزعيم او امير ! بذلك يجري قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات .

نعم ان في كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقاً مقدساً او منكراً شيطانياً .

هذا امر جدير بالنظر والتدبر ، وخليق ان نذكره في جميع شؤوننا ، ولا سيما في امر الزعامة والولاء أهم تلك الشؤون . وعندي انه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذاك المذهب القائل ان العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدبير الثروة ، وانه لا معنى هناك مقدساً في تعاشر الناس وتخالطهم . واني اكرر عليك قولي : « انك ان تأتني بالملك القادر الكفوء لأجعلن له علي حقاً مقدساً . » ولعل دواء ادواء الامم في هذه العصور هو ان يوفقها الله بعض التوفيق الى ايجاد الملك الكفوء وان يلهمها طاعته والانقياد اليه ، اذا وجد !

واني ارى في الملك القادر — هادي الأمة في سبيل الأعمال الدنيوية — خلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو ايضاً هادي الأمة في سبيل شؤونها الروحانية التي هي مصدر الشؤون الدنيوية ، فالملك لذلك رئيس الكنيسة ايضاً . ولندع بعدُ مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يبلى في أجواف مؤلفاته أو قبوره لا نوقظ صداه ولا نستثير هامته .

وحقاً ان التماس الرجل الكفوء والحيرة في ذلك ، لمن اشق الأمور وأجسمها ! وتلك هي آفة الامم في هذه العصور والازمات الحرجة . هذه اوقات ثورات . واني أرى بناة شؤون الدنيا قد اطّرحوا المقاييس والمعايير واغفلوا قانون التوازن فانهار البناء بهم ، فاذا هم والبناء خليط انقاض مشوش !

وليست الثورة الفرنسية هي مبدأ هذا التهدم والسقوط ، بل لعلها الغاية والنهاية . ولا نخطىء اذا قلنا ان المبدأ كان منذ ثلاثة قرون ، اي منذ نهضة لوثر . وكان داء العالم اذ ذاك تحول كنيسة الله اكذوبة ، ووقاحتها وصفاقة

وجهها اذ تدعي لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار . وكان هذا مرضاً في الدين – داءفي الروح والجوهر، ومتى ادوى الجوهر واعتل الروح فأحر بالجسم والظاهر ان يفسد ويدوى – ثم تزداد فساداً ومرضاً .

لقد كان الايمان قد فني وباد ، وفاض الشك وتفشى الجحود والالحاد، وطرح البنّاء معياره ومقياسه وقال لنفسه : « اي قيمة لقانون التوازن واي فضل في الحساب والنظام . ضع الحجر على اخيه كيفما جاء واتفق ولا يعنيك ان تجشم النفس مراعاة قانون او حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون !

واني لأتبين اتصالاً طبيعياً والتئاماً تاريخيــاً ما بين ثورة لوثر ودعوته الى الاصلاح ، وبين صيحة الثورة الفرنسية اذ علا بها ضجيج الثوار في قصر الامارة يصيحون : « الى السلاح ! الى السلاح ! »

ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئــاً حقيراً او باطلاً ! كلا انما كانت صوت الامم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقهــا اثناء الكابوس . نعم ، صوت الامم هبت من حالة بين الرقاد والموت ، فبدأت تشعر ان الحياة شيء حق ، وان عالم الله ليس بمكينة تساس بالدهاء والمكر ، وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فارسلت صيحة جهنمية ، وإنما اتت جهنمية لان طغاة الملوك وعتــاة الحكام أبوا إلا ان تكون كذلك . لقد هبت الامم وقالت لا بد للأباطيل والأضاليل ان تنتهي ويخلفهــا نوع من الاخلاص كيفما كان . ولا بد لنا من عودة الى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية وجلبت على رؤوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء . هذه هي الثورة الفرنسية : هي كما ترون حق ، ولكنه حق ملتفع في شواظ الجحيم ولظى جهنم !

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من اهالي انكلترا ان الامة الفرنسية كانت في تلك الاوقات – اوقات الثورة – قد جنّت ، وان الثورة الفرنسية كانت صنفاً من الجنون تحولت فرنسا وفرق عظيمة من سكان المعمورة اثناءه مارستانا . ذلك كان رأي العدد العديد من الانكليز وفلاسفتهم : ان الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد واصبح الآن في عالم الاحكام والاوهام والقصص والعجائب والنوادر

والغرائب !

فليت شعري كيف كان وقع الثورة الثانية ، ثورة ١٨٣٠ ، في نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا ان الثورة الاولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك ، وان حديثها اصبح كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟

ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانياً إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تَذبح وتُذبح ، وكل ذلك لتؤيـــد الثورة الاولى ، وتحفظ آثارها ونتائجها ؟

نعم ان أبناء رجال الثورة الفرنسية واحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ويأبون الا تمسكاً به واصراراً عليه . هم لا يبرأون منه الى الله ، بل يعملون على حفظ اثره واستنتاج ثمره ، باذلين الدماء والارواح في سبيل ذلك ؟

ولعل في هذا الحادث – حادث الثورة الثـــانية – اكبر مصاب لاولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبدأهم وشادوا مذهبهم على ان الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا، ولا يعود بها الزمن ابداً. نعم ان في ذلك الحادث نكبة لاولئك الفلاسفة ، حتى لقد ذاب قلب الاستاذ المؤرخ الالماني « نيبور » كمداً وتقطعت نفسه حسرة ، لما بلغه نبأ هذا الحادث ، ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلاً بداء « الايام الثلاثة [1] » وما هكذا تموت الرجال ! ولست أشبه هذه الميتة الا بميتة الشاعر الفرنسي الكبير « راسين » الذي قتله أن لويس الرابع عشر تجهمه [2] مرة ورمقه شزراً .

فيا ليت الاستاذ الالماني علم ان الكرة الأرضية صلبة جلدة ، وانهـا طالما تحملت صدمات الدهر وضربات القضاء ، وانه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة حول محورها بعد ثورة « الايام الثلاثة ! » ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتُعلم الناس جميعاً ان الثورة الفرنسية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة

---

١) هو اسم ثورة سنة ١٨٣٠ .

٢) عبس في وجهه سخطاً .

حرة من ثمار هذا العالم ، عالم الله . وانها كانت حقاً يحسن بكل انسان أن يعده حقاً لا باطلاً ولا جنوناً !

وحقاً انه لولا الثورة الفرنسية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ، ولعميت علينا وجوه الرشد ، واستبهمت معالم القصد ، وكنا لا محالة هالكين . وانا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسية الا كذلك ، او وحياً صادقاً ورسالة حقاً ، وان راعت القلوب وأزعجت الخواطر في عصر تصنّع وكذب : رسالة تنبيء ان للكون سراً فان لم يكن الّـهياً فهو اذن شيطاني ، ولكنه سر على اية حال ، وان التصنع والغش ليس بحق ، وانه لا بد أن يتحول حقاً ، والا اشتعل العالم تحت ما يستره من اثواب الغش واللؤم والباطل فأحرقها ، وليت شعري اذا احترقت فصارت « لا شيء » أفهل كانت قبل ذلك الا « لا شيء !»

نعم ، بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والغش ، والباطل الاجوف الفارغ ، وانتهى شر كثير وفساد جم .

والثورة الفرنسية رسالة الله الى الأرض ، صدع بها صوت من الرعد ، او او صرخت بها نفخة اسرافيل في السور يوم القيامة ! فمن اسرع الى اعتقاده اصاب خيراً وحمد العقبى . ثم لا طمأنينة ولا صفاء ولا امن ولا سلام ، او تعرف هذه الرسالة حق اليقين !

وقد كان الرجل وسط هذه الاباطيل والاكاذيب والاضاليل جديراً أن يصبر وينتظر — جديراً ان يمضي في شأنه ويعنى بعمله ، ويعلم ان القلم العلوي قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور ، وان كان هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم في الأرض بعد أن صدر في السماء .

لقد كان الرجل المخلص جديراً ان يرى ذلك فيغتبط ويصبر وينتظر . ثم هو من وجهة اخرى اذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد وصيحاته المتوالية ، يطلب انفراج الازم وتراخي الخناق ، كان جديراً ان

ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله الى شؤون أخرى ، لا سيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقي !

وعندي ان انفس الحقائق في مثل هـذه الحوادث « حوادث الثورة » هي حقيقة « عبادة الابطال » ، فانها أجمل العزاء واحسن السلوة في هذه الاوقات ، وأملنا الوحيد في سياسة الدنيا وتدبيرها . ولو ان الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات والعقائد والمذاهب والملل والنحل ، لسلمت لنا هذه الحقيقة . فان ثقتنا بأن الله مرسل لنا الابطال ، وما جبلنـا عليه من اجلالهم حينما يرسلون الينا – هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ، وسط كل انهدام وانفجار !

ولو انك اسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة «اجلال الابطال »، لوقعت منهم موقع التكذيب والانكار ، ولأرخوا دونهـا حجب الآذان ، وقالوا : حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلاً عن عـــدم احترامهم الابطال ، لا يصدقون بوجود الابطال ، بل لا يودون ان يجيء الزمن ببطل قط ! وكأنهم ظنوا ان الكون بعد ان تحول الى مكينة ، وهن وبلي ، حتى ضعف عن اخراج الابطال ، وعقم صلبه منهم .

واذا صح ان الكون قد أصبح كذلك فاني قائل له أولى لك ان تكف بالمرة عن اخراج الرجال ، فانا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ، ولا نرضى بانسجة ليس فيها الخز والديباج ، او بالاختصار : لا غنى لنا عن الابطال !

أما « مذهب الحرية والمساواة » فقد كان من نتـائج تلك الاحوال ، وكان إذ ذاك شيئاً طبيعيـــاً ، فلذلك لا يجمل بي ان أرد عليه . ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا : « بما انه قد استحال وجود العظماء والابطـال ، فللعالم الآن ان يستغني عن هؤلاء الافذاذ النوادر بالجمـاهير العديدة المتساوية في ضؤولة القدر وخسة القيمة وخفة الاحلام وعجز الآراء . »

ماذا اقول في هذا المذهب وبمـــاذا اقابله الا بعذر اربابه ، والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها اذ ذاك ولا مفر . ذهب ارباب ذلك المبدأ الى ان الناس

أحرار متساوون ، وانه ليس لرجل أن يسود ويقود ويتسلط . وحجتهم على ذلك ان عبادة الابطال ، واحترام المسلطين والزعماء والقادة ، قد ظهر فسادهما ، وما هما الا كذب وباطل فحسبنا منهم ما كان . لقد خدعنا من هذا الطريق مراراً حتى فنيت الثقة به . وطال تصديقنا حتى لا نصدق ، واذا كثر مجال النقود الزائفة في الأسواق ، كذب الناس بوجود الذهب الصراح ، وانه قد تصلح الامور وتستقيم الحال بلا ذهب . انا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل اعذرهم عليها ، وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية وان كانت صاباً وعلقما .

●

وبعد ، فليس هذا المذهب الا تحولاً وانتقالاً من الباطل الى الحق وليس هو بالحق . فاذا رؤي [1] انه الحق باكمله ، فهو اذن باطل محض نتيجة الشك الأعمى يحاول ان يكشف عماه ليبصر . فان عبادة الأبطال موجودة في كل زمان ومكان ، وما هي قاصرة على إجلال الملوك والسادة والسواس والقادة ، بل انها لتمتد من عبادة الله الى احط مواطن الحياة العملية ، وانحناء الرجل لاخيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقاً فهو من قبيل عبادة الابطال واعتراف بان في كل انسان خلقه الله روحاً من الخالق ، وان كل امرىء مظهر لجلال الله . وعندي ان الذين ابدعوا اشارات التحية ودلائل الملاطفة والاحتفاء التي تجمّل الحياة وتزينها هم شعراء ! وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل . والولاء والاجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل من المحتمات .

واني اقول انه وان رأينا كثيراً من ابطال العصور الاخيرة قد ظهروا في الثورات وكانوا ثواراً ، فانهم بفطرة الله ابناء نظام لا ثورة ، واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة ، اذ يُرى احدهم في الفتنة وكأنه فوضوي ، وما هو بفوضوي

---

[1]) رؤي فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب .

ولا كانت الفوضى قط من شأنه ، ولكن جواً من الفوضى يحيط به ، وعقبات منها لا تزال تعتاقه وتعرقل مسعاه ، وهو عدو الفوضى وخصمها ، وانما النظام عمله ووظيفته بل وظيفة كل انسان .

وما خلق الله الانسان الا ليصلح الفاسد ، ويلم الشعث ، ويعمد الى الشيء المختلط فيصبه في أبدع قالب من النظـــام ، ويلقيه في أكمل صورة من التنسيق والاحكام . والانســـان رسول النظام . أوليس كل ما يصنع المرء في هذه الدنيا هو تنسيق وتنظيم ، فالنجار يعمد الى الشجر الغليظ الأشعث فينعم نحته وتمليسه ، ويحسن تقديره وتصويره ، ويجيـــد خرطه وصقله ، ويلقيه في أعجب القوالب والصور ، ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة في المجتمع ؟

وقد خلقنا الله جميعاً أعداء الفساد والفوضى ، وانه لمن البلية علينا جميعاً وسوء الحظ ، ان نُصرف عن التنسيق والتنظيم الى التقويض والتحطيم . وسوء الحظ في ذلك والبلية مضاعفة على الرجل العظيم الذي يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

وكذلك نرى ان اشد اعمال الثورة الفرنسية جنوناً كانت تسير نحـــو النظام . اقول : وليس رجل من اولئك الثوار قد طار في دماغه جنون الحنق والفتك ، الا وهو مدفوع في كل حركاته نحو النظام منجذب اليه . وكيف ، وما حياته نفسها الا مسيرة نحو النظام ، بل لهي النظام ذاته . اذ ان الفوضى هي الفساد ، هي الموت . وما من فوضى تثور الا ويجعل الله لها قطباً تدور عليه فتتحول بفضله نظاماً .

وما دام الانسان انساناً ، فسيكون للثورة رجل كنابوليون وكروموبل تختم به وتتم !..

عجباً والله كيف تكون عبـــادة الابطال في ازمان الثورة ضرباً من المحال ، في عقيدة الشعب الثائر ، ثم لا تلبث ان تبدو للعيان ، فلا يستطيع احد إنكارها . وارى « الحق المقدس » معناه على وجـه العموم « القـــوة

المقدسة » ، فاذا حسبت الامارة والسلطة في عصور الثورة امحت وماتت ، اذا بها قد عادت اليك في شخص نابليون او كرومويل ، وانما هي المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت واتلفت ، وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة .

وتاريخ نابليون وكرومويل هو آخر اصناف البطولة . واني ارى في تاريخ هذين البطلين ما يعيـــد الينا عهد الملوك في طفولة الأمم ، اذ يرينا كيف كانت تنشأ الإمارة في فجر تاريخ العالم ، وكيف كانت تولـّي الملوك يومئذ .

فهرست

شهيرات النساء في العالم الإسلامي

السيرة أطرف الوان الادب، لأنها تجلو الاحداث من خلال الابطال، وتبرز التاريخ في اطار من القصة ، وتنهض بالمثل بطاقة الواقع ، وتوشي الحقيقة بمسحة من الخيال .

وكم من سيرة فرد حركت شعباً، وانطلقت بأمة ، وانعطفت بمجرى الأحداث ، فكانت مركز الثقل في تاريخ الامم ونهضات الشعوب.

وتاريخنا العربي زاهٍ بسير ابطاله، مباه بأعمال رجاله، الذين كم كسفوا من نجوم وخسفوا من كواكب .

الا ان التوفر على سير شهيرات نسائنا يكاد يكون يتيماً حتى انقطعت له الأديبة الكبيرة قدرية حسين .

وكان ميلاد هذا السفر واسطة العقد في سيرة البطولة ، عرضاً لخصال شهيرات نسائنا ، وخلال بطلاتنا ، وكل منهن في الأدب والفن والحكمة والسياسة بيت القصيد بقول الشاعر :

لو كان النساء كمن فقدنا　　لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب　　ولا التذكير فخر للهلال

ان سفر « شهيرات النساء في العالم الاسلامي » كتاب كل أم وبنت ومربية ، وكل راغب لابنته واخته السيرة الفضلى والقدوة المثلى ، في السير على نهج الصالحات الفاضلات .

كتاب « شهيرات النساء » اكتناه صميمي لاسرار حياة مشاهير الرجال،ووقوف واقعي في كواليس الأحداث الهامة من مسرح التاريخ .

الفنون الأدبية وأعلامها
في النهضة العربية الحديثة

تأليف

انيس المقدسي

آخر ما انتجه الاستاذ البحاثة في رحيب ميدان دراساته ، مكرساً اياه للفنون الادبية من سائر وجوهها قصة وسيرة ، خطابة ونقداً ومقالة ، مع وقفة طويلة على سيرة اعلامها ومجالات نشاطهم وتقييم آثارهم بكل ما عرض عن الاستاذ العلامة من روح موضوعية ، وأداء علمي .